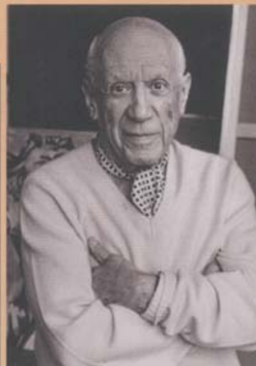
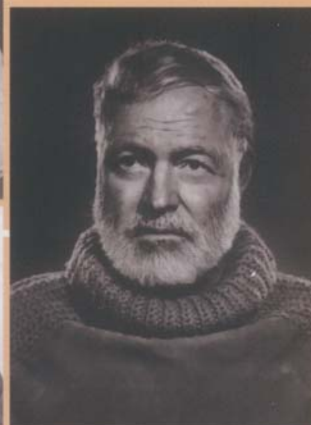
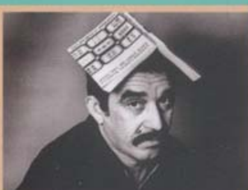








علي حسين



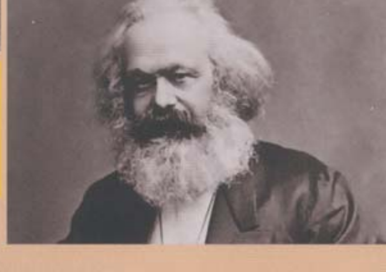
في صحبة الكتب

10.9.2017









أثر

في صحبة الكتب

علي حسين

أثر

في صحبة الكتب

في صحبة الكتب / مقالات

علي حسين

الطبعة الأولى 1438 / 2017
ردمك 978-2-84409-937-2

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

المقدمة

عشرة كتب حيرتني

"هذه الكتب غسلت نفسي وأزالت عنها ما علق بها من أقذار الحقيقة المريرة المؤلمة. أدركت الآن قيمة الكتب العظيمة، وأدركت أيضًا مدى ضرورتها لي وعدم استغنائي عنها، فقد أثارت الكتب في نفسي شيئًا فشيئًا ثقة لا تتزعزع وهي أني لم أعد وحيدًا في هذا العالم، وأني سأشقّ لنفسي دربًا في الحياة".

مكسيم غوركي

أعرف أنني لست باحثًا متخصصاً ً في القراءة، أو خبيرًا بشؤون الكتب والمكتبات، وإنما أنا قارئ مثل ملايين القراء الذين تصادفونهم في معارض الكتب، أوالمحال المخصصة لبيع هذه البضاعة الفكرية الساحرة التي ساعدتني كثيًرا في فهم الحياة. فكل الكتب التي قرأتها منحتني أفكارًا ومتعًا يومية، لولاها لتغير بالتأكيد مسار حياتي، ولعل معظم ذكرياتي المفضلة مع الأصدقاء تدور حول الكتب التي تبادلناها. في هذا الكتاب أنا أحاول أن أحدثكم عن بعض تجاربي المتواضعة في القراءة، وتجاربي ربما كانت جزءًا من حياتي التي قضيت معظمها في صحبة الكتب، فقد عشت في بيت مليء بالكتب، كتب كثيرة من كل نوع، بعضها صفحاته صفراء، وأخرى بيضاء، وفي صباي حاولت أن أعرف سرّ هذه الكتب التي تتكدس في زوايا بيتنا

الصغير، لكنني كنت أخاف الاقتراب منها، لأنها مجلدات ثقيلة، إلّا أن الاكتشاف الأهم في حياتي كان يوم عثرت على مجلة ملوّنة اسمها "المعرفة". أحدثت هذه المجلة التي وجدت منها أعدادًا كثيرة، انقلابًا في حياتي، فلأول مرة أشاهد صورًا ملونة لمشاهير الكتاب، هذه صورة لطه حسين وحديث قصير عنه وعن كتاب الأيام، وفي صفحات اخرى أجد تلخيصًا لرواية "البؤساء" لفكتور هيجو. من خلال هذه المجلة عرفت المتعة والتسلية والرغبة في القراءة، وساعدتني هذه المجلة في أن أمتلك الجرأة وأقلب صفحات المجلدات السميكة، فوجدت دواوين المتنبي وأبي تمام وعنترة، وكتاب "الكامل في التاريخ" لابن الاثير، ومجلدات كثيرة مكتوب عليها نهاية الإرب في فنون الأدب، وكتب دينية، لم أجد فيها غايتي، فقد كانت مجلدات ثقيلة، ورحت أبحث عن الكتب ذات الأغلفة الملونة، فعثرت على كنز جديد وخطير اسمه "كتابي" يحرره رجل واحد اسمه حلمي مراد، كتاب صغير يمكن أن تضعه في جيبك، تتعرف من خلاله على روائع الأدب العالمي، وتقرأ فيه سيَر العظماء من المفكرين والأدباء، واشتريت بمصروفي المدرسي عشرات النسخ منه، وكانت هذه الكتب الصغيرة نواة لمكتبة كنت وما أزال حريصًا على رفدها بأحدث ما تنتجه المطابع في كل الفروع، فقد تعلمت من صاحب سلسلة كتابي أن أقرأ في كل شيء. بعد ذلك اكتشفت شيئًا لم أكن أعرفه : سلسلة روايات كانت تصدرها دار اليقظة العربية في دمشق، مؤلفات مكسيم غوركي وتشيخوف وتولستوي ودستويفسكي وايليا اهرنبورغ وموبسان. قرأت من أجل المتعة التي هي في رأيي أهم ما تمنحه إيانا هذه الكتب، واعتدت على الكتب، واكتشفت أنني لا أستطيع قضاء أيامي من دونها، بعدها كان الكنز الثاني اسمه دار العلم للملايين وروائعها بدءًا من شارلوت برونتي ومرورًا بارسكين كالدويل وشتاينبك وليس انتهاءً بهمنغواي وكافكا، وكنت أقرأ كل كتاب من سلسلة روائع

الأدب التي تصدرها هذه الدار، بمجرد أن أجدها معروضة في واجهات إحدى مكتبات شارع السعدون .

حتى صداقاتي كانت تحمل في جوهرها علاقتي بالكتب، أصبحت الكتب هي محور حياتي، وعندما اخترت العمل في الصحافة لتكون مهنتي، دخلت إليها وأنا مقتنع بأنني سأشارك القراء هذا الشغف والحب للكتاب، وبصرف النظر عن أي شيء آخر يمكن أن أقدمه للقارئ، فإن بإمكاني أن أمنحهم الحماسة لحبّ الكتاب؟

خلال عملي الصحفي كنت وما زلت أتلقى طلبات من القراء لترشيح عددٍ من الكتب لقراءتها، لذلك سأحاول أن أضع قائمة بالكتب التي قضيت معها أجمل الأوقات، وقائمة أخرى بالكتب التي لم أستطع حل ألغازها حتى هذه اللحظة، رغم أنها كتب قليلة إلا أنها تثير حيرتي كل يوم، مع التأكيد أن هذه القوائم تتعلق بشخصيتي، ولا يوجد أي تأكيد بأنها أفضل الكتب، بالتاكيد هناك مئات من الكتب ربما أفضل منها لكنني لم أطّلع عليها، وهذه القائمة ربما تشجعك أيضًا لأن تضع قائمة خاصة بك.

الكتب التي استمتعت بصحبتها:

1 – دستويفسكي الإخوة كرامازوف

2– تولستوي – آنا كارنينا

3 – إيفو اندريتش – جسر على نهر درينا

4–جان جاك روسو– العقد الاجتماعي

5–جورج أورويل – لماذا نكتب

6– يشار كمال – ميمذ الناحل

7–أورهان باموق – اسمي أحمر

8- بابلو نيرودا – أشهد انني قد عشت

9- طه حسين – الأيام

10- أمين معلوف – ليون الأفريقي

11- ستيفات تسفايج – عالم الأمس

12- هوارد زن – قصص لم تروها هوليوود

13- توفيق الحكيم – عودة الروح

14- الجاحظ – البخلاء

15- أبو العلاء العري – رسالة الغفران

16- فرويد – حياتي في التحليل النفسي

17- إدوارد غالينو – كرة القدم بين الشمس والظل

18- هربرت ماركيوز – الانسان ذو البعد الواحد

19- سيرفانتيس – دون كيخوته

20- شكسبير – الملك لير

21- صاموئيل بيكت – في انتظار غودو

22- ابن حزم – طوق الحمامة

23- أوفيد – فن الحب

24- خيري شلبي – وكالة عطية

25- نجيب محفوظ – الثلاثية

26- غارسيا ماركيز – عشت لأروي

27- أمل دنقل – الأعمال الشعرية

28- اندريه مالرو - لامذكرات

29- ميلان كونديرا - الحياة هي في مكان آخر

30- جورج امادو - كانكان العوام الذي مات مرتين

31- إيزابيل اللندي - ابنة الحظ

32- أرنست همنغواي - الشيخ والبحر

33- أميل حبيبي - سداسية الأيام الستة

34- محمود درويش - الأعمال الشعرية الكاملة

35- فؤاد التكرلي - الرجع البعيد

36- غائب طعمة فرمان - النخلة والجيران

37- جان بول سارتر - الكلمات

38- ادورد سعيد - في المكان الخطأ

39- غوستاف فلوبير - مدام بوفاري

40- ستندال - الأحمر والأسود

41- تشارلز ديكنز - كوبرفيلد

42- سكوت فيتزاجلد - غاتسبي العظيم

43- مكسيم غوركي - الأصدقاء الثلاثة

44- إيريل هوبزبوم - عصر مثير

45- جورج لوكاش - تحطيم العقل

46- انيس منصور - في صالون العقاد

47- بليخانوف - المؤلفات الفلسفية

48- فرانز كافكا - القصر

49- ايمانويل كانط - نقد ملكة الحكم

50- الطيب صالح - في صحبة المتنبي ورفاقه

51- البرتو مانغويل - فن القراءة

52- فرناندو بيسو - المختارات

53- فريدريش دورينمات - رومولوس العظيم

54- افلاطون - الجمهورية

55- ديكارت - التاملات

56- ت.س.اليوت - جريمة قتل في الكاتدرائية

57- غوته - فاوست

58- نيتشة - هكذا تكلم زرادشت

59- هربرت برغسون - التطور المبدع

60- بيتر فايس - ماراصاد

61- غراهام غرين - العنصر الانساني

62- شوبنهاور - العالم ارادة وتمثلا

63- برتراند رسل - الف باء النسبية

64- اسبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة

65- البيركامو - الغريب

66- كيركغارد - خوف ورعدة

67- مارسيل بروست - البحث عن الزمن المفقود

68- جورج برنادشو - الانسان السوبرمان

69- ميشيل فوكو - الكلمات والأشياء

70- هيغل - علم ظهور العقل

71- جون ملتون - الفردوس المفقود

72- قسطنطين كفافيس كفافي - الأعمال الشعرية

73- لورنس داريل - رباعية الاسكندرية

74- جيميس جويس - يوليسيس

75- ايزنشتاين - مذكرات مخرج سينمائي

76- ابسن - الأعمال الكاملة

77- بريشت - بونتيلا وتابعه ماتي

78- غونتر غراس - طبل الصفيح

79- ماركس - انجلز - المختارات

80- ديوان السياب

81- بول أوستر - ثلاثية نيويورك

82- ارنستو ساباتو - الكاتب وأشباحه

83- فرنان برودل - الحضارة المادية والاقتصادية والرأسمالية

84- فرجينيا وولف - المنار

85- وليم فوكنر - الصخب والعنف

86- رولان بارت - الكتابة تحت درجة الصفر

87- ول ديورانت - مباهج الفلسفة

88-نيتشه - هكذا تكلم زرادست

89-هيدغر - الكتابات الأساسية

90-افلاطون - الجمهورية

91-اندرية جيد - اللا اخلاقي

92-ايليا اهرنبورغ - ذوبان الجليد

93-تشينو أتشيبي - الأشياء تتداعى

94-سلامة موسى - معظم مؤلفاته

95-روجيه غارودي - واقعية بلا ضفاف

96-أراغون - عيون إلسا

97-شارلي شابلن - حياتي

98-تنيسي وليامز - المذكرات

99-خالد محمد خالد - هذا أو الطوفان

100- جوزيف كونراد - قلب الظلام

الكتب التي حيرتني

1- النسبية - البرت اينشتاين

2- نظرية المعرفة - لينين

3- راس المال - كارل ماركس

4- المنطق - أرسطو

5- نقد العقل المحض - كانط

6- الكينونة والعدم - سارتر

7- الوجود والزمن - هيدغر

8- مدخل إلي التفكيك - جاك دريدا

9- الاختلاف والتكرار - جيل دولوز

10- ظاهريات الروح - هيغل

(1)

قال لي بيكاسو: لكي تكون عبقريًا.. يجب أن تصبح مليونيرًا.

"لطالما اعتبرتُ الكتب كائنات حيّة بعد أن صادفت مؤلفين جددًا غيّروا حياتي قليلاً، فبينما أمرّ بفترة ارتباك ما، أبحث عن شيء لا أستطيع تحديده، إذا بكتاب معيّن يظهر، ويتقدم مني كما يفعل صديق، يحمل بين دفّتيه الأسئلة والأجوبة التي أُفتّش عنها .

الممثلة ليف أولمان من مذكراتها (أتغير)

وأنا أتصفح عدد الأمس من صحيفة الأهرام المصرية، وقعت عيني على خبر صغير: "الهيئة المصرية للكتاب تصدر طبعة جديدة من الأعمال الكاملة للراحل كمال الملاخ". ولمن لا يعرف صاحب الاسم أقول، إنه كان ظاهرة في الصحافة والثقافة العربية. وقد قيل عنه، إنه جعل القراء يقرأون صحيفة الأهرام من الصفحة الأخيرة إلى الأولى.

كان الملاخ، رغم حصوله على شهادة الماجستير في الآثار، وارتباط اسمه باكتشاف مراكب الشمس الفرعونية وبترميم أبي الهول، يعشق الصحافة حتى أنه تفرّغ لها واستخدم ثقافته المتنوعة في الأدب والتشكيل والموسيقى والسينما ليقدمها إلى القارئ. وفي الصفحة الأخيرة من الأهرام، أسّس زاوية يومية تتوسط الصفحة أسماها (من غير عنوان)، وكان يخط العنوان الرئيس بيده، وأيضًا يرسم توقيعه المميز الذي يضعه في آخر الزاوية.

لا أتذكر عدد الكتب التي كتبها، ولكني أعرف أنه كان أسرع كاتب

عربي، فقد أصدر كتابًا عن بيكاسو (المليونير الصعلوك) بعد أقل من شهر على رحيله، وفعل هذا مع طه حسين في كتابه (قاهر الظلام) الذي تحول إلى فيلم سينمائي، ومازح توفيق الحكيم أثناء حياته في كتاب مثير بعنوان (الحكيم بخيلاً)، وأصدر سلسلة (صالون من ورق)، وكتب عن بريجيت باردو كتابًا في نفس الوقت الذي كتب فيه عن توت عنخ آمون.

ويقال إنه حين يدخل صباحًا إلى غرفته في الأهرام، يسألونه ما الجديد الذي قرأه، وكم كتابًا أضيف إلى مكتبته؟ وكان يجيبهم: "ما زلت تلميذًا في مدرسة القراءة". ويذكر صديقه الحميم أنيس منصور أن الملاخ كان شغوفًا بالقراءة وكان يقرأ بلغات كثيرة، ويسافر إلى بلدان كثيرة، وكان عجيب الاهتمامات: من الآثار، إلى السينما، إلى الأدب ومعركته مع العقّاد، ولا ينسى منصور أن يخبرنا بأن الملاخ مات وفي بيته 60 ألف كتاب.

***

في مقدمته لكتاب (المليونير الصعلوك) يكتب الملاخ: "كنت أنوي الكتابة عن صعلوك آخر لمع في دنيا المال في القرن العشرين، وأعني به أوناسيس، ملك ناقلات البترول، وخاطف قلب زوجة أشهر رئيس أميركي جورج كنيدي، وكنت قد قابلته في فندق سميراميس مرات عديدة، وقابلت جاكلين كنيدي قبل أن تصبح سيدة البيت الأبيض، كانت آنذاك الفتاة ذات القوام الممشوق، ولا أريد أن أروح وأتيه بعيدًا عن بيكاسو، فأثناء تحضير كتاب أوناسيس، مات العملاق الصغير فجأة بلا مقدمات، ووجدتني أمسك القلم لأبدأ بالعنوان: المليونير الصعلوك".

***

في يوم حار من عام 1928م التقى، على مأدبة غداء في ضواحي باريس، بابلو بيكاسو وسلفادور دالي، اللذان سيصبحان أشهر رسامي القرن

العشرين. كان حاضرًا أيضًا الروسي شاغال، الذي سوف يصبح بدوره أحد معلمي الرسم الحديث. لم يكن شاغال قد سمع بدالي، لكنه يعرف بيكاسو جيدًا. كان اسم شاغال قد أخذ يشتهر، وبخاصة حين كان الحديث يتعلق بتأثيره على الموجة الجديدة من الفن والشعر السوفيتي. وفي باريس التي وصلها عام 1922م بدأ، وبتكليف من أحد تجار اللوحات، برسم رائعة غوغول (النفوس الميتة)، التي ستصبح بذلك واحدةً من أيقونات الفن الحديث، وتجعل متحف لينتغراد آنذاك يصر على اقتنائها برغم خلاف شاغال مع النظام السوفيتي في ذلك الوقت. أما دالي فكان في الثالثة والعشرين من عمره يحمل أفكارا غريبة، حتى أنه قال لبيكاسو يومًا: "لكي تستطيع أن ترسم يجب أن تكون مجنونًا"، وكان يرى في أعمال شاغال أنها قليلة الأهمية، ويهمس في أذن بيكاسو وهم يتناولون الغداء: ما بال هذا الرجل معجب بالبقر؟ هل يعتقد أن أحدًا سيمنحه وسامًا على مثل هذه الرسوم؟ بعد مائدة الغداء الثلاثية هذه بأعوام، يقول دالي لكاتب سيرته حين يسأله: لماذا وافق أن يأخذ وسامًا من الجنرال فرانكو، ألا يسبب له ذلك إحراجًا؟ فيجيب: على العكس، إن الملتزمين هم الخدم وأنا أريد أن أبقى سيدًا على الدوام. وحين يقول له: إنك بذلك تنسى هؤلاء المثقفين، والذين قتلوا في سبيل أفكارهم، تنسى صديقك لوركا، فيكون جوابه: "يا سيدي أنا بدأت خائنًا لطبقتي التي هي البرجوازية فقد آمنت بأقصى اليمين، فأنا من أنصار الملكية المطلقة، وأنا كذلك فوضوي، لذلك فأنا أقبل أي وسام من الاتحاد السوفيتي أو الصين، أعطني إياه وسأقبله على الفور"، وحين يقول له المحرّر: "إذن أنت راضٍ بدور الخائن"، يجيب وهو يضحك: "نعم، لأنني أعارض بيكاسو في كل شيء".

***

في صيف عام 1923م، يقف رجل نحيل رثّ الثياب في محطة قطار

باريس، وفي يده حقيبة جلد صغيرة لا تحوي سوى قميصين وبنطال عتيق، كان مارك شاغال قد ترك وراءه في بلدته فتبسك زوجته التي ستلحق به، وآمالاً وأحلامًا كان يتمنى أن يحققها لمواطنيه. فالشيوعي المتحمس، والذي كان يحدوه الأمل في مستقبل أفضل، لطالما شوهد وهو ينادي بأفكار الاشتراكية، غير أن ردة فعل زملائه من الفنانين كانت الاحتجاج على الجديد في مجال الرسم والذي جاء مخيبًا لآمالهم، فإذا بهم يتعجبون ويتساءلون؛ ترى ما علاقة البقرة الخضراء التي يرسمها بما نادى به ماركس وأنجلز، كان في انتظاره على رصيف المحطة صديقة فكتور مكلر الذي سبقه بعام إلى مدينة النور، وسيتقاسم معه غرفته الفقيرة، وهناك سيعيد رسم بقراته بألوانها الخضراء، وستصبح هذه الرسوم فيما بعد علامة من علامات باريس حين يكلّفه وزير الثقافة أندريه مالرو بإعادة ترميم أوبرا باريس التي طالتها نيران الطائرات الألمانية في الحرب العالمية الثانية. وللبقر في حياة شاغال حكاية طريفة يرويها الشاعر رفائيل ألبرتي في مذكرته (الغابة الضائعة)، والتي ترجمتها إلى العربية باهرة رفعت، يقول ألبرتي: "كانت الزيارة التي قمت بها إلى مارك شاغال في منزله قد انطبعت في ذاكرتي، حين دخلت منزله فوجئنا لأن بقرة هي التي فتحت الباب لنا، وفي داخل المنزل كانت الأبقار تنتشر في كل الاتجاهات، فوق الخزانات، فوق الطاولات، فوق الكراسي، بين الكتب".

- ولكن يا شاغال إن منزلك هذا ليس سوى إسطبل.. وخطر ببالي فجأة أنه راع أكثر منه رسامًا.

- علينا أن نحب الأبقار، قال لي، وأضاف: "الكون بالنسبة لي مأهول بها، انظروا إذا ما فتحت النافذة ليلاً فإني أراها فوق سقوف منازل الجيران، حتى قمر روسيا المتجمد يكتظ هو الآخر بالأبقار."

رحت أنظر إليه وهو يتحدث بحماسة عن الأبقار، فأيقنت أن أبقار شاغال تنضح إنسانيةً وحكمةً، لأنها تعرف الكثير عن السماء والقمر والنجوم.

***

استيقظَ في العاشرة صباحًا، لم يقوَ على القيام من سريره، شعر بتعب مفاجئ وغريب، تذكر سنيّ حياته ويوم وصوله إلى باريس معدمًا وأيام الحرمان، وكيف حاول ذات مرة أن يبيع لوحة بدولار واحد ليتغدى به، لكن لا أحد يتقدم لشرائها، فعاد إلى غرفته الرطبة تحت وابل من المطر، وأصيبت اللوحة بالبلل والتلف. وتدور الأيام، وتُباع اللوحة نفسها بنصف مليون دولار، دخلت عليه زوجته فرأت الحيرة في عينيه الصغيرتين، ولاحظت أن لونه قد تغير، هرولت إلى الخارج تكاد تصرخ، تستغيث، إصبعها يدير قرص الهاتف وهي ترتعش. على الجانب الآخر كان الطبيب الخاص، يأتي مسرعًا ، كل من في القصر الكبير يهرول، الأبواب مشرعة تدخل منها نسائم نيسان، الكلب يدس رأسه بين قدميه الأماميتين، كان يرى الجزع والخوف في العيون، كانت ماريا وهي تمسك سماعة الهاتف تعلم أن بيكاسو لم يعد مواطنًا يملك حياته الخاصة، وإنما هو مُلك لجمهور كبير، تتذكر أنها كانت تقود دراجتها ذات يوم حين توقفت عند تقاطع كان فيه كشك لبيع الصحف، وحين تطلعت شاهدت وجه بيكاسو يحدق من غلاف مجلة لايف الشهيرة وقد استقرت حمامته المفضلة على كتفه، صدمتها الصورة كثيرًا، عندها أدركت أن حبيبها بدأ يهرب بعيدًا بعيدًا. الطبيب يقول إنه قد وصل بعد فوات الأوان.. لقد توفق قلب أشهر فناني القرن العشرين. طار الخبر سريعًا، قطع التلفزيون الفرنسي برامجه، ليخرج الرئيس جورج بومبيدو في وقت متأخر من الليل ومن على شاشة التلفاز، ينعى للأمة الفرنسية غياب أكبر عظمائها.. لقد مات بابلو.

***

في سيرته الذاتية التي نشرتها مجلة (وجهات نظر) على حلقات، يكتب المخرج الفرنسي روجيه فاديم أن بريجيت اتصلت به بعد منتصف الليل وهي تصرخ "فاديم، بابلو رحل"، وكان صوتها مختنقًا بالعبرات، لم يدرك المخرج عن أي بابلو تتحدث حتى شاهد في التلفاز صورة العبقري، وخبرًا يقول رحل بابلو بيكاسو. كانت بريجيت باردو صغيرة حين تعرفت على الرسام الشهير، وظلت تذهب إلى مرسمهِ كلما سنحت لها الفرصة. تقول في لقاء أُجري معها العام الماضي: "في مرحلة ما كنت أرى وجهي في معظم لوحات بيكاسو، صحيح أنه لم يتخذني موديلاً، وكنت أتمنى ذلك، لكنه كان يضع بعضًا من ملامحي في لوحاته الغريبة".

يذكر الملاخ في (المليونير الصعلوك) أن مطعمًا شهيرًا جمع بيكاسو وبريجيت باردو ورئيس وزراء فرنسا عام 1950م هنري كويويل، وكان كل منهم يجلس على طاولة بين أصحابه، وأراد رئيس الوزراء أن يدعو باردو إلى مائدته في نفس اللحظة التي أشار لها بيكاسو أن تنضم إليهم، فاختارت أن تذهب باتجاه طاولة الرسام القصير، وتركت رئيس الوزراء حائرًا، فأرسل إليها ورقة صغيرة فيها عتاب رقيق لأنها أحرجته أمام ضيوفه، فردت عليه بنفس الورقة، أن فرنسا مرّ عليها الكثير من رؤساء الوزراء، لكن هناك بيكاسو واحد لن يتكرر في تاريخها.

***

حين عرض سلفادور دالي لوحته، الشهيرة (إلحاح الذاكرة) عام 1931م، رفض أن يفسّرها، وكان يحيل السائلين إلى معرفة تفاصيل حياته، فهو يتذكر أن أمه أخذته وهو صغير إلى طبيب ليفحص فمه حيث كان يعاني من التهابات، وحين طلب منه الطبيب أن يفتح فمه ويريه لسانه، لم يفهم المعنى

جيدًا، كان يعتقد أن الطبيب يحدّثه عن ساعات سائلة، امتزجت هذه العبارة بخياله، حتى أنه قرر أن لا تخلو معظم لوحاته من الساعات، لكن الباحثين رأوا أن اللوحة تنبئ بقدوم عصر الأسلحة الفتّاكة، التي ستنسف الكون والزمن وتحيلنا إلى الأرض اليباب التي تنبأ بها الشاعر إليوت يومًا. بعد ذلك بسنوات، وبعد أن تحققت نبوءة الأسلحة الفتاكة وألقت أميركا قنبلتها الذرية على هيروشيما، يعود دالي ليكمل الجزء الثاني من اللوحة وبعنوان (تفكك إلحاح الذاكرة)، في ذلك الوقت كان مواطنه الآخر بيكاسو، قد هزّه ما حدث في قرية جورنيكا الإسبانية: 2000 شخص يبادون وقرية تدمر بأكملها وتسوى مع الأرض، يدخل مرسمه الباريسي ليرسم، يحلق بالألم، عدة أشهر وهو يخطط ويرسم لتظهر بعد ذلك أكبر لوحة رسمها في حياته، بالأسود والأبيض فقط، تخرج المأساة أشلاءً وأرجلاً وأيدي مقطعة، رأس حصان يحتضر في سواد الليل، صرخات مكبوتة، أصابع متشنجة، إنها بقايا أحلام الناس بالأمن والسلام، يرفض بيكاسو أن يوقّع اللوحة أو أن يضع لها تاريخًا، فالمأساة لا يمكن أن تختصر بساعات وأيام وبتوقيع رسام. في مكان آخر كان شاغال يرسم الحرب، يلوّنها، الأم والأب ومعهما طفلهما الرضيع، والثور الأبيض والمجاعة ومحاولات الفرار من مصير مفجع، كان شاغال في ذلك الوقت قد بلغ من الشهرة ما كان ينسيه سنوات البؤس والفقر، لكن ذاكرة الحرب أقوى من المال والمجد والشهرة.

***

قال لطبيبه وهو يحذره من الإفراط في التدخين والشرب: "لقد تعلّمت

الدرس من سيرفانتس، فأعظم شعراء إسبانيا مات فقيرًا معدمًا، ولهذا أريد أن أموت وأنا أتمتع بكل أصناف الحياة ومعها الملايين بالطبع". قال لي يومًا بيكاسو: "لكي تكون عبقريًا، يجب أن تصبح مليونيرًا". يتذكر أنه كان

يرسل كل سنة بطاقة بريدية إلى غريمه الإسباني القصير يذكّره فيها بقصة قديمة حدثت لهما أيام كانا يحاولان أن يجدا مشترين للوحاتهما، لكن جهودهما تنتهي دوما بالفشل فيندفع هو صائحًا: "كل يوم لا مال ولا نساء". لا يتذكر أن بيكاسو يومًا أرسل له ردًا على بطاقاته البريدية، وحين تقرر مجلة لايف أن تجري معه حوارًا يشترط أن تكون صورته على الغلاف، يقول لمحرر المجلة: "ليست محاولة لتقليد الصعلوك الإسباني، صحيح أنه كان موهوبًا، لكن دون مهارة، الشيء الإيجابي الوحيد الذي يمكن أن يقال عنه، إنه كان أمهر من سيزان وأكثر وضاعة من غوغان".

(2)

اسمحوا لي أن أقدّم لكم نفسي: أنا ألبير كامو

إلى رئيس تحرير مجلة الأزمنة الحديثة:

" لم تكن صداقتنا بالأمر الهين، بيد أنني سأفقدها، إذا أنهيتها أنت في اللحظة التي سمحت فيها بالإساءة المباشرة لي، فذلك يعني دون شك أنه كان ضروريًا أن تنتهي، أمور كثيرة جذبتنا كلينا للآخر وقليل منها فرّق بيننا، ولكن هذا القليل على قلّته كان ولا يزال كثيرًا جدًا".

هذه الرسالة التي أرسلها صاحبها عام 1951م، أنهت صداقة بين اثنين من أشهر فلاسفة القرن العشرين ومفكريهم، وهما جان بول سارتر وألبير كامو.

يتذكر كامو في دفاتر ملاحظاته التي صدرت ترجمتها العربية قبل عامين، في ثلاثة أجزاء، أن علاقته بسارتر بدأت العام 1938م حين اكتشفه بالصدفة بعد أن أهداه صديق جزائري رواية: (الغثيان)، ما أن أغلق الصفحة الأخيرة من الرواية حتى قرر الكتابة عنها، آنذاك كان ينشر مقالات متفرقة في الصحف الجزائرية الناطقة بالفرنسية، يظهر المقال تحت عنوان (درس في الأدب): "هذه أول رواية من كاتب لنا أن نتوقع منه كل شيء، يا لها من سكينة طبيعية جدًا عند الجدود البعيدة للفكر الواعي، ويا لها من مؤشرات دالة على مواهب غير محدودة، ونرى في كل هذا أساسًا مكينًا لكي نرحب بالغثيان باعتبارها أول الغيث في عقل أصيل مفعم حيويةً ونشاطًا، ما

يجعلنا نتحرق شوقًا إلى الآتي من دروسه". لم يكن كامو قرر بعد أن يتجه لكتابة الرواية، فقد كان يهوى النقد الأدبي، ونشر عددًا من المقالات عن كتب صدرت حديثًا مثل (المزيفون) لأندريه جيد، و(باهينا) لجورج أمادو، و(الأوراق القاحلة) لهكسلي، لكن أنطوان روكتان بطل (الغثيان) جعله يسدل الستار على دور الناقد، ليفتح الباب أمام عالم الرواية الساحر. كان سارتر آنذاك يبلغ الثانية والثلاثين من عمره، لم يصدر له من قبل سوى كتاب واحد بعنوان (التخيل)، حاول فيه أن يقدم تفسيرًا فرنسيًا لفلسفة الألماني هوسرل، ثاني اثنين يعشقهما سارتر، ويعتبرهما أستاذيه، الأول طبعًا هيدجر.

ومثلما حوّلت (الغثيان) سارتر من فيلسوف مبتدئ إلى واحد من أشهر كتاب فرنسا، استطاعت الرواية نفسها وبعباراتها المثيرة أن تستفز الشاب كامو ليصدر بعد عامين روايته (الغريب) التي عجّلت بحصوله على نوبل عام 1957م، قبل أن يحصل عليها معلمه سارتر عام 1964م، وقد قيل آنذاك إن أحد أسباب رفض سارتر لها أن القائمين على الجائزة قدّموا تلميذه عليه.

كان عرض كامو لرواية (الغثيان) ينطوي على إعجاب كبير، ومثلما تحكي رواية سارتر الشهيرة تحطم الحياة الهادئة لبطلها روكتان، فإن (الغريب) تتناول عبء الحياة اليومية على بطلها ميرسو، يكتب كامو في دفتر ملاحظاته: "إنه فكر مليًا ببطل الغثيان ووجده قريبًا إلى نفسه، إنها أول رواية تعبر عنّا بالصور الذهنية".

بعد سنوات يلتقي الشاب كامو بالمعلم سارتر، اللقاء عام 1943م، تم عند افتتاح مسرحية سارتر الشهيرة (الذباب)، تقول سيمون دي بوفوار: "كنت أقف مع سارتر حين أقبل علينا شاب وسيم وقدّم نفسه: أنا ألبير كامو، كنت قد قرأت له بإعجاب روايته الغريب، وطلبت من سارتر أن

يقرأها". وتضيف دي بوفوار: "لقد وجدنا فيه شخصًا جديرًا بالحب".

***

"..أو ربما كان ذلك بالأمس، لا أدري على وجه التحديد، تلقيت برقية من البيت مفاداها (أمك ماتت.. الجنازة غدًا) ولا يعني هذا أي شيء، إذ ربما كان ذلك بالأمس"، يقرر أن يذهب لدفنها وهو حزين، لكن بلا شعور بالاهتمام، ثم يعود إلى المدينة ليقابل الفتاة التي يحبها، ويذهب معها إلى السينما، ثم يذهب مع صديقه إلى ساحل البحر، فيفاجأ ببعض الأشخاص يهددونهم بسكين، يأخذ ميرسو من صديقه المسدس الذي يحمله خوفًا من أن يتورط بجريمة قتل، ويفترق الصديقان، لكن ميرسو يلتقي صدفةً من جديد بأعداء صديقه، ويشهر أحدهم سكينًا، ويشاهد لمعان نصل السكين في الشمس التي تضرب أشعتها عينيه، فيخرج المسدس ويطلق رصاصة على حامل السكين. "صدفة سخيفة"، هكذا يقول للقضاة عندما حاكموه، وهو يشرح لهم كيف أنه ذهب لدفن أمه، ثم شاهد فيلمًا سينمائيًا والتقى بصديقته، وأطلق الرصاص من دون سبب، وتقرّر المحكمة أنه يستحق الإعدام رغم تعاطف المحلفين معه. في اليوم التالي، تصفق باريس للكاتب الجديد الذي يريد أن يقول إن مأساة الإنسان المعاصر تتلخص في عبث الحياة الذي نعيشه كل يوم، رواية لا بداية لها ولا نهاية، لكنها تعكس التحولات التي تجري على حياة الناس كل يوم.

"أما أنا فقد كنت أصغي وأسمع أنهم يرونني شخصًا ذكيًا، لكنني لم أكن أفهم جيدًا كيف يمكن أن تصبح سمات شخص عادي تهمًا فادحة". تقول جيرمين بري في كتابها (ألبير كامو): "ربما كان كامو يفكر في سارتر عندما خط هذه السطور من روايته الغريب، غير أنها تنطبق عليه شخصيًا، كأنه كان يتنبأ بما سيقدمه للناس".

بعد عامٍ على صدور (الغريب) يكتب سارتر في الأعداد الأولى من مجلة الأزمنة الحديثة: "ليست الجريمة الحقيقية هي ما يحاكم ميرسو عليه، بل هي جريمة أخرى سيفهمها فهمًا تامًا في النهاية، عندما يدرك مستوى جديدًا من الوعي، إن رواية الغريب عمل كلاسيكي منهجي مؤلف عن العبث وضد العبث". قبل ذلك كان سارتر قد قرأ (أسطورة سيزيف) وهو يعّد مسودات كتابه الكبير (الوجود والعدم) فيقرر أن ينشر مقالاً مطولاً عن كامو وسيزيفه، فيكتب: "العبث ليس كامنًا في الإنسان ولا في العالم إذا ما فكرنا في كل منهما بمعزل عن الآخر، ولكن حيث إنّ الخاصية المهيمنة للإنسان هي الوجود في العالم، فإن العبث في النهاية جزء لا انفصال له عن الظرف البشري، ومن ثم لنقل بادئ ذي بدء إن العبث ليس موضوع فكرة مجردة، وإنما يتكشف لنا في استنارة باعثة على الحزن، الاستيقاظ والتنقل بالسيارة، وأربع ساعات عمل وغداء ونوم، والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت على النمط نفسه، ثم فجأة ينهار المشهد ونجد أنفسنا في حالة من وضوح الفكر العضال". يكتشف سارتر في (الغريب) و (أسطورة سيزيف) نمطًا جديدًا من الكتابة يستلهم الوجودية لكنه يخلطها بالعبث، فيما بعد بسنوات يقول سارتر: "الشعور بالعبث يسطع وجه الإنسان عند أية زاوية من زوايا الطريق". ونجد في صفحات (أسطورة سيزيف) كلمات قريبة مما قاله بطل (الغثيان)، وإذا قلبنا الصفحة الأولى من كتاب كامو سنجد اسم رواية سارتر يشار إليه بشكل واضح: "هذا الغثيان كما يسميه كاتب من كتاب اليوم هو أيضا العبث".

***

تكتب سيمون دي بوفوار: "كان كامو قبل خلافه مع سارتر هو الشخص الذي نجد في صحبته مصدرًا للاستمتاع والمرح إلى أقصى حد، رأينا في علاقتنا به صفقة كبيرة إذ تبادلنا قصصًا لا حصر لها، كان بسيطًا

يفيض مرحًا، لكنه في المقابل كان يتحرق شوقًا للنجاح والشهرة ولم يكن يخفي هذا، واعتاد بين الحين والآخر أن يبدو في صورة الشاب الطموح على الرغم من أنه معدم لكنه كان بسيطًا رائق المزاج".

هذا الذي كتبته دي بوفوار كان قد نشر في كتابها الشبيه بالسيرة الذاتية (قوة الأشياء) وفيه نراها كثيرًا ما تردد اسم كامو وتبدو كأنها معنية بأفكاره وتطوره الأدبي والفني، ونكتشف في خفايا أوراق دي بوفوار أنها حاولت أن تقدّم نفسها كعاشقة، لكنّه صدّها ما دفعها لأن تكتب في صفحات أخرى من الكتاب: "إنه فظّ فجّ ضيق الصدر"، ولم تعرف أنه رأى فيها امرأة غير جذابة وأنه قال يومًا لميرلوبونتي: "ماذا عساها أن تقول وهي على الوسادة، يا لهول مثل هذه المرأة المثقفة الثرثارة، إنها شيء غير محتمل". كانت تعرف أن سارتر معجب بكامو الأديب، وأن هذا الشاب الجزائري ينظر إلى صاحب الغثيان نظرة التلميذ، ووضعت وصفًا مثيرًا لها ولكامو، بأنهما كانا في الأيام الأولى يتنافسان على سارتر: "كنا أشبه بكلبين يتناوبان قطعة عظم، قطعة العظم هي سارتر وكلانا يريدها".

***

ظل كتاب كامو الشهير (الإنسان المتمرد) الذي صدر بالعربية عام 1965م، لا يحظى بالاهتمام من القرّاء العرب الذين وجدوا في روايات صاحب (الغريب) ومسرحياته متعة تفوق كتبه الفلسفية التي انشغلوا عنها بما كتبه سارتر عن الوجودية وغرائبها، ولم يعرف القارئ العربي للأسف كامو الفيلسوف حيث طغت صورة المعلم سارتر على صور معظم تلامذته وأبناء جيله، وظل هو وحده الذي يحظى بالاهتمام والمناقشة. واعتبر البعض (الإنسان المتمرد) الصادر عام 1951م إسهامًا بارزًا في النظرة المناهضة للماركسية، واعتبره آخرون فهمًا جديدًا للفكر اليساري يتصف بالحيوية

والنقاء، وكان من أهمية هذا الكتاب أنه أثار هجومًا عنيفًا من قبل مجلة (الأزمنة الحديثة)، وأصبح سببًا في القطيعة الشهيرة مع سارتر.

كان الخلاف بين المعلم والتلميذ حديث باريس، فقد ندّد كامو في المتمرد بالاستبداد الستاليني، وهاجم سارتر على نحو خفي لتعاطفه مع الحملة الستالينية، وكما رأى كامو فإن المتمرد لديه عقل مستقل في حين أن الثوري هو شخص تسلطي يعقلن القتل دائمًا، وقد حاول كامو أن يبرهن أن العنف دائمًا غير مبرر حتى إذا كان وسيلة لغاية.

في اجتماعات هيئة تحرير (الأزمنة الحديثة) تجري مناقشات حامية حول المتمرد، من منهم سيكتب نقدًا عنه؟ أخيرًا وقع الاختيار على فرانسيس جانسون الذي كتب مقالة نقدية قاسية أكثر مما طلب منه سارتر أن تكون، لكنه كرئيس تحرير للمجلة مررها دون أية إضافات أو تعديل.

شعر كامو بالخيانة، وفي الرد الذي بعثه إلى المجلة يعبّر عن غضبه إزاء ما اعتبره تشويهًا فاضحًا ومنافيًا للذوق لكل ما جاء في كتابه (الإنسان المتمرد)، ورغم أن سارتر لم يكتب شيئًا ضد الكتاب، إلا أن كامو ظلّ يعتقد أن محرر المجلة كتب المقال بوحي من سارتر: "أخيرًا لا أحد سوى صحيفتكم سيراوده التفكير في الطعن في الدعوى بأنه إذا كان ثمة تطور قد حدث من رواية الغريب إلى الطاعون، فإن هذا التطور مضى في طريق الإنسان المتمرد، لكنكم تريدون أن تثبتوا للأسف أنني في هذا الكتاب منفصل عن الواقع والتاريخ". والمقال الذي نشر في 17 صفحة يغمز فيه كامو من قناة سارتر، ويحاول أن يصور للقارئ أن كاتب مقال الهجوم على الإنسان المتمرد هو سارتر لا غيره.

لم يسكت سارتر أمام هذا الهجوم الشديد، فأراد أن يقدم درسًا قاسيًا لتلميذه فيكتب مقالاً مطولاً في الأزمنة الحديثة: "من المؤسف أن تضعني

عن عمد أمام محكمة وبمثل هذه اللهجة القبيحة، بحيث أصبحتُ عاجزًا عن التزام الصمت من دون أن أفقد ماء وجهي، لذلك سوف أجيبك من دون غضب، ولكن في إسهاب لأول مرة منذ عرفتك. إن جمعك بين تصورات كئيبة وموقف هش حال دائمًا بينك وبين الناس، واطلاعك على الحقيقة من دون تجميل أو مواربة، والنتيجة أنك أصبحت ضحية زهو أخرق، يخفي مشكلاتك التي تطوي عليها صدرك.. عاجلاً أم أجلاً سيخبرك أحدهم بهذا، وربما من الأفضل أن أكون أنا".

كانت رسالة كامو حادة، فجاء رد سارتر موجعًا. تتذكر سيمون دي بوفوار أن انقطاع العلاقات بين سارتر وكامو كان أشبه بنهاية قصة حب، وهي تعترف أنها انحازت إلى سارتر وستكتب في قوة الأشياء: "كامو الذي كان عزيزًا عليّ لم يعد له وجود بالنسبة لي".

منذ عام 1951م لم يتحدث سارتر ولا دي بوفوار مع كامو، لكنهم كتبوا عنه يوم وفاته بحادث سيارة مقالين منفصلين كانا غاية في الرقة والوفاء لصديق سنوات الخوف والحرية والبهجة، كما وصفه سارتر في نعيه.

***

في نهاية عام 1959م تنشر غاليمار رواية كامو الأخيرة التي كانت أشبه بالسيرة الذاتية، ولأنه لا يزال يعتبر أن سيمون دي بوفوار ليست طرفًا في الخلاف مع سارتر أرسل لها نسخة من الكتاب مع إهداء يقول فيه: "أعرف أنكِ لن تقرئي هذا الكتاب الآن، لكنه سيثير اهتمامك في يوم من الأيام". لم يكن كامو يعرف أنه يتنبأ بنهاية خلافه مع سارتر ودي بوفوار، فبعد أسابيع قليلة يسافر مع صديقه صاحب دار النشر الشهيرة غاليمار، وفي الطريق تفلت السيارة من السيطرة وترتطم بشجرة، صباح اليوم التالي كانت دي بوفوار تجلس كعادتها تقرأ في الصحف صمت، لتقع عينها على صورة كامو

مضرجًا بدمه، مع عنوان كبير: "مات المتمرد".

***

"يمثل كامو في هذا القرن، وضد حركة التاريخ، الوريث المعاصر لتلك السلسلة الطويلة من فلاسفة الأخلاق الذين قد تشكل أعمالهم الأكثر أصالة في الكتابات الفرنسية، ففي صفائها وبساطتها وحسيتها شنت نزعته الإنسانية العنيدة حربًا غير مضمونة العواقب على أحداث ذلك الزمان، ولكنه على غير ذلك استطاع بصرامة مواقفه الرافضة أن يشدّد على وجود الحقيقة الأخلاقية في قلب الحقيقة التاريخية التي نعيش فيها، ضد أنصار الميكافيلية وضد عجل الواقعية الذهبي". كانت هذه مرثية سارتر لكامو التي جاءت بعد أيام قليلة على رحيله، ليقدم فيها اعتذارًا عن سنوات الفراق والهجر والخصام، ومراجعة لآرائه حول فيلسوف التمرد والعبث.

***

في ساعات الصباح الباكرة تسللت من شقتها باتجاه المستشفى الذي نقلوا إليه جثمان كامو، شاهدت حشدًا كبيرًا أمام المستشفى، خافت أن يعرفها البعض فتسللت من الباب الخلفي، وصلت إلى الغرفة، لم تجد أحدًا سوى ممرضة شابة طلبت منها أن تتركها لوحدها مع الميت، سحبت الشرشف، شاهدت آثار الدماء واضحة على الوجه، همّت بالاستلقاء إلى جانبه، دخلت عليها الممرضة مسرعة: "أرجوك لا تفعلي ذلك". كانت تشعر بألم رهيب، حاولت أن تغمض عينيها، إلا أن الممرضة أخبرتها أن هناك من يتقدم صوب الغرفة، انسحبت بهدوء، ذهبت مسرعة إلى شقتها، تجلس على مكتبها لتكتب. في الصباح تنشر صحيفة (لبيراسيون) على صفحتها الأولى مقالاً بعنوان (سنواتنا مع ألبير كامو) بقلم: سيمون دي بوفوار.

(3)

إنها حكاية يحكيها معتوه ملؤها الصخب والعنف

أخيرا جازفت وطلبت من الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا أن يسمح لي بإجراء حوار معه. والغريب أنه وافق. وهنا بدأت المشكلة.

ما الموضوعات التي سأتحدث بها، فأنا أمام روائي وناقد ومترجم وشاعر ومسرحيّ وتشكيليّ، قلت مع نفسي لأبدأ بسؤال تقليدي ربما أستطيع من خلاله أن أمسك بناصية الحوار، فسألت ببساطة:

- لماذا تكتب؟

أجاب مبتسمًا: منذ سنتين لم أكتب. انشغلت بالترجمة.

على ذكر الترجمة، لماذا اخترت (الصخب والعنف) بالذات لتقدمها للقارئ العربي؟

كان هذا السؤال أشبه بالمشكلة التي يلقيها الواحد منا ثم ينتظر كيف تحل. ساد الصمت لحظات. بعدها تكلم جبرا وكان علي أن ألاحقه، فهو حين يتكلم.. يتدفق، فتراه مثل ممثلي المسرح يندمج في الحديث، يتقمص، يتكلم ويتوقف، يلون صوته، وينسق الكلام مع حركة يديه، أنه يستأثر بك فتنسى موضوع الحوار، وتكتفي بمتعة النظر إليه وسماعه وهو يتحدث. الذين يعرفونه جيدًا يقولون إنها خطته العكسية في جعل الحوار يتحول إلى مبارزة فكرية. إنه لا يمنحك حديثًا، وإنما يقدم محاضرة في شتى أنواع

المعارف. وكانت هذه هي المشكلة التي حاولت علاجها وأنا أكتب ما يقوله.

***

كان باب المنزل الخارجي مفتوحًا واستطعت أن أسمع صوت آلة كاتبة تدل على أن صاحبها يستعمل فقط إصبعين، عدت لأضغط ثانيةً على جرس الباب، وأنا أقول لنفسي: هل يعقل أن المعلم يستخدم نفس الآلة الكاتبة التي نستخدمها نحن تلامذته؟ كنت أتوقعها آلة أخرى لا تُحدث أصواتًا، لحظات يتوقف خلالها صوت الآلة لأرى أمامي رجلاً زحف الشيب إلى رأسه وقبل أن أتكلم قال: ماذا تريد يا سيد؟

- وأخيرا أستطيع أن أراك، هكذا قلتُ والعرق يبلل جبهتي.

بدت العبارة وكأنها ملأت معدته بالغثيان، التفت مرة أو مرتين ثم قال:

• عن ماذا تتحدث؟

أجبت: عنك. لقد قطعت مسافة كبيرة لألتقي بك.

رأيته يعود يسألني واختلاجات الغثيان تظهر على وجهه بوضوح:

• وما الأمر الذي تود أن تراني من أجله؟

حاولت أن أشرح له أنني كاتب روائي صدرت لي رواية أثارت الاهتمام، وأنني أعمل الآن مراسلاً صحفيًا، وقد جئت لأجري معه حوارًا لحساب إحدى المجلات، وبدأت أحاول أن أثير اهتمامه، فقلت له إنني معجب بما يكتبه، ولا زلت أعتقد أنه الأفضل بين كتّاب هذا الجيل، وأضفت أن بعض رواياته أروع ما قرأته في حياتي.

نظر إليّ بامتعاض ثم زفر وهو يقول: ادخل وسنرى ما الذي يمكنني أن أفعله لأجعلك تصمت.

وفي حجرة الجلوس تأفف قبل أن يدعوني للجلوس ثم بدأ يملأ غليونه ببطء، بعدها قال: أنا لا أرغب في أي أنواع الحديث الصحفي، خصوصًا عندما يريد مني مراسل صحفي أن أتفوّه بكلام يمتّع به قرّاءه. وقبل أن أنطق بكلمة أضاف: والآن، ماذا تريد أن تقول بالتحديد؟

قلت: فقط أريد أن أعرف كيف تكتب؟

• انتفض. لا.. لا.. هذا ليس من اختصاص أحد. هل تعني أنك تريد أن تتبعني وتسجّل حركاتي، وما أقوم به؟

قلت واليأس يملأ نفسي: ليس هذا ما أعنيه.

واصل حديثه وهو يشعل الغليون دون أن ينظر إليّ: لا يا سيد. هذا ليس من اختصاص أحد. الكتابة شأن خاص بي. وهززت رأسي موافقًا وأنا أقول: وأنا أيضًا لا أسمح لأحد أن يسجل عليّ حركاتي. نظر إليّ فوكنر وهو يسحب نفسًا عميقًا من الغليون ثم سأل: ومن تكون أنت؟

- أنا إرنست همنغواي. وعندي رواية ومجموعة من القصص، وأعمل مراسلاً صحفيًا.

• وبعد؟ قال والامتعاض يملأ وجهه.

- أجبت: لا شيء. فقط كنت أحلم بأن ألتقي بك، وها قد تحقق الحلم.

***

لحظات ثم تغير الموضوع!

إنني أفكر في العودة إلى سؤال جبرا إبراهيم جبرا عن الكتابة، فقلت:

• عندما تشرع في كتابة رواية، هل تخطط لها مقدمًا، محدِدًا أبعاد شخصياتها، أم أنك من نوع تشارلز ديكنز مثلاً الذي كان يترك نفسه يتشبث

بما يكتبه حتى وإن كان عفويًا؟

يبتسم جبرا ثم يجيب: من هو الروائي؟ يقول هيغل إن مضمون العمل الفني هو الفنان نفسه، إنه يعطي الكلمة لعالمه الداخلي من أجل أن يوقظ على هذا النحو لدى قرائه المشاعر والحالات النفسية التي يشعر بها، وحتى لو تناول العمل الأدبي (ثيمات) موضوعية خارجة على حياته، فإن الكاتب الكبير سيبتعد عنها بسرعة كبيرة، وسينتهي بأن يرسم صورة لنفسه.

وسأسأل ثانية: أي الروائيين أقرب إلى نفسك؟

يضحك جبرا حينها لحظات قصيرة ثم يقول: عندما فكرت في كتابة (السفينة) كنت آنذاك أترجم (الصخب والعنف) لفوكنر، كانت الرواية العربية في تلك الفترة منشغلة بالبحث عن أساليب جديدة، خصوصًا أن الواقعية كانت تلفظ أنفاسها، وكان لابد لي أن أهتم بهذا الجانب، فوجدت في (الصخب والعنف) منقذًا لي من حيرتي. إنها رواية الأصوات المتعددة التي تمتلئ بالأفكار المتداخلة والمتحررة من كل عبودية وخضوع لأي منطق، وتجريبية أيضًا من خلال علاقتها بالزمن.

***

خلال خمسة أعوام أعاد فوكنر كتابة (الصخب والعنف) عدة مرات لأن ناشر كتبه كان يرفض أن يطبع هذه الدفاتر الصغيرة المكتوب على الغلاف الأول منها بخط ناعم عنوان (الصخب والعنف). كان في الثانية والثلاثين من عمره، الأوساط الأدبية بدأت بالتعرف إليه مع نشر رواياته الأولى (رواتب الجنود) و (بعوض)، و (سارتورس)، الرواية التي وضع فيها فوكنر كل آماله، وكان يتوقع أنه سيدخل تاريخ الأدب من خلالها، وحين أخبره الناشر أنها رواية طويلة ومملة، اختصرها للنصف.

(سارتورس) التي تدور أحداثها في الجنوب الأميركي حيث ثمة شعور

بالملل من الحياة، هي مفتاح لسلسلة من الروايات التي تناول فيها حياة أسرة أميركية، ومن خلالها سلّط الضوء على تدهور الجنوب الأميركي.

وعندما سأل بعد حصوله على نوبل عن (سارتوس) قال: "إنها بوابتي لوصف هذا العالم حيث يختلط الشرف بالحب، والرحمة بالكبرياء، والعطف بالغرور".

حين ظهرت (الصخب والعنف) عام 1929م، لم يكن فوكنر يتوقع أنها ستضعه على قائمة الكتاب الأكثر مكانةً في تاريخ الأدب العالمي، فهي عمل تجريبي رغم أنها تروي سيرة حياة أسرة من جنوب أميركا (أسرة آل كمبسُن)، من خلال استذكار ثلاثة إخوة للماضي، فضلاً عن القسم الأخير الذي يرويه المؤلف، لذلك هي أشبه بسيمفونية تتكرر فيها الإشارة إلى الحوادث نفسها، كأن كل حادثة هي عبارة عن مقطوعة موسيقية واحدة، لكنها تعزف في كل مرة من خلال آلة مختلفة. (بنجي) الذي يروي الحكاية في 7 نيسان 1928 معتوه، يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلا الصراخ والعويل، وهو حين يروي الحوادث لا يستطيع أن يرتبها زمنيًا، وما حدث قبل عشرين سنة وما حدث اليوم كلاهما متساوي الأهمية عنده، إنها مثل الحكاية التي أخبرنا عنها شكسبير في ماكبث: "إنها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف ولا تعني أي شيء"، و(كونتن) الذي يسرد حكايته في 2 حزيران 1910 طالب في هارفارد مفرط الحساسية؛ شديد التعلق بشرف الأسرة، و(جاسن) الذي يروي الحكاية بتاريخ 6 نيسان 1928 فظّ، شرس، ساديّ، أناني، يبغي من الحياة النجاح وتجميع الثروة عن أي طريق.

في الحوار الذي نشر همنغواي مقتطفات منه يسأل فوكنر: ألاحظ أنك أخذت الكثير من شكسبير.

يجيب فوكنر وهو ينظر من النافذة: هذا سؤال غير قابل للإجابة، لأننا

معشر الكتاب جميعنا قد تشكّلنا بواسطة شكسبير، وتلك على ما أظن المفارقة، فالكلمات التي نستخدمها هي دائمًا الكلمات نفسها التي اخترعها، كلمات لم تكن لتوجد في اللغة حتى صاغها هو، فشكسبير هو القانون لأن شكسبير هو نحن أنفسنا".

هل يمكن تلخيص (الصخب والعنف)؟ يكتب هارولد بلوم في كتابه (لماذا نقرأ؟): "إنني لست باحثًا متبحرًا في فوكنر، ولكنني مجرد قارئ متحمس، فأنا أفترض أن قراءتك لواحدة من روايات فوكنر بكل ما لديك من حدة وعقل يقظ سوف يكون نوعًا من التدريب في عملية الإدراك، أظن أن ذلك يمثل طريقة جديدة لإيقاظ تلك الشعلة الداخلية، لانبثاق النور في أعماقك، أو لخلق تلك الرئة التي تتنفس وتجعل أنفاسك تتسارع أكثر. ليس بالضرورة أن قراءة فوكنر ستجعل منك شخصًا أفضل، ولكن من المؤكد أنها ستثير بداخلك أسئلة جديدة، إن فوكنر يشير لنا كيف يجب أن نفتح عقولنا بالتساؤلات والدهشة".

بعد أن تظهر الرواية إلى العلن، يقرر فوكنر أن يتوقف عن الكتابة قليلاً ليرى ما الذي سيقوله القرّاء عن عمله الجديد، لكن المبيعات تخيب أمله، الثلاثة آلاف نسخة التي طبعها الناشر لم يُبع منها سوى أقل من ألفيّ نسخة، فيما الرزم البقية تتكدس في المخازن، النقاد يسخرون من الكاتب المتحفظ الجاف في تعامله، رجل يملؤه التعصب والقسوة، قادر على الإهانة، صاحب الرواية التي هي أشبه بالكلمات المتقاطعة. ويكتب المحرر الأدبي لصحيفة نيويورك تايمز ساخرًا من الجنوبي المهووس بعالم المتاهات: "ترى ما الذي كان فوكنر أصلاً يريد قوله عبر هذه الصفحات التي خطّها ووزعها في روايته الأخيرة؟ لقد بدا واضحًا أن السيد فوكنر لم يُخلق ليكون كاتبًا".

***

في العام 1939م، وبعد عشر سنوات على ظهور (الصخب والعنف) تظهر الترجمة الفرنسية، كان أندريه جيد قد قرأ النسخة الإنكليزية من الرواية، وشجّع صديقه صاحب دار غاليمار الشهيرة أن يترجم الرواية إلى الفرنسية، وما أن تصدر الطبعة الأولى منها حتى يتلقفها الفرنسيون، فتبيع غاليمار العشرة آلاف الأولى من الرواية، ويتحمس لها سارتر فيكتب مقالاً مطولاً في المجلة الأدبية الفرنسية، مبشرًا بالروائي الذي توقع له أن يتربع على عرش الأدب الحديث، بل يذهب الحماس بسارتر إلى أن يتمنى لو أن مارسيل بروست قرأ (الصخب والعنف) قبل أن يكتب البحث عن الزمن الضائع: "كان يتعين على بروست أن يستخدم تكنيكًا شبيهًا بتكنيك فوكنر الروائي، نحن إزاء أبطال ضائعون، ولأنهم ضائعون فهم يخاطرون بأن يدفعوا بفكرهم إلى نهايته، أما أبطال بروست فهم كلاسيكيون يلتزمون الحذر حين يضيعون. مع فوكنر نعيش في زمن التحولات التي يصعب تصورها، وفوكنر يستخدم فنّه الذي يفوق المعتاد ليصف لنا عالمًا يحتضر من الشيخوخة ونحن فيه نلهث ونشعر بالاختناق". وبعد سنوات يكتب ألبير كامو وهو يقدم الطبعة الفرنسية الجديدة من (الصخب والعنف): "أقل ما يمكننا أن نقول عن هذا الكاتب إنه رجل أمسك بسر الأدب... وجعل لأميركا أدبا تجابه به الأدب الأوروبي".

لكن الناشر الأميركي لا يزال يشكو قلة المبيعات، وحين يخبرونه أن النسخة الفرنسية باعت عشرة آلاف نسخة يضرب كفًا بكف وهو يقول: "لا بد أن هؤلاء مجانين". وحين يلتقي فوكنر ذات يوم يقول له: "الناس تشكو من روايتك هذه، يقولون إنهم لا يفهمون منها شيئًا حتى بعد أن يقرؤها مرتين أو ثلاث مرات". يجيبه دون أن ينظر إليه: "قل لهم أن يقرؤها أربع مرات".

يتذكر فوكنر أن (الصخب والعنف) هي الرواية الوحيدة التي كتبها دون

تعب أو جهد، ويقول همنغواي إنه عندما شرع في كتابتها لم تكن لديه أي خطة على الإطلاق، كان قد كتب (راتب جندي) ولم تستغرق منه وقتًا طويلاً ونشرت بمساعدة صديقه شيرود أندرسن ليحصل من خلالها على أربعمئة دولار. "إنه عمل سهل" قال لنفسه، ليكتب بعدها (البعوض) ويحصل على خمسمئة دولار، يضحك وهو يتحدث عن هذه المهنة الممتعة التي تُدر كل هذه الأموال، ولا تتطلب من صاحبها سوى الجلوس أربع ساعات في اليوم وراء الآلة الكاتبة. ويقول همنغواي إنه اكتشف طريقًا يدر الكثير من المال، لكنه ذات يوم بدا له أن عليه أن يقول لنفسه: "إنني يمكنني أن أكتب الآن، يمكنني أن أجعل من نفسي تلك الزهرية التي احتفظ بها الروماني القديم في سريره وأبلى حافتها من كثرة تقبيله لها، ومن ثم فإنني أنا الذي لم يكن لي أخت، وكان قدري أن افقد ابنتي في طفولتها، شرعت في أن أجعل من نفسي فتاة صغيرة تروي حكاية الصخب والعنف".

***

أقول لجبرا إبراهيم جبرا: لو تفحصنا تاريخ الأدب والفن، لوجدنا نوعين من الأعمال والمؤلفين، ففي بعضها مثلاً تكون حياة الكاتب أهم من أعماله. إن حياة جان جاك روسو واعترافاته يمكن أن تكون مثالاً لذلك، حيث إن حياته نفسها أصبحت أهم وأبقى من أعماله. فيما نجد أعمالاً أخرى يختفي فيها المؤلف بينما تبقى أعماله. فوكنر مثلاً، نحن لا نعرف كيف كان يعيش، لقد اختفى الفنان داخل عمله. من هنا أريد أن أسألك: أنت مغرم بفوكنر، لكننا كقراء نجد شخصية جبرا في معظم أعماله.

لحظات صمت ثم يرد جبرا: في الواقع أنا كنت حريصًا في الدرجة الأولى على الاستفادة من تقنيات فوكنر الفنية في كتابة الرواية، أما طريقته في الحياة فأنا أبعد ما أكون عنها. فوكنر انعزالي، وأنا أحب التجمعات سواءً كانت

اجتماعية أو ثقافية. أنا أجد نفسي جزءًا من حراك ثقافي وفني متواصل منذ الأربعينيات، وفوكنر كان يرى أن مهمته الأساسية هي البحث عن أسلوب جديد للأدب.

قلت: هل معرفة الحياة الشخصية للكاتب أو الفنان تساعد على فهم أعماله؟ أنا شخصيًا عندما أقرأ للآخرين فإنني أحاول أن أركّز دائمًا على العمل الفني ذاته، ولم يحدث في قراءاتي جميعها أن قرأت حياة كاتب قبل أن أقرأ أعماله.

كان فوكنر ينظر بغرابة لكل من يسأله عن حياته الشخصية وذات يوم قال لشرودر: "وأنا أسير في شوارع مسيسبي أشعر كأن الجميع يراقبني، يريدون أن يفهموا كيف يمكن لرجل يجلس في الظل ويكسب 30 ألف دولار مرة واحدة - كان هذا المبلغ هو قيمة جائزة نوبل آنذاك - لمجرد أنه كتب بعض كلمات على ورق، في مسيسبي الرجال يفهمون أنهم لكي يحصلوا على دولار عليهم أن يخرجوا أولاً في الشمس ويعرقوا، وهذا ما يحيّرهم في أمري".

***

قال همنغواي لوهتشز في كتابه الممتع (بابا همنغواي): "لو كان بإمكاني أن أذهب لألتقي بالمعلم سأسأله كيف يستطيع أن يواصل الكتابة بعد أن كتب ملحمته عن الصخب؟"

"سنفعل، نذهب إليه، هل تعتقد أنه سيرحب بنا"، قال هوتشز.

• "سأحدّثه قبل أن نذهب، تعرف أن مزاجه متقلب"، قال همنغواي، وهو ينحني لالتقاط حجرٍ براقٍ من على الأرض ويواصل القول: "ليس هناك من شيء يجلب الحظ لكاتب عجوز مثلي لا يستطيع أن يكتب خمسة سطور جيدة".

صرخت فيه: "بابا.. بابا! يا للهول! اصمت! توقف! لا زلت أفضل كتّاب أميركا".

• "كيف تقول مثل هذا الكلام بحق الجحيم؟ لقد هزمني المعلم العجوز المتربع على عرشه في المسيسبي".

"ولكنك علّمتني أن الإنسان لم يخلق للهزيمة، قد يتحطم لكنه لا يهزم".

***

14 تموز عام 1961م. يدخل عليه سكرتيره ليقدّم له نسخة من مجلة (لايف) التي تتضمن مقابلة أجراها محرر المجلة معه، ينظر فوكنر باستغراب إلى غلاف المجلة. لقد وعده المحرر أن صورته ستتصدر الغلاف لكنهم وضعوا بدلاً منها صورة همنغواي. تأفف من الضجر قبل أن تقع عيناه على العنوان المثير "رصاصة من بندقية تضع حدًا لحياة صاحب الشيخ والبحر". يرمي المجلة جانبًا. يتذكر اللقاء الأول حين قال له همنغواي: "لقد قطعت يا سيدي آلاف الأميال لكي أراك".

(4)

الغريب الإنكليزي الذي تحول إلى "اللامنتمي" العراقي

في نهاية الخمسينيات ظهر في المكتبات كتابان، الأول لمؤلف لم يكن معروفًا آنذاك اسمه كولن ولسن، وكان عنوان كتابه (اللامنتمي)، والثاني لواحد من أبرز الكتّاب الروس بوريس باسترناك (الطرق الهوائية). الكتابان صدرا عن دار نشر بيروتية شهيرة آنذاك هي دار العلم للملايين التي تخصصت من خلال صاحبها المترجم الشهير منير البعلبكي بنقل روائع القصص العالمي.

ولأن الكتابين جديدان في موضوعهما، فقد نالا انتشارًا واسعًا في صفوف القراء والمثقفين. لكن الغريب أن قلّة هي التي التفتت إلى اسم المترجم الذي نقل هذين الكتابين إلى العربية بلغة أنيقة، كان اسمه أنيس زكي حسن: شاب متوقد بالحماس والمعرفة، حصل على شهادة من دار المعلمين العالية حيث تتلمذ على يد جبرا إبراهيم جبرا، والذي أصبح فيما بعد أقرب أصدقائه إليه، وفاز بجائزة الترجمة في المسابقة التي أعلنتها مؤسسة فرنكلين عن ترجمة كتاب (مغامرات الأفكار) لهوايتد، ثم عرف الناس اسم أنيس زكي حسن المترجم الذي قدم إلى العربية (أسطورة سيزيف) لألبير كامي، و(تاريخ الأدب الإنكليزي) لإيفانز، و(أربع خطوات نحو الفن الحديث) لفينتوري، و(الإنسان الصرْصار) تأليف دوستويفسكي، و(سقطة) ألبير كامي، و(العودة إلى ميتوشالح) لبرنارد شو.

في مقدمته لكتاب (الطرق الهوائية) لباسترناك، يحدثنا أنيس زكي حسن عن منهجه في الترجمة فيقول: "يؤسفني أن أقول إن أغلب مترجمي وناشري هذه الكتب لم يكونوا أمناء قط. وكانت الكتب تحمل اسم باسترناك كاملاً فقط. أيها القارئ العزيز إنني آسف على مالك، وعلى وقتك، وعلى الأدب وعلى باسترناك وعلى الجحيم.. واللعنة على ، شيء واحد أريد أن أهمس به في أذن القارئ: أرجوك.. قد تحاول الدعايات أن تستغل باسترناك، فتجرّك وتجرّه إلى عوالم لا أظنك تثق بثباتها واستمرارها وصدقها، أرجوك.. إنني أقدم إليك فن باسترناك، فاقرأ فن باسترناك. ودعنا مرة واحدة، لحظة واحدة، ثانية واحدة، نكون ذلك القلب الواحد الكبير، الذي نتشدق به، ونبكي عليه، ونجرد سلاحنا لندافع عنه، ونطعنه، ونحن فيه. ولا نفهمه، ولا نريد أن نفهمه، شيء واحد فقط هو هذا.. وأنت تعرفه.. وو.. كفانا عنجهية". وهو منهج يدل على أن صاحبه يتميز بلقطات الذكاء الحاد والحساسية البالغة الأهداف، والعشق للمعرفة.

ولم يكتفِ أنيس زكي بالترجمة، وكان يدرك أن الأدب العراقي بحاجة إلى تجديد. فكتب الرواية، وابتدأها بـ(الأخطبوط) عام 1958م التي طبعتها دار نشر عراقية بنسخة سيئة الطباعة، مليئة بالأخطاء، جعلته يقرر أن يتلف النسخ التي تسلّمها من الناشر، ما جعل العثور عليها شاقًا. أما روايته الثانية (السجين) فقد نشرها عام 1961م وبمساعدة دار العلم للملايين، بعد أن حققت كتبه المترجمة إقبالاً كبيرًا وخصوصًا كتاب (اللامنتمي) الذي أعيد طبعه في عام واحد ثلاث طبعات متتالية، ليصبح أشهر كتاب يترجم إلى العربية في عقد الستينيات.

ورواية (السجين) قريبة الشبه للروايات العبثية، وكأنها متأثرة بما كتبه سارتر في (الغثيان)، موضوعها الأساسي هو البحث عن الحرية.

يقول الروائي: "أراد السجين بعدئذ أن يتخلص من المستوى الحشري للحياة، فطرد زوجته نهائيًا، وترك العمل بالمصلحة التي كان موظفًا فيها، وهجر الأماكن التي ارتادها مع الأصدقاء مرارًا وهام على وجهه في الأزقة والطرقات متجهًا إلى الشارع المؤدي إلى الحقيقة أو إلى أحد وجوهها: الحرية بالتحديد. ولم يعنِه مطلقًا أن يشير إليه الناس بأنه مجنون، وهو لم يتخلص من المستوى الحشري للحياة فقط، بل أراد أن يرتفع على المستوى البشري فراح يسبق البشرية إلى اليوم الذي تحرق فيه كل ما لديها من أوراق وسطور وتبدأ الحياة فعلاً، لأن الحقيقة لا تظهر إلا حين لا يعود صاحبها في حاجة إليها على الإطلاق". (ص 25)

***

حين أصدر كولن ولسون كتابة الأول والأشهر "اللامنتمي" عام 1956م كان في الرابعة والعشرين. وهو الكتاب الذي جلب له المال والشهرة العريضة، وتُرجم إلى مختلف لغات العالم. في ذلك الوقت أبدى عدد من النقاد الإنكليز ازدراءهم واستخفافهم بـ(الجهد) الذي بذله المؤلف واعتبروا جهده مجرد سياحة في سير ونتاجات قادة الفكر الأوروبي، ودراسته مصادر وينابيع الفلسفات، ومحاولته إيجاد روابط بين سير هؤلاء المفكرين وما قدموه من نتاج. لكن القرّاء ضربوا بالحائط بكل صرخات النقاد ليضعوا الكتاب لسنوات على عرش الكتب الأكثر شهرة ومبيعًا، وليتحول صاحبه إلى واحد من أبرز نجوم المجتمع البريطاني.

كان الكتاب قد كتب في إحدى قاعات المطالعة بالمتحف البريطاني، عندما كان ينام على فراش متنقل في شارع هامبستيد هيث. كان ابنًا لعامل في أحد المصانع الصغيرة، ترك دراسته في السادسة عشرة، ونجح في التهرب من الخدمة العسكرية بحيلة صغيرة. مارس في شبابه مهنًا غريبة ليتفرغ لقراءة

كل ما كان ينشر في ذلك الوقت، ويواصل تسجيل ملاحظاته في سجل كبير استدان ثمنه من أحد الأصدقاء.

يحدثنا كولن ولسون في كتابه (رحلة نحو البداية) الذي ترجمه الناقد المصري الراحل سامي خشبة عن قصة كتابه الشهير هذا قائلا: "قبل أن أنشر كتابي اللامنتمي فكرت وقلت لنفسي ينبغي لهذا أن يعيد الأمور إلى نصابها ويعيدها إلى الحياة. ثم فجأة أصبحت في التلفزيون تحت الأضواء المركّزة، ألقى التشجيع لكي أتشاجر، أو في افتتاح معرض للفن مع أحد اللوردات ألقى التشجيع لكي أناديه باسمه المجرد. في حفلة يشير إليّ الضيوف باعتباري مثل الأعجوبة الطبيعية، أو يهاجمني ناقد. فما علاقة كل هذا بكتاب اللامنتمي؟ لقد كان شيئًا لا يصدق، وكان أكثر غباءً وجنونًا من كل ما كان بوسعي أن أتخيله، ولم يكن على علاقة مطلقًا بأي شيء أهتم به. كان استعراضًا ساخرًا فكاهيًا للنجاح.

في ذلك الصباح من يوم الأحد، حينما ظهرت أول عروض الكتاب، فكرت بيني وبين نفسي قائلاً، إنني كسبت وفزت وأحرزت هدفي. ثم حينما مرت أسابيع الدعاية، تبينت كل ما فعلته عدا ذلك، تبينت أنني لم أحرز هدفي. وأن المعركة قد انتقلت فحسب إلى جهة أخرى، وبدأت أكتشف حقيقة ما قاله سارتر من أن الجحيم هم الآخرون". وفي اليوم التالي ظهرت صحيفة (ديلى إكسبرس) بعنوان يقول: "كولن ولسون يعترف بأنه مخادع" ونقل عني أنني قلت: "إن اللامنتمي قد كتب بناء على قصد زائف تمامًا".

***

اللامنتمي بين أنيس زكي وكولن ولسون

في مقال نشر بمجلة العلوم اللبنانية يلخص أنيس زكي حسن الأفكار التي يطرحها (اللامنتمي): "وأنا أترجم كتاب اللامنتمي تحاشيت كتابة

مقدمة عن المؤلف والكتاب، واكتفيت بأن أترجم مقدمة الناشر الإنكليزي بناءً على طلب من صاحب دار النشر الذي كان مترددًا في نشر الترجمة العربية لكتاب لا يدخل ضمن اختصاص الدار التي اشتهرت بأنها تقدم روائع الأعمال الأدبية - يقصد دار العلم للملايين - إلا أن القارئ العربي ظل منذ صدور الكتاب يحاصرني بالسؤال عن اللامنتمي، ورغم أن مقدمة الطبعة العربية جاء فيها من أن اللامنتمي هو الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهٍ، والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرًا من النظام الذي يؤمن به قومه. وأعتقد أن هذا الملخص يسلّط الضوء على المشكلة التي يطرحها الكتاب، هل اللامنتمي يناقش قضايا أدبية خالصة؟ بالتأكيد هذا الرأي كان سببًا في النظرة القاصرة التي وجهت للكتاب ومؤلفه، إذ اعتبره الكثيرون مجرد استعراض لقراءات شاب وجد متسعًا من الوقت ليجلس في مكتبة المتحف البريطاني ويقوم بتلخيص الكتب، بينما الحقيقة هي أن هناك جانبًا مهمًا في الكتاب لم يثِر اهتمام النقاد العرب، وأعني به الجانب السيكولوجي والذي حاول من خلاله مؤلف اللامنتمي أن يوليه اهتمامًا كبيرًا. إذن اللامنتمي كتاب يناقش سيكولوجية الإبداع أكثر من كونه كتابًا يقدم خلاصات لعدد من المؤلفين".

يُعرّف كولن ولسون (اللامنتمي) بأنه الرجل الغامض: "إنني أرى نفسي في المرآة الطويلة الضيقة المعلّقة في واجهة ذلك المحل، قادمًا يلوح عليّ الشحوب والنعاس".

هذه السطور من رواية (الجحيم) لهنري باربوس الذي يضرب به ولسون مثلاً على اللامنتمي النموذجي في الأدب الحديث، رجل غامض يلجأ إلى غرفته في الفندق ليغلق بابها، ويعيش ليراقب الآخرين من ثقب في الحائط. إنه كما يقول باربوس: "يرى أكثر وأعمق مما يجب"، وهو لا يرى إلا الفوضى. ويتبع ولسن طبيعة اللامنتمي خلال رواية كامو (الغريب) وأعمال أرنست

همنغواي الأولى، ويقرّ ولسون بأن الجو الذي يتميز به عالم اللامنتمي المعاصر جو كريه جدًا. إن هؤلاء الأشخاص لا يرفضون الحياة فحسب، وإنما يعاديها الكثير منهم. إن عالمهم المجرّد من القيم هو عالم أشخاص بالغين، والفرق بين عالم البالغين وعالم الأطفال هو أحد الفروق الرئيسية بين عالم القرن العشرين وعالم القرن التاسع عشر.

ويتبع ويلسون اللامنتمي الرومانسي في (آلام فرتر) لغوته، وفي (اللصوص) لشيللر، وكثيرين غيرهم مثل هولدرلن ورامبو ومالارميه ورلكه وبروست. على أن مشكلة اللامنتمي هي في جوهرها مشكلة حية. ولهذا فإن ولسون يعود من الأدب إلى الحياة نفسها فيعتبر فان كوخ ولورنس ونجنسكي لامنتمين. إنه يختارهم باعتبارهم ثلاثة نماذج للامنتمي يتميز كل واحد منهم بمميزات خاصة ينافس بها الآخرين في انتمائيته. ميزات في العقلية والشعور والجسد. ألا نجد أن الطريق التي شقها كل واحد من هؤلاء لم تكن مثمرة في حد ذاتها؟

ذلك أن الأمر انتهى بفان كوخ ونجنسكي إلى الجنون. في حين لم يكن انتحار لورنس العقلي ليقل عن جنون نجنسكي. وينتهي ولسون إلى أن أهم ما يشغل بال اللامنتمي هو عدم رغبته في أن يكون لامنتميًا. إلا أنه لا يستطيع أن يتخلى عن كونه لامنتميًا لأنه لا يريد أن يكون بورجوازيًا عاديًا، فليس ذلك بالحل الصحيح. إن مشكلته هي كيف ينطلق إلى الأمام. إلا أن لورنس ونجنسكي وفان كوخ إنما عادوا إلى الخلف فاندحروا جميعًا.

يريد اللامنتمي أن يكون حرًا وهو يرى أن صحيح العقل ليس حرًا، ولقد وجد نيتشه الذي يتناوله ويلسون بالبحث أيضًا حلاً في إخباره العالم، بأن جميع الناس يجب أن يكونوا لامنتمين. أما لامنتمو تولستوي فقد هربوا من أنفسهم بتمسكهم بإنكار الذات باعتبار أنه جوهر المسيحية. وينتهي هذا

الفصل بدوستويفسكي الذي يخصص له ولسون معظم ما تبقى من الكتاب محللاً أعماله تحليلاً دقيقًا، ذلك لأن أعمال هذا الكاتب تمهد الطريق لتطورات جديدة.

***

في الخامس والعشرين من أيار سنة 1974م، وصل كولن ويلسون إلى دمشق بدعوة من اتحاد الكتّاب العرب في سوريا. وفي المركز الثقافي العربي بدمشق يلتقي كولن ويسلون بمعجبيه من العرب، ويلخّص لنا الناقد السوري المعروف حسام الخطيب في مقال نشر بمجلة (الموقف الأدبي) بعنوان "كولن ولسون وتجربته الفكرية" ما دار من حوار بين صاحب اللامنتمي والقرّاء العرب، حيث فوجئ الكاتب البريطاني بأن معظم الحضور قرأوا كتابه ولديهم ملاحظات مهمة عنه، لكن الجمهور حسب مقال الدكتور الخطيب فوجئ بأن ولسون ركّز في حديثه على الجوانب النفسية دون الثقافية والأدبية ليقول لهم: "حين كتبت اللامنتمي لم أكن مهتمًا بالناحية الاجتماعية، وإنما عُنيت بالظاهرة السيكولوجية، وفي البدء لفت نظري أن هناك لحظات معينة في حياة كل إنسان يشعر خلالها بالسعادة وبالقيمة، وهو يستمتع استمتاعًا شديدًا بهذه اللحظات، ولكنه يحسّ بعد انتهائها إحساسًا حادًا بالخيبة". وحين يسأل أحد الحضور: ما مشكلة اللامنتمي؟ يجيب كولن ويلسون: "في المجتمع الحديث عدد كبير من الناس لا يستطيعون إحراز المكانة المعتبرة التي ينشدون، ولكنهم من الذكاء بحيث يقبلون المكان الذي يُعطى لهم، وبين هؤلاء فنانون وأدباء وهم يقفون بين العناصر القيادية والعناصر القابلة للقيادة".

***

اللامنتمي عراقي بالأصل والنسب

ترجم كتاب (اللامنتمي) إلى العربية عام 1957م، وقد استطاع المترجم أنيس زكي حسن من أن (ينحت) تعبير (اللامنتمي) بعد أن وجد أنه أنسب وأفضل تسمية عربية للعنوان الإنكليزي الأصلي للكتاب (Outsider)، ومنه أخذ الكتّاب والنقّاد العرب يتداولون هذه التسمية وظلت حتى الآن هي المعتمدة في الدراسات الأدبية. وقد انشغلتُ كما انشغل غيري بمعرفة أهواء هذا المترجم وميوله، فعرفت أنه قاصٌّ عراقي ينتمي إلى جيل الخمسينيات ترجم العديد من الكتب، كما نشر العديد من القصص القصيرة في مجلة (أهل النفط) ومن بعدها في مجلة (العاملون في النفط)، وكلتا المجلتين كان يشرف عليها الروائي والمترجم القدير جبرا إبراهيم جبرا الذي جمعتني معه جلسات من الود، سمحت لي أن أسأله ذات يوم: أين اختفى أنيس زكي حسن؟ ابتسم جبرا ابتسامته المعهودة، ليخرج بعدها صوته خفيضًا كعادته حين يتكلم:

- وما الذي ذكّرك به وهو من جيل سبقك بعقود؟

- لأنه توقف عن الترجمة!

نظر إليّ جبرا من دون أن يتكلم، ولاحظت في عينيه ظلال حنين إلى ماضٍ جميل.

- يبدو أنني أثرت شجونك يا أستاذ؟

- بالعكس ذكّرتني بصديق كان ولا يزال من أعز أصحابي.. لكنه عنيد! هل تدري أنه توقف عن الترجمة لإحساسه أن ما ينشر في الغرب من أفكار لا يستحق التوقف عنده، ليس هذا فقط بل رفض عروضًا من دور نشر عربية لترجمة أعمال أخرى لكولن ولسون لقناعته أنها لا ترتقي إلى مستوى الكتب التي ترجمها للمؤلف نفسه وهي (اللامنتمي)، و(سقوط الحضارة) و(المعقول واللامعقول في الأدب الحديث). ولكون كولن ولسون حسب

رأيه تحول إلى كاتب استهلاكي يكتب الرواية البوليسية وكتب الشعوذة. ويضيف جبرا أن أنيس أخبره أن كتاب (اللامنتمي) هو أهم ما كتبه كولن ولسون، والكتب التي جاءت بعده هي شروح لكتاب (اللامنتمي).

ولكي يرضي جبرا فضولي فقد أخبرني أن أنيس زكي حسن خريج دار المعلمين العالية يجيد الإنكليزية، وعمل مديرًا لدائرة الصحف الأجنبية في وزارة الخارجية العراقية، ثم حصل على وظيفة في الأمم المتحدة.

ونسيت أنيس زكي حسن إلى أن وقع في يدي كتاب (وداعًا أيها الملل) لأنيس منصور، وهو مجموعة مقالات كان قد نشرها في صحيفة الأهرام، ولأن منصور من المهتمين بالفلسفة فهو قد درسها على يد عبد الرحمن بدوي في الخمسينيات، وعشق الفلسفة الوجودية تيمنًا بأستاذه، فأصدر وهو شاب كتابًا باسم (الوجودية) يعدّ من أوائل الكتب العربية التي تناولت هذه الفلسفة. فقد خصص كتاب (وداعًا أيها الملل) للحديث عن فلسفات العبث واللامعقول والتمرد. وفي الفصل المسمى (المنتمي واللامنتمي) وجدت أنيس منصور مثلي يبحث عن شخص اسمه أنيس زكي حسن، لكنه على العكس مني حظي بمقابلة الرجل وتحدث معه: "ظهر فجأة وبلا مقدمات كتاب عنوانه الغريب. وقد ترجمه إلى العربية أنيس زكي حسن، وهو من أدباء العراق بعنوان (اللامنتمي)، وعندما قابلته في بغداد في أوائل السبعينيات عرفت منه أنه تعب كثيرًا حتى وصل إلى هذه الكلمة وهي لا شك كلمة موفقة. وهي تدل إلى حد بعيد على المعنى الذي يريده كولن ولسون من أن الإنسان اللامنتمي هو الذي لا يرتبط بأحد ولا يلتزم بشيء، وهو يحس أنه وحده وأن وحدته هي السجن الذي اختاره لنفسه".

ووجدت في كتاب أنيس منصور أجوبة لبعض تساؤلاتي حول أنيس زكي وترجمته لكتاب (اللامنتمي)، لكن السؤال المهم أين اختفى أنيس

زكي حسن؟ لم أجد له إجابة إلى أن طالعت مقالة كتبها أنيس منصور في جريدة الشرق الأوسط عام 2008م تحت عنوان (ولكن أين أنيس زكي حسن؟) يقول فيه: "لم أنسَ أديبًا عراقيًا اسمه أنيس زكي حسن ترجم كتاب (اللامنتمي)، وأنه صاحب هذه الكلمة البديعة وأدهشني كيف عثر عليها.. وحاولت أن أعرف أين هو، ولم أجد جوابًا وإنما كلهم يقولون لا نعرف أين اختفى وكتبت في الأيام الماضية عنه، وفجأة قرأت على الإنترنيت رسالة منه يشكرني أنني ما زلت أذكره وأنه يعيش في أحد أحياء باريس، وأننا سوف نتواصل ما دمنا أحياء إن شاء الله".

***

وفي سيرته الصادرة حديثًا عن دار المدى بعنوان (حلم غاية ما) والتي ترجمتها القديرة لطفية الدليمي، يقول ويسلون إنه وضع مئة كتاب حتى الآن. لكنني أعتقد أن كولن ولسون سوف يدخل التاريخ والذاكرة الأدبية تحت عنوان واحد هو (اللامنتمي). الكتب الأخرى كانت تكرارًا أو استفاضة لفكرة واحدة وثقافة واحدة برغم سعتها الهائلة. والحكم والهدف كانا واحدًا لديه: أن يكتب.

في آخر حوار أجري مع كولن ويلسون قبيل وفاته بعام واحد، قال لمحررة النيويورك تايمز: "آمل العيش إلى أن أكمل 93 عامًا، السنّ التي رحل فيها كاتبي المفضل جورج برنارد شو".

وحين تسأله: كيف سيكون نعيه؟ يقول: "لا يهمني ذلك فعلاً.. إنني أنظر إلى نفسي باعتباري الأكثر أهمية بين كتّاب القرن العشرين. وسأكون أحمقًا إن لم أدرك هذا!"

(5)

حين يموت العشّاق تحت المطر أو على حافة اليأس

عندما بلغ د. هـ. لورنس الأربعين قرر أن يكتب سيرة حياته، كان يريد أن يكتب عن حالات المسرّة والسعادة التي عاشها، بعدما تجهّم طويلاً في تأمّل مرارات الحياة وعبث الدنيا. كانت الفكرة أن يسرد جزءًا من حكاية عاطفية، يكمل بها ما ابتدأه في روايته (أبناء وعشاق) التي قدم في الجزء الأول منها لمحات من حياته: طفولة أراد لها الأب أن تكون خشنة، فعامل المنجم الذي لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أراد لابنه الرابع أن يدرك جيدًا أن الحياة تحتاج إلى ساعدين قويين، فيما الأم التي تنتمي إلى عائلة برجوازية كانت تتمنى أن يصبح أبناؤها رجال دين أو أساتذة في الجامعة. ولأن الكتابة لم تكن مجدية في نظر الأسرة، فقد اضطر لورنس أن يكتب بطريقة سرية، وذات يوم قرأت أمه فصلاً من رواية (الطاووس الأبيض) فتعجبت وقالت له: "ولكن يا ولدي كيف تعرف أن الأمور كانت تسير على هذا النحو؟ إنك لا تستطيع معرفة ذلك". كانت تعتقد أن المرء يجب أن يعرف ما يكتب، وظلت وصيتها الوحيدة لابنها: "عليك أن ترتقي في الدنيا خطوة خطوة".

في تلك السنوات وفي أحد شوارع أكسفورد، عاش بريطاني آخر اسمه توماس إدوارد لورنس من مواليد العام 1888م، عرف باسم لورنس العرب الذي تحول إلى أسطورة في الغرب والشرق معًا. كان لورنس الآخر قد قرر أن يكتب عن تجربته في بلاد العرب منذ أن وَطِئت قدماه أرض بلاد الشام، في العام 1909م، حيث كان يسعى لدراسة تصاميم القلاع الصليبية،

لتقوده تلكما القدمان إلى صنع خرائط جديدة للمنطقة العربية.

***

الجلوس لكتابة تجربة الحياة والتساؤل، ماذا فعلتَ؟ أين أنجزتَ، وأين أخفقتَ؟ أين صرعَتك الحياة وأين غلَبتها؟ كانت هي الهمّ الذي رافق الاثنين.

لم يستطع د. ه. لورنس كتابة سيرة حياته، فقد أخذته فكرة حاجة الإنسان إلى التحرر، إلى أن يكتب رواية يقول عنها في رسالة إلى الشاعر إليوت: "للإنسان احتياجات صغيرة واحتياجات أعمق.. لقد وقعنا في خطأ العيش على احتياجاتنا الصغيرة إلى أن أوشكنا أن نفقد احتياجاتنا الأعمق بصورة مجنونة". كانت هذه الكلمات هي حاشية رواية (عشق الليدي تشاترلي) التي كانت آخر ما كتبه الروائي الإنكليزي الشهير، فيما استمر لورنس الآخر بتسطير تجربته الحياتية في كتاب أسماه (أعمدة الحكمة السبعة). قال عنه تشرشل: "لقد احتل هذا الكتاب مركزه، بين الكتب الكلاسيكية الإنكليزية. فالحال أنّ غنى الموضوع، وقوته، وميزة الأسلوب الرفيعة وتلك الشخصية الصوفية التي لا حدود لها، كل ذلك رفع هذا العمل الجبار إلى ما فوق مستوى جميع المؤلفات المعاصرة".

فيما قال لورنس العرب لكاتب سيرته إدوارد جارنت: "إن كتابي مهزلة لا تستحق أن تقرأ. فإذا أردت أن ترى بعينك كيف تشوَّه الأفكار الجميلة والمادة الرائعة فارجع إلى أية صفحة من صفحات الكتاب، إنني لا أعتقد بأن هناك أي ناشر يرضى حتى بأن يحرق الكتاب، فكيف بحق السماء تعتقد بأني قد جئت بعمل ممتاز؟"

لا أذكر عدد الكتب التي ظهرت عن الضابط الذي عرف باسم (لورنس العرب)، وجميعها كانت تنحت في أسطورته وفي دوره في "الثورة العربية".

وهي الأسطورة التي حاول كولن ولسون في (اللامنتمي) أن يقدم صورة مغايرة لها حيث وجدنا أمامنا لورنس مغايرًا، مجرد إنسان وحيد وقلق يعجز عن إقامة علاقات إنسانية بسيطة مع الآخرين. في الوقت نفسه جاءت سمعة الروائي د. ه. لورنس وشهرته متأخرة، بسبب قوانين الحظر الأدبي الذي تعرضت له رواياته، لكن هذا لم يمنع النقد الأدبي الإنكليزي من وضعه في قائمة أهم روائيي بريطانيا، حتى أن ناقدًا بحجم رتشاردز يكتب مشيدًا بقدرة لورنس على إخراج الأدب من العصر الفيكتوري التقليدي المتشدد، فاسحًا المجال لشتى أنواع التعبير، خصوصًا الرغبة الذاتية.

***

في شتاء عام 1910م، كتب د. ه. لورنس إلى ناشر لندني يسأل عن كلفة طبع روايته (الطاووس الأبيض). رفض الناشر أن يرد عليه واعتبر أن نشر رواية لكاتب مبتدئ مجازفة لا تحمد عقباها. بعد هذا التاريخ بسنوات يندم الناشر لأن صاحب الطاووس كتب رواية تهافتت عليها دور النشر، وصدرت أكثر من نسخة مزورة عنها نتيجة الطلب المستمر عليها. وكانت هذه الرواية هي (عشيق الليدي شاترلي)، التي لا تزال تُطبع حتى اليوم، وحُوّلت إلى أفلام في بريطانيا وخارجها، معظم قرائها في أوروبا من النساء حسب تقرير نشرته الغارديان بمناسبة 50 عامًا على القرار الذي أصدرته محكمة بريطانية ببراءة الكاتب من تهمة ترويج المجون في رواياته.

أنهى لورنس (عشيق الليدي شاترلي) في لحظة كره للمجتمع البرجوازي، استمر في كتابتها أكثر من عامين بين خريف 1927م وصيف 1929م، وأمضى عيد الميلاد وحيدًا بعد انفصاله عن زوجته. في ذلك الوقت كان يكتب الرسائل إلى عدد من أصدقائه، قال في واحدة منها: "يبدو لي أن الأمر الرئيس بالنسبة للمرأة هو أنها لا يمكن تعريفها بكلمات من قبيل الحب أو

الجمال أو الشرف أو الواجب أو الجدارة أو التحرر، فعلى المدى البعيد لا تمثل هذه الكلمات حقيقة المرأة"، وفي أخرى يضيف: "إن ما تحتاج إليه المرأة هو الاكتفاء، على الأقل الاكتفاء الجسدي بقدر ما هي بحاجة إلى الاكتفاء النفسي، الجنس بنفس قدر ما تحتاجه من الروح".

لم يعد لورنس يطمح بكتابة رواية عن حب لم يسعد به، فالأمر تحول إلى ارتياب في العواطف التي تريد طبقة البرجوازيين فرضها على المجتمع. تدور (عشيق الليدي شاترلي) حول السير كليفورد تشاترلي، رجل واسع الثراء ألحقت به الحرب عاهة وتركته مشلولاً ومصابًا بعجز جنسي، فانصرف إلى الكتابة والتأليف لتعويض فشله في علاقته الحميمة مع زوجته الليدي تشاترلي، وهي في أوج شبابها وأنوثتها. لم تكد تمضي فترة حتى ضاقت ذرعًا به وأقامت علاقة مع ميلورز، بستانيّ يعمل لدى زوجها، تحوّلت فيما بعد إلى علاقة روحية على رغم الاختلاف الطبقي الشاسع بين العاشقين، وتُوّجت في ختام الرواية بمولد طفلهما والاستعداد للزواج، حيث نجدها تغادر بيت الزوجية لترتيب حياتها من جديد.

يكتب الناقد هارولد بلووم أن ثورة الليدي تشاترلي، وإن كانت تأخذ طابعًا جسديًا، فإنها قريبة لثورة نورا بطلة مسرحية إبسن الشهيرة (بيت الدمية). ويضيف الناقد الشهير أن لورنس كان معجبًا بطريقة إبسن في نسج الأحداث وفي القدرة على رسم ملامح شخصياته النسائية.

حينما حاول لورنس نشر الرواية رفض جميع الناشرين عمله، وذلك للإباحية التي وصف بها العلاقة الحميمة بين الليدي تشاترلي وعشيقها، ما دفعه إلى طباعتها سرًا وتوزيعها. وفي المرتين الثانية والثالثة طبعها في كل من فرنسا وإيطاليا من دون تصريح، وكذلك طبعت في أميركا من دون استئذانه.

في رسالة إلى طليقته يكتب لورنس: "تلقيت عرضًا متأخرًا من المزورين

الأوروبيين يحددون لي نصيبًا مقابل حق الملكية عن كل النسخ المباعة في الماضي، والتي ستباع في المستقبل لو قبلت أن أعتمد طبعاتهم، قلت لنفسي على قاعدة: من لا يظلم يظلم، وكان علي أن أقبل العرض. تمكنت بعد ذلك من نشر النسخة الفرنسية الرخيصة، وحثّني الناشرون الإنكليز على عمل نسخة منقحة ووعدوني بمقابل كبير، وأصروا على أن تكون رواية نظيفة لا تحتوي على الألفاظ الفاضحة. كنت قد بدأت أستسلم للإغراء وأبدأ في تنقيح الرواية وتهذيبها، ولكني وجدت أن ذلك مستحيل، لأنه يعني أن أقطع أنفي بالمقص ليصبح أجمل شكلاً. ومع ذلك وعلى الرغم من كل المعارضات، فإنني أعرض روايتي ككاتب أمين وصحي وضروري لنا حاليًا. الألفاظ التي تصيب بالصدمة الشديدة في البداية سيعتادها القارئ بعد أن يمضي في قراءة الرواية، هل يرجع ذلك إلى أن العقل يفسده الاعتياد؟ لا على الإطلاق. إن الألفاظ تصدم العين ولكنها لا تصدم العقل مطلقًا. إن أعظم الكفر ضد الحقيقة الجنسية هو اعتبارها عملاً مشينًا مع أننا جئنا من خلاله. المحافظون التقليديون يحرصون على عدم الخوض في المسألة الجنسية مع أولادهم واعتبار ذلك من المحرمات، لكنهم ينسون أن الغريزة هي المعلم الأول، وهي التي تقود أبناءها للحقائق دون معلّم".

***

حاول لورنس العرب أن يهرب من الشهرة التي أخذت تلاحقه بعد صدور كتابه (أعمدة الحكمة السبعة)، ويذكر المقربون منه أنه كان يعاني من شعور بالذنب، ولهذا رفض وسام الشرف من ملك بريطانيا، فقرّر الاختباء في شخصية أخرى. وقام بتغيير اسمه وتطوّع كجندي في سلاح الجو البريطاني، ولكن سرعان ما افتضح أمره وتم فصله من الجيش، وعرض عليه ونستون تشرشل أن يكون مستشاره الخاص، ولكنه اعتذر ليعيش سنواته الأخيرة معتزلاً في كوخ بضواحي لندن حيث كتب أحد المقربين له،

بعد موته، بأن لورنس كان يدفع الأموال لأحد الأشخاص كي يقوم بجلده يوميًا. ومات بحادثة بعد أن انقلبت دراجته النارية في العام 1935م، وعمره ستة وأربعون عامًا، لتضع مجلة التايم صورته على صدر غلافها، وتحتها عبارة تشرشل: "لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة ماسّة إليه".

***

في مقالة بعنوان (ملاحظات حول عشيق الليدي تشاترلي) يلقي لورنس الضوء على الظروف التي كتب فيها هذه الرواية، فيقول عن الزوج كليفورد الذي تهجره زوجته كونستانس لتضاجع حارسه: "إنه نتاج الحضارة الصناعية المادية الحديثة، مشكلته تتلخص في أن دماءه تسري فيها برودة الموت، وهو لا يفتقر إلى الدفء الإنساني فحسب، بل إنه فقد كل صلة تربطه بالنساء وبزملائه من البشر، في حين أن حارس الصيد يتميز بدفء المشاعر والحيوية". ويضيف لورنس أن هناك ما يبرّر استخدامه للكلمات الجنسية المكشوفة في روايته، فالهدف هو تحرير هذه الكلمات من أية دلالات بذيئة، فليس في ممارسة الجنس ما يشين أو يدعو للخجل. ويضيف في دفاعه عن الرواية: "إن الإنسانية استغرقت في ممارسة الجنس دون فهمه أو إدراكه، ولهذا تحولت الممارسة الجنسية عبر الزمن إلى فعل آلي كالح تغيض عنه الحياة، ويبعث على الملل وخيبة الآمال، ومن ثم فقد حان الوقت لإدراكه إدراكا سليمًا وذلك بتجديد الأفكار المتعلقة به".

***

في عام 1959م، تولت مطبعة في نيويورك نشر رواية (عشيق الليدي تشاترلي) كاملةً وبدون أي حذف منها، وذلك بعد حصولها على موافقة أرملة لورنس. وظهرت الرواية في المكتبات بمقدمة لمارك سوكرر. وبعد أسبوع من نشرها أمر رئيس مصلحة البريد بمنع إرسال الكتاب عن طريق

البريد باعتباره كتابًا بذيئًا، كما أمرت المصلحة بمنع إرسال أية نشرات دعاية عن الرواية بالبريد. ما دفع الناشرون إلى رفع قضية ضد مصلحة البريد، وطالبوا القضاء أن يعلن أن الكتاب ليس بذيئًا بالمعنى الوارد في نص القانون القاضي بمنع المطبوعات البذيئة من التداول. وفي 21 من تموز عام 1959م، أصدر القاضي الفيدرالي الأميركي حكمًا لصالح الكتاب. فقد أوضح القاضي أن رئيس مصلحة البريد تنقصه الحجة لعدم قدرته على التمييز بين المطبوعات البذيئة والمطبوعات المحترمة، وأشاد القاضي بأسلوب إخراج الكتاب على نحو محترم، وبيّن أن المشتركين في شرائه قلة ضئيلة العدد ينتمون إلى فئة الأدباء. وبعد أن استعرض القاضي قضية رواية (يوليسيس) لجيمس جويس والتي كانت معروضة قبل مدة أمام القضاء، خلص إلى أنه لا يصح اعتبار أي كتاب يتناول الجنس بذيئًا، إلا إذا كان اهتمامه العام يميل إلى الجنس بشكل فاضح، وبحيث يطغى الجنس فيه على ما يتضمنه من أهمية اجتماعية.

مات د. ه. لورنس وعمرة خمسة وأربعون عامًا، وكتب في آخر رسائله: "أعرف أن الشجرة ستموت في النهاية، فهل سأتخلى عن زرع بذرة؟ سيكون ذلك جبنًا وغرورًا".

لم يعترف النقاد بلورنس إلا بعد مرور عقود على وفاته، فتحوّلت صورته من مجرد كاتب خليع إلى ممثل للأدب الإنكليزي في مرحلة الحداثة، ووُضع أدبه في مكانته بين الموروثات الأدبية في الرواية الإنكليزية، وفي حياته القصيرة التي لم تتعدَّ الـ45 عامًا، ألّف لورنس نحو 800 قصيدة، وأكثر من 13 رواية، و10 مسرحيات، إضافة إلى مجموعاته القصصية ومؤلفاته في أدب الرحلات وكتاباته النقدية والرؤى الفلسفية، إلى جانب رسم لوحات فنية تعرضت، هي الأخرى للمصادرة والحظر. وفي العام الماضي كشفت جريدة الديلي تلغراف عن العثور على مخطوطة جديدة للورنس كانت عبارة عن يوميات كتبها على شكل رسائل، في هذه اليوميات نكتشف أن (عشيق

الليدي تشاترلي) هي سيرة لورنس مع زوجته، ففي السنوات الأخيرة من حياته عانى الروائي الشهير أمراضًا عدة تسببت بإصابته بعجز جنسي، ليكتشف فيها بعد أن زوجته تقيم علاقة مع شاب يصغرها بسنوات ما أدى إلى الفراق بينهما.

تكتب صاحبة نوبل دوريس لسنج: "إن العشاق غالبًا ما يتصرفون بغرابة ولا يرغبون في أن يطّلع أحد على محادثاتهم الغرامية، ولكن لورنس يجعل عشاقه يركضون تحت المطر، فشجاعته على وجه الدقة هي التي تقربه أحيانًا من حافة الحكاية الهزلية، فالروائي الأكثر دهاءً والأقل موهبةً كان سيزيل هذه الفقرات الموحية بالسخرية، ولكن بالنسبة للورنس فإن الروعة تتجاور مع الغرابة في أغلب أعماله".

(6)

التلاميذ يفتشون في دفاتر أستاذهم ماركس

الزمان: 1818

المكان: الجزء الغربي من ألمانيا

في الخامس عشر من أيار، يولد كارل هينريغ ماركس. في تلك السنة ينشر شوبنهاور كتابة الشهير (العالم كإرادة وتصوّر) وهو الكتاب الذي أثار ضجة كبرى، ولا يزال من أهم ما أنتجته الفلسفة الغربية في عصرها الحديث، الأمر الذي دفع مترجمًا وباحثًا كبيرًا مثل عبدالرحمن بدوي أن يخصص كتابًا عن شوبنهاور يكتب فيه: "كان حرًا كأوسع ما تكون الحرية بإزاء السلطات الثلاث، فلم يحفل بالسياسة على الإطلاق. وإن كان نصيرًا للنظام ولهذا أبغض الثورة التي قامت في ألمانيا عام 1848م، لأن فيها إخلالاً بالنظام". وفي السنة نفسها تظهر شخصية فرانكشتاين في الرواية التي وضعتها ماري شيللي، والتي ستؤثر كثيرًا في ماركس المراهق، مثلما أثّرت فيه رواية والتر سكوت (إيفانهو) التي شغلته أسئلتها عن البطل الفرد أثناء فترة شبابه. وعندما يصبح عمره أربع سنوات يتوفى سان سيمون أول من آمن بفكرة التطور، وأن المجتمع لا يثبت على حال. وهي الفكرة التي ناقشها ماركس فيما بعد من خلال نقده لمبدأ سان سيمون القاضي بأن الاشتراكية والعدالة يمكن أن تتحققا على يـــد مستبد مستنير، ويُقال إنه ظل يمطر نابليون بالرسائل يناشده بأن يحقق العدالة الاجتماعية في أوروبا.

يدرس ماركس الشاب القانون تنفيذًا لرغبة والده، لكنه يكتشف الفلسفة التي ستكون ميدانه الأساسي. ومعها يقول في رسالة إلى حبيبته وزوجته فيما بعد، إنه وجد ما يبحث عنه أخيرا. في الفلسفة يكتشف أستاذه الأول هيغل معلم الفلسفة الألمانية المطلق، وسرعان ما ينضم إلى جماعة الهيغليين الشباب. يكتب لوالده أنه يريد أن يترك القانون، فقد أحدث هيغل تقلباته في نفسه وهو يريد أن ينتهي من هذا القلق الذي يعيشه. بعد عام يكتشف بالصدفة نصوص فيورباخ الأستاذ الذي طُرد من الجامعة لأنه انتقد هيغل بقسوة، فيما ينكب ماركس على دراسة شتى الفلسفات يضع قواعد لدور الفيلسوف في المجتمع، هذا الفيلسوف الذي يجب عليه وهو يقول الحقيقة أن يُسهم في تغيير المجتمع.

***

الزمان: 1841

المكان: باريس

الشاب ماركس الذي جاء إلى باريس ليجرِّب حظه في الصحافة، يصادف شابًا أصغر منه بعامين، يرتبطان منذ اللحظة الأولى بصداقة تنتج عشرات المؤلفات. إنه فريدريك إنجلز. في تلك السنة يقرأ ماركس كتاب فيورباخ الشهير (جوهر المسيحية) الذي يؤكد فيه، من أجل السماح بارتقاء مجتمع إنساني، يجب على الفلسفة أن تجد امتدادها في السياسة القادرة وحدها على تحرير الإنسان من اغترابه بإلغاء الملكية. ولهذا كما يقول فيورباخ يجب توحيد البشرية المعذبة والبشرية المفكرة المضطهدة أي العمال والمثقفين، ويجب تحويل الدولة جذريًا، لأنها ليست كما يظن هيغل تجسيدًا لمطلق فوق الطبقات، بل انعكاسٌ للعلاقات الاقتصادية والقانونية والاجتماعية. ويزداد عشق ماركس لفيورباخ، وسيؤرخ إنجلز لهذا التأثير الذي مارسه هذا الفيلسوف

على تطور الهيغليين الشباب الفكري: "كانت الحماسة عامة شاملة، وأصبحنا جميعًا أتباعًا لفيورباخ في الحال".

في عام 1842م يكتب ماركس أولى مقالاته السياسية بعنوان (الشيوعية) التي يعتبرها غرامشي فيما بعد الأساس الذي بُنيت عليه الفلسفة المادية. في هذه المقالة يشرح ماركس للمرة الأولى مفهوم الشيوعية، ويُعيد أصولها إلى الفيلسوف أفلاطون. في تلك السنة يعكف مع زميلة إنجلز على مراجعة كتب سان سيمون، وتسحرهما مقولات برودن التي كان يوجهها ضد الملكية: "ما هي الملكية؟ إنها ترفٌ مرفوضٌ".

ويرى ماركس عندئذ أن الاقتصاد أساس لكل العلوم الاجتماعية، ولا شيء يمكن الإفلات من قوانينه، فيقرر التصدي لاشتراكية سان سيمون الطوبائية ليبتدع الاشتراكية العلمية فيكتب: "إن الفعل الذي يبني المنظومات الفلسفية في دماغ الإنسان هو نفسه الذي يبني سكك الحديد بيد العمال".

ويذهب بعيدًا فيقرر التصدي لمعلمه الأول هيغل، فينشر كتابه الشهير (نقد فلسفة هيغل في الحقوق)، حيث يقترح قلب الجدل الهيغلي لوضعه على قدميه، أي الانطلاق ليس من النظريات وإنما من ظروف الحياة الواقعية. ويصوغ لأول مرة فكرة أن الوظيفة التاريخية للبروليتاريا هي قلب الرأسمالية. ويكرر على خلاف هيغل أن الدولة ليست هي التي تُسيِّر التاريخ، بل التاريخ هو الذي يُشكّل الدولة، وأن الإنسان لا يتمكن من التحرر إلا بأفعاله، وليس بنزوة مُحسن أو بإرادة دكتاتور متنور، إذ لا يمكن للثورة أن تأتي إلا من خلال طبقة اجتماعية محررة بامتياز.

***

عندما ينشر ماركس رأس المال، يرسل نسخة منه إلى تشارلز داروين الذي يكبره بتسعة أعوام، مع إهداء يقدّم نفسه فيه كأحد المعجبين المخلصين، فيبلغه

داروين باستلام الكتاب معتذرًا بأدب بانعدام الكفاءات اللازمة لقراءته.

في عام 1868م، تظهر الترجمة الأولى لرأس المال في روسيا، ولم يُبع الكتابُ في مكان بمثل ما كان مُباعًا في موسكو. أعطت الرقابة الروسية موافقتها على نشر الترجمة، وجاء في تقرير الخبير: "على الرغم من أن معتقدات الكاتب اشتراكية، إلا أن طريقة العرض التي يتبعها لا تجعل الكتاب مفهومًا من الجميع، لذا ترى اللجنة أنه يجب ألا يُحظر".

عام 1918م، يفتتح لينين أول نصب لماركس في موسكو، ويلقي خطابًا يقول فيه: "ستتذكر الأجيال القادمة كارل ماركس المنبوذ الذي وهو يبكي أطفاله الموتى في بؤسه اللندني، حلم بإنسانية أفضل، وسيتوجهون عندئذ صوب أفكاره ورسالته الرئيسية: يستحق الإنسان أن يكون محطًا للآمال".

***

كان على فراش المرض في 1978م، ما بين غياب وصحو، حين سأله محرر الكتب في النيويورك تايمز: "هل كنت تتصور أن كتابك (الإنسان ذو البعد الواحد) الذي أشعل الانتفاضات في أوروبا قبل عشرة أعوام، يمكن أن يذهب إلى النسيان بهذه البساطة؟" لكن هربرت ماركوز كان في تلك اللحظة يفكر فيما إذا كانت سنوات حياته التي شارفت على الثمانين ذات جدوى. تذكر أنه ذهب ذات يوم إلى أستاذه هيدجر ليسأله السؤال ذاته: هل يأتي ذلك اليوم الذي يطوي النسيان كتاب الوجود والزمان؟ كان هيدجر آنذاك مهمومًا بطرح الأسئلة، وبإكمال المشروع الوجودي الذي وضعه أستاذه هوسرل، وذلك عبر استخدامه لكل الوسائل الفلسفية للإجابة عن السؤال الأساسي الذي شغل بال واضع الفلسفة الظاهراتية: ما هو الوجود؟

لم يكن أستاذ الفلسفة الذي تخصص في دراسة فكر هيغل وكرَّس حياته العلمية لإثبات أن فكر معلم الفلسفة الألمانية يحتوي على عناصر منها ما

هو ثوري ومنها ما يُمهِّد مباشرة للثورة ، وكان كتابه (هيغل والثورة) قد أثار حفيظة الحركة الديمقراطية الشعبية الألمانية التي رأت فيه محاولة لتجميل صورة فيلسوف كان يؤمن "بالبطل المطلق"، لم يكن هذا الأستاذ وقد بلغ من العمر سبعين عامًا يحلم بأنه سيصبح واحدًا من نجوم المجتمع الغربي، تحاصره الفضائيات ويرفع الشباب والطلبة صوره في شوارع باريس وجامعاتها، ويتحوّل كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) عام 1968م إلى إنجيل لشباب أوروبا الغاضب والحالم بالتغيير .

***

سمع وهو يجلس في مكانه المعتاد في زاوية من المقهى، يدخن غليونه ويكتب ويقرأ، اسمه يتردد على لسان فتاة جميلة منشغلة بحوار ساخن مع زميل لها:

"سارتر أصبح من الماضي"، هكذا قالت الفتاة.

"إذن مَن هو المؤهل بنظرك لكي يُلهم هؤلاء الشباب؟" قال زميلها.

"لا يوجد أحد على التعيين، لكن نحتاج إلى قائد فيه شيء من جيفارا، وأشياء من هوشي منه وأفكار من ماركيوز.

قال الشاب: "لكنهم جميعًا ليسوا فرنسيين".

"الثورة لا وطن لها. ألم تقرأ ما فعله ريجيس دوبريه؟"

كان دوبريه قد رمى قبل ثلاثة أعوام مُتع باريس ولياليها الساحرة وراء ظهره، واتجه صوب كوبا حيث يبدأ أولى رحلاته في عالم الثورة الضاجّ بالمواقف والحروب والسجالات. ابن العائلة الثرية لم يحمل معه سوى حقيبة ملابس وكتاب الثورة المغدورة لتروتسكي. هناك تبدأ رحلته الأولى في الجبال والأدغال برفقة جيفارا وكاسترو.

وضع غليونه جانبًا وهو ينظر إلى الفتاة التي كانت تحمل نسخة من كتاب (الإنسان ذو البعد الواحد)، فصاحب الوجودية فلسفة إنسانية ظل حتى يوم أمس يعتقد أن كتبه هي التي تحرِّض الشباب، وأن الوجودية أصبحت اليوم بديلاً لكل الفلسفات، فهل يعقل أن يسيطر كاتب يحاول أن يجمع بين ماركس وفرويد في إناء واحد، أن يصبح مُلهمًا لشباب أوروبا؟

لم يكن سارتر قد أدرك بعد أن الكتاب الذي أهدته إليه سيمون دي بوفوار وطلبت من أن يقرأه بتمعّن، يمكن أن يحقق هذا النجاح. وكان قبل أشهر قد كتب عن الإنسان ذو البعد الواحد في مجلة الأزمنة الحديثة مقالاً ينتقد إدارج ماركيوز الطلبة والشباب، بين هؤلاء الذين هم بلا أمل أو بين الفئات الاجتماعية المنبوذة، فالطلبة في رأي سارتر ينتسبون إلى الفئات الاجتماعية الوسطى والصغيرة، ويعيش أغلبهم على دخول أولياء أمورهم، ويرى سارتر أن استبعاد ماركيوز للطبقة العاملة من القوى الثورية الجديدة، خطأ لا يُغتفر.

يتذكر سارتر جيدًا أن صديقه اللدود ألبير كامو كان متحمسًا لكتاب ماركيوز هذا، وقد أقنع الناشر غوستاف غاليمار قبل أن يتوفى بأشهر أن يترجم كتاب (الإنسان ذو البعد الواحد) إلى الفرنسية، وحين صدرت طبعته الأولى لم يحظَ بالقبول وبقيت نسخه مكدسة في مخازن غاليمار!

***

أيار عام 1968م، شوارع باريس تكتظ بالطلبة الغاضبين الذين يرفعون عبارة "ارحل" في وجه ديغول، في ذلك الزمان الذي نشرت الصحافة فيه صورة لسارتر وهو يصعد على أحد البراميل يوزع المنشورات التحريضية ضد الجنرال، كان الطلبة يتداولون كتابًا ظل مجهولاً لسنوات لمؤلف ألماني يعيش في أميركا اسمه هربرت ماركيوز، أما الكتاب فكان بعنوان الإنسان

ذو البعد الواحد، والكتاب يفسر لماذا على الطلبة أن يغضبوا ويقودوا التغيير، ويغذّي فيهم روح الثورة والسخط على الأوضاع، حيث يحتل النقد الاجتماعي والسياسي الجانب الأكبر في تفكير ماركيوز ويشغل العدد الأكبر من معتم صفحات كتبه. ولا يقتصر النقد على نظام معين، بل إنه ينتقد كل النماذج الموجودة، سواءً كانت رأسمالية أو اشتراكية، وهو يرى أن الأحادية هي مرض العصر، فالإنسان ذو بعد واحد في المجتمع الرأسمالي الحديث، وفي التطبيقات الاشتراكية التعسفية، أن البعد الواحد باختصار هو سمة العصر الحديث في أشد صور بؤسه وانحطاطه.

كانت وسيلة ماركيوز لكي يقدم نظريته عن إنسان البعد الواحد، أن يعيد قراءة أعمال ماركس الشاب، إلى جانب إعادة تفسير أفكار فرويد ليمزجهما بحيث تنتج فلسفة جديدة تلائم روح الحاضر. فماركيوز يؤمن بأن الآلة في المجتمع الرأسمالي تتطور لتقلل جهد العامل والعقول الإلكترونية والسفر إلى الفضاء، لكن هذا المجتمع الذي يُسمى مجتمع الرفاهية أو الوفرة، هو مجتمع زائف، لماذا؟ يجيبنا في كتابة (الإنسان ذو البعد الواحد) قائلاً: التكنولوجيا توفر، لكنها تفرض نوعًا جديدًا من الاستبداد "المقبول"، فالمجتمع الصناعي وبسبب تطور التكنولوجيا يعطي مزيدًا من الوقت الفارغ، ولا يعطي الوقت الحر، وهو يمنح أبناءه مزيدًا من الفراغ، لا مزيدًا من الحرية.

ويحلل ماركيوز ظاهرة حلول التكنولوجيا محل الاستبداد، بأن مجتمع الوفرة يشدد قبضته على الإنسان بوسائل علمية حديثة، بعضها منظور وبعضها مخفي. وأخطر من كل هذا أنه يجعل الإنسان يقبل الاستبداد مقابل بضع مواد استهلاكية.

لقد وجهت انتقادات عديدة لآراء ماركيوز، منها أنه يغفل تصوير التناقضات داخل المجتمع الرأسمالي، ولكنه يصر على أن الطبقة العاملة

في هذا النظام لم تعد تملك الحرية، ولا القدرة على الانتقال بالمجتمع إلى التغيير الكيفي، ويلاحظ ماركيوز في الإنسان ذو البعد الواحد أن أبناء الطبقة العاملة هم الذين سيصبحون في المستقبل التكنوقراطيون والعلماء والمهندسين وأصحاب رؤوس الأموال، وبمعنى آخر فإن فرصة الانتقال بهذا المجتمع انتقالاً كيفيًا تتضاءل ما دامت مستمرة في تطوير وسائل التحكم الشامل في الرأي العام.

ولهذا لم يُفاجأ ماركيوز حين تبنى الطلبة أفكاره ونشروا كتاباته، لأنه ظل يؤكد مرارًا، أن الطلبة هم الفئة التي لم ترتبط بعد بعجلات الإنتاج والمصالح الاقتصادية التي قضت على الأمل في تغيير المجتمع تغييرًا كبيرًا.

***

كان والده قد توفى وهو لم يزل صغيرًا، وعملت أمه في تنظيف المنازل. ولذلك قال يومًا لأراغون: "ما دامت أمي قضت حياتها تعمل وتكدح، فأنا منحاز لماركس حتى وإن اختلفت مع الحزب الشيوعي". يدين صاحب (واقعية بلا ضفاف) بتفوقه في الحياة لجدته التي علمته أن لا شيء مستحيل في الحياة، في روايته (من أكون باعتقادكم) نجد البطل ينظر بحب إلى كبار السن، ويحاول أن يمنحهم القدرة على العطاء، وربما كان أكثر المفكرين تعرضًا للنقد. كانت البداية مع النظرية المادية في المعرفة التي لفتت الانتباه إليه، والتي وصفها الزعيم الشيوعي الفرنسي موريس توريز بأنها أهم دراسة عن الماركسية في العصر الحديث، لكن توريز كان يلاحظ دومًا أن روجر غارودي يكثر النقاش حول مسائل في الماركسية من المفروض أنها مسلمات، ولهذا قال له ذات يوم: "كن حذرًا بخصوص استنتاجاتك، وكن معتدلاً ولا تدر ظهرك لماركس بهذا الشكل".

كان غارودي في الثلاثين من عمره حين استعد لمراجعة مخطوطات

ماركس، عرض عليه توريز بدلاً من ذلك أن يدرس هيغل ليكون مدخلاً للكتابة عن المعلم، استغرق كتاب فكر هيغل خمس سنوات من العمل الجاد ومراجعة كاملة للفلسفة الألمانية. يخرج الكتاب إلى النور فيكتب توريز: "لقد أعطانا غارودي مفتاح المضي في فلسفة تؤول العالم إلى كفاح شعاره في البدء كان العمل".

***

لم يلتزم كثيرًا بنصيحة موريس توريز حين حذّره من الانزلاق إلى مواقف تتعارض مع السياسة التنظيمية للحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان عضوًا في لجنته المركزية، لكنه واصل طرح وجهات نظر مغايرة لتلك التي كان يطرحها أيام شبابه حين عُرف عنه تعلّقه بستالين وعشقه له، لكنه في هذه المرة أخذ يهاجم الجمود لدى الأحزاب الشيوعية الأوروبية لأنها تمارس دور الكومبارس للساكنين في الكرملين. كانت الانعطافة الكبرى عام 1966م، كان غارودي قد بلغ عقده الخامس، كتاب ماركسية القرن العشرين يظهر في الأسواق ليحدث ضجةً، فالشيوعي المعجب بمنطق ستالين وخصص له كتابًا بعنوان (النظرية المادية في المعرفة)، يقول لمراسل الموند: "لماذا يريدون مني أن أموت وأُفقي ضيق؟ لقد تعلمنا أن نعيش في الحزب ولم نتعلم العيش في الحياة. ها أنا أنظر أبعد من الجدران التي يريدون مني أن أعيش داخلها. الأُفق يخلق عالمًا آخر".

يكتب غارودي في مقدمة (ماركسية القرن العشرين) أن الماركسية فلسفة نقدية على عكس ما صورها الستالينيون من أنها "جامدة" ثابتة، لأنها لو أصبحت كذلك لتعرضت للفشل، وحتى الزوال شأن الفلسفات المثالية. "إن الماركسية تطمح اليوم إلى التوحد مع الأشياء وفعل الإنسان الذي يغيّر هذه الأشياء ومن هنا اتصفت بأنها مادية وهي جدلية، لأنها لا تتوحد إلى بناء

مذهب قطعي مكتمل الأركان كلي شامل يصطدم بأية تغيرات في الوجود". أما الاقتصاد فإنه حسب غارودي يلعب دورًا حاسمًا في التاريخ من دون أن يكون هو المحرك الوحيد، وبقدر ما كان (ماركسية القرن العشرين) يحمل طرحًا جديدًا لتأكيد النظرية الماركسية، فإنه يحمل أيضًا رفضًا لإضافات شوّهت نقاء فكـر ماركس.

(7)

لم يستطع إغواء النساء بمزاياه الجسدية، فقرر إغوائهن بالكلمات

الزمان: العام 1906

المكان: باريس، شارع لوغوف

الطفل الذي رحل والده قبل عام، كان موته "أكبر ضربة حظ. لم يكن عليّ أن أنساه". هكذا يخبرنا في كتابه (الكلمات)، والذي فيه أيضًا لا ينسى أن يسخر من فرويد ومقولته الشهيرة من أن الطفولة تقرر مصير الفرد، فقد كان طفلاً خجولاً، وكانت أمه تُصر على أن تلبسه ثياب البنات، لكنه تعلق بجده: "إنه صاحب التأثير الأكبر على نشأتي".

في واحد من أجمل كتبه (الكلمات)، يكتب سارتر تعريفًا لطفولته: "كنت ذلك الوحش الذي يصنعه الكبار وهم آسفون كل الأسف". في هذا الكتاب الذي أسماه سيرة ذاتية، يقسم سارتر حياته مثل فصول الكتاب إلى قسمين أساسيين، الأول بعنوان (القراءة) والثاني (الكتابة)، ويفسّر لنا في الصفحات الأولى من السيرة كيف أنه في طفولته وجد نفسه محاطًا بالكتب، يقرأها وقد لا يفهمها: "بدأتُ حياتي، كما سأنهيها على الأرجح: وسط الكتب. ففي مكتب جدي، كان ثمة كتب في كل زاوية ومكان. وكان من الممنوع على أي كان أن يدنو من المكتب، في ذلك الحين لم أكن بعد قد تعلمت القراءة، لكنني تعلمت تبجيل الكتب. كنت أراها مثل الحجارة المصقولة المرصوصة، سواءً

صُفّت جالسة أو منحنية. مكدسة إلى بعضها البعض فوق رفوف المكتبة، أو موضوعة بكل نبل بعيدة من بعضها البعض. كان يخالجني شعور غامر بأن ازدهار عائلتنا معلق بها".

عاش مراهقة مؤلمة بسبب سخرية الفتيات من قبحه: "في مراهقتي كنت أعاني بسبب قبحي، وهذا ما جعلني أتألم، كان عليّ أن أحرر نفسي تمامًا، لأن ذلك ضعف. ينبغي على أي شخص يعرف قوته". ويخبر ميرلوبونتي ذات يوم: "لم أستطع إغواء النساء بمزاياي الجسدية، لكنني أغويتهن بالكلمات".

بعد سنوات ستقول عنه سيمون دي بوفوار: "إنه أكبر إنجاز في حياتي". كان أصغر من تقدّم لنيل شهادة الفلسفة، وحين حاصره الأساتذة بالأسئلة، سخر منهم وهو يتطلع من النافذة: "أستطيع أن أجادل نيتشه وأعلّمه كيف يمكن للإنسان أن يكون حرًا باختياره"، تتحقق نبوءته ويصبح أشهر فلاسفة القرن العشرين. لم تجتمع لمفكر غيره الشهرة وقوة التأثير والتنوع في الكتابة. أصبحت الوجودية معلمًا من معالم العصر الحديث، تسرّبت من الكتب لتدخل إلى المقاهي وشاشات السينما والنوادي الليلية، وتفشّت فلسفته حتى اعتقد أصحاب ماركس أن الرجل سيسحب البساط من صاحب رأس المال، مما دفع روجيه غارودي لأن يكتب بعد صدور مؤلف سارتر الضخم (نقد المنطق الديالكتيكي): "يبدو هذا الكتاب أشبه بالتحدي لموقف الماركسية من الفلسفات الأخرى". وبرغم العديد من الكتب التي صنفت سارتر باعتباره فيلسوف الوجودية، إلا أن الرجل وهو الذي كتب أصعب كتابًا في الفلسفة (الوجود والعدم) يرفض أن يكون فيلسوفًا، فقد ظل إلى اللحظة الأخيرة من حياته يعتبر نفسه مفكرًا، ويعتبر الوجودية فكرة كما أخبرنا في آخر كتبه (نقد المنطق الديالكتيكي) عن الماركسية التي توقفت والتي سيعاد إحياؤها من خلال الوجودية. وكان سارتر قد أصدر من قبل في سلسلة كتبه (مواقف) كتابًا بعنوان (المادية والثورة) - سلسلة مواقف

قدمتها دار الآداب مترجمة إلى العربية في سبعة أجزاء، وهذا الجزء كان من ترجمة واحدًا من أبرز أساتذة الفلسفة في الوطن العربي عبد الفتاح الديدي - تحدث فيه عن الخطر الذي أصاب الماركسية والذي أسماه الكسل الفكري. وهو يعترض على المقولة التي يؤكد أصحابها أن الماركسية قد اكتملت، ولم يعد هناك من جديد يكتشف، حيث يرى أن الفكر هو حالة متحركة لا تقبل السكون، وأن الماركسية حين تتعرض للتثبيت فإنها تصبح جامدة. ويرى سارتر في الأحزاب الشيوعية أنها أنكرت الماركسية لأن الماركسية منذ نشأتها لم تتقولب أو تتجمد، لكنها نجحت في تفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية والتاريخ، فإذا بالماركسيين حسب قوله يحاولون إنكار كل تقدم. ويتساءل سارتر ما معنى هذا الجمود الفكري؟ ليصل إلى نتيجة يقول فيها: "إنّ الماركسيين اكتشفوا صبيحة عام 1956م أنهم لم يكونوا ماركسيين قط، بل كانوا ستالينيين فقط". ونراه يشن هجومًا كبيرًا على أفكار ستالين التي قال إنها تلاعبت بفكر نبيل مثل الفكر الماركسي، فيصدر كتابه الشهير (شبح ستالين). وفي هذا الكتاب يحاول أن ينازع الماركسيين على تراث ماركس، فهو يؤمن بأن الوجودية ظهرت واستمرت لأن الماركسيين جمّدوا الماركسية. والغريب أن سارتر في حوار أجراه معه موريس كرانستون - ترجمه إلى العربية إحدى دعاة الفلسفة الوجودية في العالم العربي مجاهد عبد المنعم مجاهد - يقول لمحاوره إنه سنة 1925م أخذ في قراءة كتاب رأس المال لماركس آنذاك ولم يفهم منه شيئًا، فكرر المحاولة بعد عام لأن الذي كان يعنيه ليست قراءة ماركس وإنما فهمه.

في مسرحيته (جلسة سرية)، يقول سارتر على لسان غارسيان: "لقد تركت حياتي في أيديهم". لم يترك سارتر حياته في أيدي قرّاء الفلسفة ومحبي الأدب فقط، لكنه ترك لهم عالمًا رحبًا من الكلمات والأفكار والمعارك السياسية، والأهم النضال في سبيل الفكرة. أليس هو القائل: "كل فكرة

صحيحة هي انتصار"؟

***

كانت في الثالثة عشرة من عمرها حين اعتقدت أنها وقعت في الحب. الحبيب ابن عمها جاك الذي كان له الفضل الأول في دخولها عالم الأدب، وطوال ثلاثة أعوام أصبح جاك الرجل الأول في حياتها، وتكتب في (مذكرات فتاة رصينة) أنها وضعت مخططًا لحياتها المستقبلية؛ ستتزوج من جاك وتحصل على شهادة الأستاذية: "كنتُ أتحدث بغموض عن الحب، فأنا أعرف الثمن. أنا عقلانية جدًا، ومتطلبة جدًا، وكان جاك بالنسبة لي مطلبًا شخصيًا". لكنها تكتشف بعد ثلاث أعوام من قصة الحب الخيالية أن ابن عمها سيتزوج من امرأة أخرى. "عندها فقط أيقنت أنه ليس بإمكان أي شخص أن يكون مسؤولاً عنّي على نحو كامل، لا أحد يعرفني أو يحبني تمامًا، ليس لدي سوى نفسي فقط".

في هذه الأثناء، وفي منتصف عام 1928م، يظهر سارتر في حياتها. كانت تجلس في المكتبة الوطنية تقلّب صفحات كتاب عن هيدجر، فلمحته يدخل. راقبته وهو يخلع معطفه ويجلس ليعمل بصمت، ولما حان وقت الغذاء رأته ينهض تاركًا كتبه وراءه، وكعادتها تناولت دي بوفوار سندويشًا في مقهى المكتبة. رماها سارتر بابتسامة غامضة، وأفسح لها مكانًا لتجلس بجانبه كأنما خطّط لهذا اللقاء الذي سيستمر حتى نهاية العمر. تحدثا عن هيدجر. بعد أيام قليلة استحوذ سارتر عليها وأحكم السيطرة على تفكيرها. تكتب لصديقتها الحميمة زازا: "أعرف هذا الشاب منذ ثلاثة عشر يومًا وقد جال في غياهبي، وصار يتكهّن بأفعالي فامتلكني. يحتاج ذهني إلى حضوره وينتابني الانفعال أمام تعاطفه. الشك والاضطراب والنشوة. أريد أن يرغمني على أن أصير شخصًا حقيقيًا ويعتريني الخوف".

***

في ذلك الوقت كان سارتر أقرب ما يكون فوضويًا منه أن يكون ثوريًا، فكان يرى المجتمع مقرفًا. في مقهى المكتبة عرضت دي بوفوار نظرتها إلى الحياة، والتي سمتها بالتعددية، ضحك الفيلسوف الشاب وهو يستمع إلى الفتاة "الساذجة" تحاول استعراض قراءتها، لم تمض ساعات حتى اعترفت بهزيمتها أمامه. فقد اكتشفت أن معظم حججها وأفكارها كانت مضطربة: "لاحظت أنني لم أعد متأكدة مما أفكر فيه، بل وحتى من أنني أفكر".

خلال أسبوعين كان سارتر ودي بوفوار نادرًا ما يفترقان، في ذلك الحين كان سارتر يزوّدها بالكتب التي تقرأها. وقد كتبت دي بوفوار في يومياتها: "ما أضيق عالمي الصغير إذا ما قيس بعالم سارتر الغني".

أتت دي بوفوار من عالم كانت المرأة فيه مقيدة، وكانت النساء والرجال يقطنون عالمين منفصلين بحدة. كان ينتظر من المرأة أن تذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة، لم يكن بمقدورها الجلوس بمفردها في مقهى، كان ثمة أوقات وصفت فيها دي بوفوار تمردها على تقاليد عائلتها بأنه معجزة، وقد أدركت أن الحب والحرية بالنسبة للنساء لا تُنال إلا بثمن.

في تموز من عام 1929م، ظهرت نتائج الجامعة. لقد تنافس واحد وعشرون طالبًا في الامتحانات النهائية، نجح منهم ثلاثة عشر. كانت المرتبة الأولى من نصيب الطالب جان بول سارتر، تلته سيمون دي بوفوار، وكان ذلك أمرًا استثنائيًا. فهذه المرة الأولى التي تحصل فيها فتاة على أعلى درجات الفلسفة. كانت في الحادية والعشرين من عمرها. وبهذا تكون أصغر طالبة تنجح في الامتحانات النهائية في تاريخ الجامعة الفرنسية، فقد أنهت دراسة منهاج الفلسفة في ثلاث سنوات فقط، أما سارتر فقد تطلب منه ذلك سبع سنوات، وقد تجادل أعضاء لجنة الامتحانات طويلاً حول منح الجائزة

الأولى، لسارتر أم دي بوفوار، لكنهم في النهاية قرّروا منحها لسارتر.

في عام 1930م تكتب في دفتر يومياتها ملاحظات تبدو من خلالها أنها تعاني اضطرابًا عاطفيًا: "لا أستطيع أن أتصالح مع الحياة إن لم يكن هناك هدف في حياتي، يتحدث معي سارتر كما لو أنه يتحدث إلى فتاة صغيرة. لقد فقدت كبريائي، وذلك يعني أني فقدت كل شيء".

في البداية كانت أشبه بالمسحورة. لم تصدق أنها وقعت في حب الرجل المتفوق، الذي يعد الألمع بين أصدقائه، ولم تكن تميل إلى التذمر من سلوكه الغريب وقذارة ملابسه، فمنذ بداية علاقتهما بذلت جهدًا كبيرًا لترى الأمور من منظور سارتر، وذلك بسبب شعورها بأنها تدين له بكل شيء، وأيضًا بسبب أنها كانت على قناعة بأنها تحبه أكثر مما يحبها. كل شيء تآمر لجعلها تسقط في فخ مفهومه للعشق، ونجدها بعد عشرين عامًا تخصص في كتابها (الجنس الآخر) فصلاً يدور حول المرأة التي ترى أن الحب هو الخلاص: "تحاول المرأة العاشقة أن ترى بعينيه، تقرأ الكتب التي يقرأها، تفضل الصور والموسيقى التي يفضلها، تهتم فقط بالمناظر التي تراها معه، بالأفكار التي تنبثق منه، تتبنى صداقاته وعداواته ووجهات نظره، وحين تسأل نفسها تحاول أن تسمع إجاباته. سعادة المرأة العاشقة القصوى هي أن ينظر إليها عشيقها كجزء منه، وحين يقول "نحن"، فهذا يعني أنها متّحدة ومتماهية معه، تشاركه منزلته وتسود معه على سائر الناس، ولا تتعب أبدًا من أن تكرر إلى حد الافراط هذه الـ"نحن" المبهجة".

***

ولدت سيمون دي بوفوار لعائلة غنية جدًا، الأب عاشق للمسرح والأدب والتحف الثمينة، والأم تنتسب إلى طبقة النبلاء وتصر على تربية بناتها بطريقة محافظة جدًا. وتخبرنا في روايتها (مذكرات فتاة رصينة): أنها دائمًا

ما كانت تحاول أن تختلق المشاكل لكي تتمرد على سلطة أمها، وتبحث بينها وبين نفسها عن طريقة للفرار بعيدًا عن البيت العائلي. وأمام من يعرفونها، أو لا يعرفونها كانت تجاهر بعدائها لكل ما يتصل بالالتزام نحو العائلة. "في العشرين، كنت أعتقد أنني يجب أن أعيش خارج المجتمع، وكنت يسارية لفظًا ويمينية فعلاً".

خلال سنواتها الأولى، لم يهتم سارتر ورفيقته الصغيرة بالأحداث السياسية الكبيرة التي هزّت العالم في ذلك الوقت، مثل صعود النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، والحرب الأهلية التي اندلعت في إسبانيا، فقد كانت الفلسفة كل ما يشغلهما. وكان طموح كل واحد منهما كتابة أعمال تخرج عن المألوف، وتنسف ما هو متعارف عليه من أفكار. وكان سارتر قد أصدر في ذلك الوقت عملين جلبا له اهتمام النقاد والقرّاء؛ هما رواية (الغثيان)، والمجموعة القصصية (الجدار). أما سيمون دي بوفوار فلم تكن قد أصدرت أي شيء. ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية، طُلب سارتر إلى التجنيد ليرسل إلى الجبهة. أما زميلته فقد واصلت تدريس الفلسفة في المعاهد الثانويّة مهتمة، وشهدت فترة الأربعينيات من القرن المنصرم ذروة إنتاج دي بوفوار الأدبي والفلسفي، بدءًا من أولى رواياتها (مذكرات فتاة رصينة) واكتمالاً مع صدور كتابها المهم (الجنس الآخر) عام 1941م ، وقد أثار الكتاب في حينه ضجةً كبرى في فرنسا وخارجها، وانتقده الكثير من الأدباء ومنهم أحد أصدقائها الحميمين ميرلو بونتي الذي كتب في هجائه يقول: "كتاب يتسم بعدم اللياقة وبمخالفة الآداب العامة وبالوقاحة الصريحة"، واعتبره الحزب الشيوعي الفرنسي بأنه "إهانة للمرأة العاملة" فيما حرّمته الكنيسة في روما، لكن سيمون دي بوفوار صمدت أمام جميع هذه الانتقادات لأنها صممت على خلق وعي ثقافي جديد في قضية المرأة. إذ عرضت أوضاع المرأة من النواحي التاريخية والاجتماعية والنفسية والثقافية

في القرن العشرين. حيث كانت المرأة تعاني اضطهاد الرجل الذي يتحول بفضل سطوته العاطفية عليها من إنسان بسيط إلى رمز يشبه الآلهة.

وتتساءل دي بوفوار إذا كان تاريخ النساء من صنع الرجال، فهل يعني ذلك أن المرأة هي التي سمحت للرجل بأن يعتبرها جنسًا آخر؟ أم أن المجتمع هو الذي حكم عليها لتكون جنسًا آخر؟ تابعة خاضعة للرجل؟ وهل اختارت أن تكون في قفص عوضًا عن أن تكون طائرًا طليقًا؟ وتضيف: "إن المجتمع هو الذي ساهم في خلق الصورة النمطية للمرأة لتكون أنثى، خاضعة للرجل، صنعها المجتمع لتكون جنسًا آخر، ألغى شخصيتها وطمس إنسانيتها، واعتبرها أنثى بالمفهوم المطلق جسدًا كمتاع، حسب أهوائه. لا يمكن للإنسان العاقل أن يختار العيش في قفص، إلا إذا حكمت عليه ظروف الحياة أن يعيش مقيدًا بالأغلال".

عندما توفيت سيمون دي بوفوار عام 86 قالت الفيلسوفة إليزابيث بادنتر: "يا نساء العالم، أنتن مدينات بكل شيء لسيمون"، فبهذه الكلمة ودّعت المرأة التي حرّضت النساء على المطالبة بكل حقوقها لأنها "عالم آخر"، وترفض أن تكون جزءًا تابعًا لعالم الرجل.

في دفتر يومياتها تكتب دي بوفوار: "لقد أصبح سارتر كل عالمي، وبفضله أصبحت أكثر فتنة حتى أني نسيت نفسي".

(8)

قصة حب ابتدأت بمحاورات أفلاطون

كنت شابًا صغيرًا مفتونًا بعدد من الكتّاب. أراهم دائمًا يرسمون في مخيلتي عالمًا من الشخوص والنماذج الملهمة. لذا كنت أحرص على قراءة كل سطر من سطورهم. سُعدت بالساحر توفيق الحكيم الذي أدخل البهجة إلى حياتي، وأنا أتابع مصائر أبطاله وأفراحهم وأحزانهم، حيث استطاع، وبمهارة الفنان العظيم، أن يخلق لنا عالمًا كاملاً يتحرك فيه ببراعة وسط شخصيات وأحداث هي جوهر فنه، يكتبها ويعالجها منذ (أهل الكهف) و (عودة الروح) و (عصفور من الشرق) و (زهرة العمر) و (السلطان الحائر) و (يوميات نائب في الأرياف). هناك عشت مع سحر الكلمات والوجوه والأحداث التي تحمل نكهة الفن الصافي. أما سلامة موسى فقد كان لوحده مكتبة متكاملة تضم الناقد والمفكر والمؤرخ والفيلسوف وعالم النفس والباحث الاجتماعي. وتعلمت من كتب طه حسين كيف أقرأ الأدب وكيف أفهمه وكيف أتذوقه، وطه حسين مثل سقراط يبحث مع قارئه ويناقشه ويسعى لسحق الأفكار القديمة، ثم يأخذك معه في رحلة استكشاف للأدب العربي، قديمه وحديثه، وقد كان لكتابات طه حسين الفضل الأول بأن أخذت بيدي لتُدخلني عالمًا عجيبًا مدهشًا اسمه الكتاب.

في المتوسطة النظامية أهداني أستاذي، الفنان الراحل شاكر حسن آل سعيد، نسخة من الجزء الأول من كتاب (الأيام)، وكان هذا أول تعرفي على طه حسين الذي لم أترك عملاً صدر له دون أن أقتنيه. وقد فتح لي عميد

الأدب عوالمَ وآفاقًا ما أزال أكتشفها منذ أن قرأت الجملة الأولى في كتاب (الأيام) حيث يقول: "لا يذكر لهذا اليوم اسمًا، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يتذكر من هذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يقرَب ذلك تقريبًا، وأكبر ظنّه أن هذا اليوم يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه، يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقّى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس".

اليوم حين استرجع هذه العبارة، وأتوقف أمام مؤلفات طه حسين التي أعدت قراءتها أكثر من مرة، وأسترجع الفتى الذي كنته، يوم انتهيت من قراءة الصفحة الأخيرة من (الأيام) فانتابتني رغبة بأن أصبح مثل صاحبها، حتى أنني تمنيت في سرّي أن أستيقظ من النوم ، فأجد نفسي وقد أصبحت ضريرًا، من أجل أن أعيد سيرة الفتى الذي تحدى العمى فانتصر عليه، وتحدّى الفقر فأصبح غنيًا بثروة المعرفة. وقد تعلّمت من كتبه كيف أكتب بلا خوف، وكيف أعيش حرًا رغم المصاعب، ومن خلاله أيضًا تعرفت على كنوز الأدب العالمي، ونطقت لأول مرة بأسماء لم تطرق سمعي من قبل، ولعل كتابه (ألوان) كان بوابتي لمعرفة سارتر وكافكا وأندريه جيد وجان كوكتو وبول فاليري. وأتذكر أنني دهشت وأنا أقرأ في هذا الكتاب مقالاً بعنوان (سارتر والسينما)، وهو مقال كتبه العميد في الأربعينيات، ونشره آنذاك في مجلة (الكاتب) المصرية. ولعل البعض يتساءل: ما هذا؟ رجل ضرير ويكتب عن السينما وعن أفلام لم تزل تمثل حيرة ولغزًا للنقاد قبل المشاهدين، مثل (الدوامة، وتمت اللعبة، والاشتباك) وأخيرًا فيلم عن مكتشف التحليل النفسي فرويد. ليس هناك مجال للتساؤل في الحقيقة، فلم يكن طه حسين يمثل استثناءً لقدرة الإنسان الخلاقة فقط، وإنما كان هو تأكيد لوجودها، في هذا المقال المثير لم يكتف عميد الأدب بمناقشة أفلام سارتر وإنما حاول مقارنتها بنماذج أخرى. فهو يكتب: "لم يكن سارتر وحده الذي

وظّف الكاميرا مع الفيلم في الكتابة. فقد سبقه في الأدب الفرنسي اثنان من أعلامه هما جان كوكتو ومارسيل بانويل، غير أنهم لم يتجاوزوا بآثارهم محاولة التوفيق بين السينما والأدب، أما سارتر فهو لا يكره أن يمتع النظارة ولكنه لا يكتفي بإمتاعهم، وهو لا يكره أن يعظ النظارة، لكنه لا يكتفي بوعظهم، وإنما يحاول فوق الإمتاع والوعظ أن يعرض عليهم مشاكل عنيفة، بعضها يعرض للإنسان من حيث هو إنسان يفكر في حياته ومصيره تفكيرًا فلسفيًا، وبعضها يعرض عليه من حيث هو إنسان يدبر حياته تدبيرًا سياسيًا واجتماعيًا، فيلقى في هذا كله ما يلقى من المصاعب والعقاب".

في الأسابيع الماضية عدت إلى اللحظات الأولى التي قرأت فيها (الأيام)، وسألت نفسي كيف قرأت هذا العمل الساحر قبل أكثر من أربعين عامًا، وبأية أحاسيس ومشاعر أقرأه اليوم، وأنا أتابع سيرة الرجل الأزهري الذي يواجه الحياة في القاهرة وبعد ذلك في باريس، وإذ يكتب التجربة ويصف انطباعاته، حيث يلاحقها بأسلوب أدبي قلّ نظيره، ونعيش معه ذكريات مرق الفول في الأزهر، وتبرمه ببعض الأساتذة والرفاق. لكن اللغة التي سيكتب بها حتى اللحظات الأخيرة هي لغة منحوتة، ببلاغتها وتعابيرها، فيما هو يحاول أن يذوب في باريس وعطرها والفنادق الصغيرة في المنطقة الجامعية، ونعرف أنه قرّر أن يتخذ شريكة له، الفرنسية سوزان التي يرى بعينيها سحر باريس، وسوف يكتشف عالمًا أكثر يسرًا وسهولة على الفتى الضرير، من الحياة الخشنة في الأزهر. وهنا يكتشف، للمرة الأولى، أن على الضرير أن يغطي عينيه بنظارتين سوداوين سميكتين، وهو المنظر الذي سيرافق صورته في ذاكرتي.

كان طه حسين في السادسة والعشرين من عمره، ولم يكن كاتبًا معروفًا عندما تعرف على سوزان التي أصبحت زوجته فيما بعد. وتذكر هي في كتاب (معك)، وهو واحد من أجمل ما كُتب في مجال السيرة الذاتية للأدباء العرب،

أنها: "ذات يوم صرّحت برغبتها في الزواج منه، فصعقت العائلة وأخذ جميع أفرادها يصيحون فيها غاضبين: كيف؟ من أجنبي؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟" غير أن الفتاة كانت قد اختارت. وجاءها العون من عم لها كان قسًا، فقد قال لها بعد أن تنزّه مع طه حسين مدة ساعتين في حقول باريس: "بوسعك أن تنفذي ما عزمت عليه.. لا تخافي، فبصحبة هذا الرجل يستطيع المرء أن يحلّق بالحوار ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إنه سيتجاوزك باستمرار". وفيما بعد سوف تكتشف السيدة سوزان أن عمها كان على حق.

***

اللقاء الأول كان في 12 أيار عام 1915م. كان الطالب القادم من مصر قد تقدّم لنيل شهادة في التاريخ والجغرافيا في كلية الآداب جامعة مونبليه، وكانت هي قد بلغت العشرين من العمر. وبين الساعة السادسة والسابعة صباحًا حدثت المعجزة: "لم يكن ثمة شيء في ذلك اليوم ينبئني بأن مصيري كان يتقرر، ولم يكن بوسع أمي التي كانت بصحبتي أن تتصوّر أمرًا مماثلاً". نحن الآن أمام فتاة فرنسية متعلّمة ومن طبقة متوسطة، تسعى للحصول على عمل، وكانت أمامها وظيفة قارئة لطالب أجنبي وضع إعلانًا في صحيفة محلية. وبعد سنوات طويلة، حين يقصّ طه حسين حكاية اللقاء الأول في حوار مطوّل مع غالي شكري يقول: "كنت أول أجنبي تلتقيه هذه الفتاة، وكانت أول فتاة تزورني. وكان من الطبيعي إذن ألا تجري محادثاتنا مجرى سهلاً". سوزان من ناحيتها قالت إنها كانت مرتبكة، وفي حوارها الوحيد الذي أجرته مع الصحفية المصرية أمينة السعيد، ونشر في مجلة (المصور) تقول: "كنت على شيء من الحيرة، إذ لم يسبق لي في حياتي أن كلمت أعمى". ولكنها تكتشف فيما بعد أنه لم يكن أعمى، بل أجنبي فقط وكان بحاجة إلى قارئة باللغة الفرنسية، وستقوم هي بالدور المطلوب منها، لكنها بعد أشهر تتجاوز كونها مجرد قارئة، فقد تحولت إلى مرشدة تدله على خفايا الأدب

الفرنسي: "كانت صديقتي وأستاذتي، وأنا مدين لها أن تعلّمت اللاتينية من خلالها، ونجحت في نيل إجازة الأدب، وأنا مدين لها أخيرًا حين استطعت أن أقرأ أفلاطون بلغته الأصلية".

ذات مرة، كتب طه حسين إلى زوجته سوزان يقول: "بدونك أشعر أني أعمى حقًا. أما وأنا معك، فإني أتوصل إلى الشعور بكل شيء، وإني أمتزج بكل الأشياء التي تحيط بي". وعندما رحل هو عن العالم، كتبت هي تقول: "ذراعي لن تمسك بذراعك أبدًا، ويداي تبدوان لي بلا فائدة بشكل محزن".

في كتاب (الأيام) نرى طه حسين ويرانا، وتخبرنا سوزان في (معك) أن فكرة الكتاب نضجت بعد أن تعرّض عميد الأدب العربي إلى موقف عنيف بسبب صدور كتاب له في الشعر الجاهلي، وخوفًا على حياته سافر إلى إحدى القرى في باريس. وهناك وفي تسعة أيام بدأ يكتب سيرة الطفل الضرير والتي صدر عام 1926م الجزء الأول منها بعنوان (الأيام)، وفيه نقرأ صفحات ناصعة جريئة من نضال الإنسان وكفاحه وإصراره على خوض المستحيل.

هذا الكتاب هو الرسالة التي وجّهها طه حسين لابنته البالغة آنذاك تسعة أعوام: "نعم يا ابنتي، لقد عرفت أباك في هذا الطور من حياته، وإني لأعرف أن في قلبك رقة ولينًا، وإني لأخشى لو حدثتك بما عرفت من أمر أبيك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشين بالبكاء".

كتب طه حسين الكتاب وهو في السابعة والثلاثين من عمره، وطبع الكتاب أكثر من خمسين طبعة وما زال يطبع ويجد قارئًا جديدًا كل يوم، وهو يقول لغالي شكري في حوار موسّع نشر في كتاب (ماذا بقي من طه حسين): "ليس الغرض من الأيام أن أصف حياتي، وإنما كنت أريد أن أدرس حياة المجتمع المصري في ذلك الزمان". وهو يرسم لغالي شكري حدود نظريته الفنية في كتابة السيرة فيقول: "خصلة أخرى حببت إليّ نشر هذا الكتاب،

وهي أنه يؤرّخ حياة الطالب في الأزهر وفي الجامعة المصرية، وهو نوع جديد من الكتابة، لست أبحث من خلاله عن الأولوية في القيمة، وإنما أكتفي بهذه الأولوية نفسها مغريًا بنشر المعرفة بين الناس، ولست أتّخذ من أولويته فخرًا وإنما أتّخذ منها معذرة إن كان فيه بعض النقص".

هذه كلمات العميد، وهي منهجه النقدي وبصيرته الاجتماعية التي ما زالت رائدة وما زالت متقدمة علينا، لأن صاحبها صادق، يكتب وكأنه يتنفس مرتاحًا في مقعد مريح، لا تعمّد ولا قصدية ولا اصطناع ولكن.. هَم واهتمام وتطويع للغة في التعبير عن المعنى وظله وترددات ظله حتى الرمق الأخير.

أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي)

تتذكر سوزان الأزمة التي أثيرت حول كتاب (في الشعر الجاهلي) فتكتب في مذكراتها: "الضجة التي اقترنت بهذا الكتاب، وثورة الجهل والتعصب التي أعقبت صدوره نعرفها جميعًا، أما ما لا نعرفه فهو ما كانته هذه المحنة في نظر زوجي الذي كانت رزانته الثابتة تمنعه من الشكوى، لقد بدأ كتابة هذا الكتاب في كانون الأول عام 1926م، وأنجزه في آذار من العام نفسه".

ما المشكلة؟ كان طه حسين في السطور الأولى من الكتاب قد خاطب القارئ قائلاً: "وأول شيء لأفاجئك به في هذا الحديث، هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألحّ عليّ الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقينًا، فهو قريب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام،

فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين".

ما أن ظهر الكتاب إلى الأسواق منتصف عام 1926م، حتى ثارت ثائرة الوسط الأدبي والديني لتظهر عشرات الكتب ترد على طه حسين، إضافة إلى مئات المقالات. واشتركت أكثر من صحيفة ومجلة في المعركة، وبرزت الأهرام في صف المهاجمين للكتاب، فنشرت على صفحاتها الأولى افتتاحيات تأخذ على المؤلف أنه أساء إلى التراث العربي والإسلامي. ولم يشأ طه حسين أن يردّ على سيل الهجوم هذا إلا أنه أجاب فيما بعد على أسئلة وجّهها له صديقه أحمد حسن الزيات، ونشرت في مجلة (الرسالة) في عددها الصادر في أيار عام 1926م.

• أية عاصفة تلك التي أثرتها يا دكتور؟

يجيب طه حسين: "ضجة كبيرة لأمر تافه. إنّ الأستاذ الذي يلقي دروسه بأمانة كثيرًا ما تعرض له في المادة التي يدرسها ملاحظات ومباحث شخصية كما تعرض له في بعض الأحيان نظريات أيضًا، وطبيعي جدًا أن يجمع هذه الملاحظات ويصوغها في قالب تحليلي يعرضه مع شيء من التفصيل".

• ولكنك تعرّضت لمسائل تعرف أنها شائكة.

"بلى، ولكني طلبت مدفوعًا بشغف مهنتي إلى أولئك الذين لا يعرفون مناهج النقد الحديثة والبحث الحر ألا يقرأوا كتابًا لم يُكتب لهم. إنّ كتابي جدير بما هو جدير به، وقد لا تكون له قيمة إلا في نزاهة بحثه".

لم تنتهِ الأزمة عند حد الردود فقد أثار الأزهر ضجة عنيفة دفعت أحمد لطفي السيد، عميد جامعة فؤاد الأول، لحجز نسخ الكتاب، ولكن ذلك لم يخفّف من غلواء المتشددين الذين طالبوا بمحاكمة طه حسين، وانتشرت تهديدات بالقتل. وبناءً على نصائح أصدقائه ذهب إلى فرنسا وبقي فيها حتى

عام 1927م، وكانت نهاية القصة أن عقد البرلمان المصري اجتماعًا قرّر فيه فصله من الجامعة، لكن نهاية القصة عند طه حسين كانت التفرغ لمدة تسعة أشهر ليُخرج إلى الأدب العربي واحدًا من أهم كتب السيرة، وهو الجزء الأول من (الأيام).

الكلمات الأخيرة

في يوم 27 تشرين الأول 1973م، أصيب طه حسين بوعكة صحية، ولما جاء الطبيب لفحصه زالت النوبة وعاد صاحب (الأيام) إلى حالته الطبيعية. كانت برقية الأمم المتحدة التي وصلت عصر ذلك اليوم تعلن فوزه بجائزة حقوق الإنسان، غير أنه لم يسعد كثيرًا بتلك البرقية، وبإشارة من يده تعرفها زوجته جيدًا، علّق على ذلك قائلاً: "أية حماقة! يريدون أن يجعلوا من رجل أعمى قائدًا لسفينة؟"

صبيحة اليوم التالي شرب العميد قليلاً من الحليب، ثم لفظ أنفاسه. وفيما بعد كتبت زوجته تقول واصفةً مشاعرها في تلك اللحظة العصيبة: "جلست قربه، مرهقة متبلدة الذهن وإن كنت هادئة هدوءًا غريبًا، ما أكثر ما كنت أتخيل هذه اللحظة الصعبة، كنا معًا وحيدين، متقاربين بشكل يفوق الوصف. ولم أكن أبكي ـ فقد جاءت الدموع بعد ذلك. ولم يكن أحد يعرف بعد بالذي حدث، كان الواحد منا مثل الآخر مجهولاً ومتوحدًا، كما كنا في بداية طريقنا".

(9)
الرواية هي الأرض التي لا أحد فيها يمتلك الحقيقة

"إن الأسئلة الخطيرة حقًا هي فقط تلك التي يمكن أن يصوغها طفل. وحدها الأسئلة الأكثر براءةً هي أسئلة خطيرة حقًا، إنها التساؤلات التي لا جواب لها".

ميلان كونديرا (خفة الكائن التي لا تحتمل)

***

في الفصل الرابع من رواية كونديرا (كتاب الضحك والنسيان) احتاجت تامينا إلى أن تلتقي مع كاتب من الإقليم يدعى بانكا، يشرح هذا الكاتب لها أن الكتّاب الحقيقيين قد تخلوا عن فن الرواية القديم: "أتعلمين أن الرواية هي ثمرة وهم بشري، وهم إمكان فهم الآخر، ولكن ما الذي يعرفه بعضنا عن البعض الآخر؟ كل ما يسعنا عمله هو تقديم تقرير عن أنفسنا، وما عدا ذلك كذب". ويقول صديق بانكا وهو أستاذ فلسفة: "منذ جيمس جويس أصلاً نعلم أن أكبر مغامرة في حياتنا هي غياب المغامرة، لقد انتقلت أوديسة هوميروس إلى الداخل وصارت باطنية".

في عام 1937م، وقبل سنة من وفاته، كان هوسرل يلقي محاضرة حول ديكارت حين سأله أحد الحضور: كيف يرى جذور الأزمة التي تمر بها أوروبا الآن؟ كان هتلر يعد العدّة لحرب جديدة، صمت الفيلسوف الألماني قليلاً، ثم قال لمحدثه: أنصحك أن تقرأ سيرفانتس، ربما تجد الإجابة في ثنايا

حوارات دون كيشوت. كان هوسرل قد تحاور من قبل مع تلميذه هيدجر حول الفلسفة والأدب، وكان التلميذ يعتقد أن الفلسفة والعلوم قد نسيا كينونة الإنسان، وأن هذه الكينونة إنما تم الكشف عنها وإضاءتها بواسطة أربعة قرون من الرواية الأوروبية. يكتب هيدجر في إحدى رسائله إلى حنّة آرندت: "اكتشفت الرواية بطريقتها الخاصة وبمنطقها الخاص مختلف جوانب الوجود، وتساءلت منذ سيرفانتس عما هي المغامرة، وبدأت مع بلزاك في اكتشاف تجذر الإنسان في التاريخ، وسبرت مع فلوبير أرضًا كانت مجهولة، وعكفت مع دستويفسكي على التدخل اللاعقلاني في السلوك البشري. إنها تستقصي الزمن، اللحظة الماضية التي لا يمكن القبض عليها مع مارسيل بروست، واللحظة الحاضرة التي لا يمكن القبض عليها، وتستجوب مع توماس مان دور الأساطير الآتية من أعماق الزمن لتتبع خطانا".

****

لا يزال يكره الحديث عن سيرته الحياتية، رغم أنه يهوى سرد حكايات الآخرين، يتذكر أنه ولد في الأول من نيسان عام 1929م، ويكتب أن حياته أصبحت مثل النكات التي تلقى بمناسبة الأول من نيسان. هو الابن الوحيد لعائلة مثقفة من الطبقة الوسطى، والده متخصص في الموسيقى، ولا نعرف ما مهنة أمه، فهو لم يذكرها كثيرًا، ظل متعلقًا بوالده عازف البيانو الشهير الذي قاده إلى دروب بارتوك، وسترافينسكي، ورحمانوف.

اضطر في سن مبكرة أن ينشغل بالسياسة، ففي التاسعة من عمره كانت بلاده تشيكوسلوفاكيا تنزلق نحو الحرب، وسيكتب فيما بعد أن العديد من أفراد عائلته زج بهم في معسكرات الاعتقال النازية بسبب ميولهم الشيوعية، وأن البعض منهم لقوا حتفهم. عندما وقع انقلاب براغ عام 1948م، كان ميلان في الثامنة عشر من عمره وقد سحرته دروب يوتيبيا الكادحين، فانضم

للحزب الشيوعي. بدأ حياته شاعرًا، ويقال إن مجموعته الشعرية الأولى (أنا لا أقرأ التشيكية) حظيت بردود فعل إيجابية، لكن كونديرا اكتشف فيما بعد وبالصدفة سارتر الفيلسوف، وقد حاول في مجموعته الشعرية الثانية أن ينزع نحو الوجودية، الأمر الذي أثار نقمة الجهات الرسمية التي قررت فصله من الحزب عام 1950م. وكانت أسباب الفصل تؤكد أنه من غير المعقول في بلد شيوعي يبشر الشعراء بالعدمية والوجودية. في سن السادسة والعشرين كتب قصيدة يمجد فيها بطل المقاومة التشيكي فوسيك، فاستحق عنها إعادة الاعتبار له، ليصدر قرار بإعادته إلى الحزب.

طيلة الستينيات قام كونديرا بتدريس السينما في الجامعة، وفي تلك الأثناء نشر روايته (المزحة) وهي درس عن الحب في زمن سطرت الأيدلوجيات. وقد ترجمت إلى الفرنسية بتقديم الشاعر الفرنسي الكبير أراغون، الذي وجد فيها تصويرًا لأزمة الأحزاب اليسارية في أوروبا. في عام 1968م، قرر الروس دخول براغ، لم يختر ميلان الهروب، فقد أراد الاستمرار في إيمانه بالاشتراكية وبإمكانية التغيير من الداخل، لكنه في المقابل ترك نفسه لأن يكتب بحرية، الأمر الذي أدّى إلى طرده عام 1970م من الحزب الشيوعي، وصدور قرار بمنع كتبه من التداول، بعدها أقيل من وظيفته في الجامعة، فقرر أن يعمل في إحدى الصحف لتحرير باب الأبراج باسم مستعار: "ألا يكون للمرء وجود علني أمر له محاسنه أيضًا". في هذه الفترة ينصرف لكتابة الرواية لتصدر له روايتين كبيرتين هما (الحياة هي في مكان آخر) و (فالس الوداع) التي رسخت اسمه كواحد من روائيي الجيل الجديد. عام 1975م يسافر إلى فرنسا ليقيم بصفة لاجئ، وبعد أربعة أعوام يُجرّد من جنسيته التشيكية، فيمنح عام 1979م الجنسية الفرنسية. لم يُحدث المنفى ولا الكتابة بالفرنسية تغيرًا في أسلوب كونديرا الروائي، وأقصى ما لاحظه النقاد أن رواياته باتت تحمل خصائص التقشف في اللغة والاقتصاد في الوسائل، وتجنب النزعات

العاطفية. ولعل ما سمح لكونديرا بهذه النقلة هو إصراره على إعادة كتابة ماضيه الشخصي، الأمر الذي جعله يمتنع عن إعادة طباعة أعماله القديمة التي تعود إلى فترة الخمسينيات والستينيات، فهو يعدّها غير ناضجة ولا تستحق القراءة: "إن أول نص يستحق الذكر هو قصة قصيرة كتبتها في سن الثلاثين، بعنوان (غراميات مرحة)، من هنا بدأت حياتي ككاتب".

يتصرف كونديرا مع قصة حياته الخاصة كروائي، فينبهنا في (خفة الكائن) إلى "أن الشخصيات الروائية لا تولد من جسد أمٍ، بل من بضع كلمات موحية، من استعارة، من موقف أساسي". وهو أقرب إلى تصور سارتر في الوجود والعدم، الكتاب الذي اعتبره كونديرا أشبه بالإنجيل، كان سارتر في (الكلمات) يصر على أن نسيان الطفولة والسكوت عن الأشياء التي تم تلقيها وتعلمها أشبه بقانون رفض الهوية.

رواية بعد أخرى نستكشف مع كونديرا مفارقات الوجود الإنساني، ما من أحد أكثر منه موهبة في الكشف عن الضلالات التي نعيش فيها، والأدوار التي فرضت علينا كي نلعبها في الحياة، وأكاذيبنا، واستعراضاتنا الجنسية، وحيلنا ومراوغاتنا لصد (خفة الكائن التي لا تحتمل)، ولا أحد مثله باستطاعته المزج مزجًا بارعًا، وبطريقة أقرب إلى كتابة النوتة الموسيقية، بين الخيال الروائي والمقالة الفلسفية. إن فكرته الأساسية في معظم أعماله الروائية هي أن لا وجود للهوية، لأن مظهرنا الجسدي أمر اعتباطي، دائم التحول، وذاكرتنا لا يمكن الوثوق بها كثيرًا، وحتى آرائنا وأفكارنا وأذواقنا وأنماط عيشنا، إنما تصوغها الصدفة. يخبرنا كونديرا أن الإيجابي هو الذي أدرك الطبيعة التراجيكوميدية للحياة الإنسانية، والسلبي هو ذلك الذي يسعى دومًا إلى إقناعك بالانتماء إلى شيء ما، بلد أو حزب، أو دين أو عائلة.

يكتب كونديرا: "إن كل روائي يؤلف كتبه على الأرجح كفرضية كبرى،

كسؤال يقذف في وجه العالم، سأُسأل طبعًا: ومن يجيب عن ذلك السؤال؟ هناك دائمًا ما يكفي من الحمقى كي يجيبوا، فالحمقى يعرفون كل شيء! إن حكمة الرواية تكمن بالضبط في جهلها". وفي فن الرواية يؤكد كونديرا أن "الرواية هي جنة الأفراد المتخيّلة، إنها الأرض التي لا أحد فيها يمتلك الحقيقة".

***

منذ دخوله المدرسة يدرك جاروميل بطل (الحياة هي في مكان آخر) أن محبة أمه تترك آثارها في كل شيء، كانت تلك المحبة مطبوعة على كل شيء في حياته، ولهذا يخترع الفتى جاروميل، من أجل الدفاع عن نفسه ذاتًا أخرى باسم إكزافييه الذي بدلاً من أن يحيا حياة تمتد من الولادة إلى الموت كحبل طويل قذر، يحيا في الأحلام عابرًا من حلم إلى آخر، كما لو كان يعبر من حياة إلى أخرى. ولن نعجب حين يخبرنا الروائي أن هذه الحرية العجيبة ناجمة عن كونه بلا أم وبلا أب، ذلك أن انعدام وجود الأبوين هو شرط الحرية الأول، لا تبدأ الحرية حيث يُرفض الآباء أو يدفنون، بل حيث لا يكون لهم وجود، حيث يأتي الإنسان إلى العالم دون أن يدري من أين.

يصبح جاروميل الشاب الوسيم مثل كونديرا في الخمسينيات شاعرًا، "كان يكتب قصائد عن الطفولة المصطنعة، عن الحنان، عن موت وهمي، عن شيخوخة وهمية، كانت تلك ثلاث رايات زرقاء يتقدم تحتها خائفًا نحو جسد المرأة الراشدة الحقيقي على نحو هائل".

لكن صورة أمه تظل تطارده حتى في ألعابه الجنسية، فيشعر بالذنب: "حتى حين تمضي وقتك مع النساء، حين ستكون معهن في السرير، سيكون ثمة حبل في عنقك، وفي مكان ما، أبعد قليلاً، تمسك أمك بطرفه، فتشعر على إيقاع اهتزازاته بحركاتك الماجنة".

وبرغم بلوغه سن العشرين، ولسبب لا يكشف عنه كونديرا، يظل جاروميل يقبل أن تختار له أمه ملابسه، لذا لن نندهش حين نراه بعد ذلك يوثق عشيقته الشقراء الصغيرة، ويشلّ حركتها حين يمارس الجنس معها: "إن جوهر المشكلة أنها كانت تفلت منه، إنه لم يكن يتملكها تمامًا". كان أي ميل للاستقلالية لدى العشيقة الصغيرة يسوء جاروميل، كان يود: "ألا تكون أبدًا في مكان آخر غير مغطس الحب ذاك، ألا تحاول الخروج منه ولو بالفكر، أن تكون مغمورة تحت سطح أفكار جاروميل وكلماته"، مثلما كان هو مغمورًا في أفكار أمه وكلماتها.

في النهاية يشي جاروميل بعشيقته إلى السلطات، فيتم إلقاء القبض عليها والزج بها في السجن، وهكذا سيصبح سيدها المطلق، وسيكون في النهاية قد أخذ بثأره من أمه، "إنها له، له، له".

ثم يقع الشاعر الشاب مريضًا حتى الموت، ويكتب كونديرا في نهاية الرواية مقطعًا شديد التهكم يقول فيه جاروميل لأمه، وهو لا يزال يمسك بيدها في راحته الملتهبة: "أنت الأجمل من بينهن جميعًا، أنت أكثر من أحببت".

بموت جاروميل يموت الشاعر الغنائي الذي كانه ميلان كونديرا في شبابه، وبهذه الرواية أدار ظهره نهائيًا لعالم الخمول الفكري، وعالم الأمهات، ولن يقع في الفخ ثانية. انتهى الشعر، الثورة، الاشتراكية، التناغم مع العالم الخارجي، الحب الأمومي، كل ذلك سوف يرمى إلى سلة النفايات.

***

رفض صاحب دار النشر التشيكية مخطوطة (غراميات مرحة) قائلاً لصاحب الكتاب: "قد أكون قارئًا سيئًا وتفكيري محدود، لكنني لا أستطيع فهم كيف أن شخصًا يكتب خمسين صفحة لكي يصف لنا أن بطل قصته يعاني من آلام في المرارة، لكنه مشغول البال بدموع زوجته".

يكتب كونديرا: "بعد نشري لكتابي الأول هذا أخبرني الكثير من القراء أنهم اكتشفوا أن الدكتور هافل موجود بينهم، وهم يلتقون به في الطرقات والمترو ومقاهي الرصيف". ويضيف صاحب (الضحك والنسيان) أن دراسته للموسيقى والسينما مكّنته من أن يتناول الموضوعات الأكثر قتامة بأسلوب هزلي، من (خفة الكائن) إلى (الحياة في مكان آخر) مرورًا بـ(المزحة والجهل)، ظلّت الفكاهة سمة مميزة لكتاباته، وهو يقول لمحاوره كريستيان سالمون: "إن التسلية والإمتاع كانت وسيلته لتمرير أفكار يعتقد بها، فهو يعتقد أن الرواية يجب أن تجمع بين المعنى الجادّ والأسلوب المُسلّي، على غرار ما قدّم تشارلز ديكنز في رائعته (أوقات عصيبة).

يصل لودفيك بطل (مزحة) إلى مدينته الأولى التي يعيش بعيدًا عنها منذ خمسة عشر عامًا، ليجد نفسه يسترجع لحظة القبض عليه أول مرة بتهمة الخيانة العظمى والسخرية من الحزب والدولة. كانت رسالة غرامية هي التي أحدثت زلزالاً في حياته، ففي لحظة مرح كتب لحبيبته ماركريتا: "التفاؤل أفيون الشعب. العقل السليم يُعفّنه الغباء. عاش تروتسكي". وقريبًا من أجواء محاكمة كافكا يجد بطل كونديرا نفسه محاصرًا بثلاثة محققين.

الأول: أنت ترى أنّ الأفيون هو تفاؤلنا. لقد كتبت ذلك إلى ماركيتا.

الثاني: كم أودّ أن أعرف ماذا سيكون ردّ فعل عمّالنا من الصدمة التي تفوق كلّ تصوّر إن علموا بأنّ تفاؤلهم أفيون.

الثالث: بالنسبة إلى التروتسكيين، لم يكن التفاؤل البنّاء دومًا إلاّ أفيونًا، وواضح أنك تروتسكيّ.

أجاب محتجًا: من أين جئتم بهذا الحكم؟ تعلمون أنني حزبي أصيل لكني في الوقت نفسه، شخصية مرحة تميل تلقائيًا إلى الدعابة والهزل.

(10)

لم يحب في حياته سوى امرأة واحدة حتى الجنون اسمها

في الثالث والعشرين من شباط عام 1996م، وفي باريس، امتد بساط من مقبرة فيريير لوبويسون لينتهي أمام البانثيون "مقبرة العظماء". وعلى أنغام النشيد القومي الفرنسي، كان الحرس الرئاسي يسير ببطء، كانت الآلاف التي وقفت تشارك في المشهد المثير تنثر الزهور عند مرور الموكب الذي يتكون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية يتبعهم طلاب مدرسة الآداب. وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب، وتطلعوا إلى المنصة المقامة تحت القبة الكبرى التي جلس عليها أعضاء الحكومة وعلى رأسهم الرئيس جاك شيراك، الذي أصر أن يجلس إلى جانبه الفيلسوف بول ريكور، حيث طلب منه أن يلقي خطاب التأبين الخاص برمز ثقافة المقاومة الفرنسية أندريه مالرو، حيث قررت الحكومة الفرنسية أن ينقل جثمان مالرو إلى مقبرة العظماء، ليدفن إلى جوار فولتير وروسو وفكتور هيجو، وكان ممكن قراءة ما هو مكتوب على واجهة البانثيون فوق رأس الرئيس الفرنسي شيراك أثناء إلقاء خطابه، وكان كالآتي: "إلى الرجال العظماء من بلد ممتن"، وعندما نهض شيراك ليلقي كلمته بعد ريكور قال: "إن نقل جثمان أندريه مالرو في ذلك الوقت إلى أكثر الأماكن قدسية بالنسبة لنا ليس مجرد عمل لذكرى، بل هو تأكيد على إيمان فرنسا بالفكر والثقافة والأدب، وعلى احترامنا للكتّاب الذين نخلدهم هنا، وعلى تقديرنا لعزيمتهم ولحياتهم. واحتفالنا اليوم هو عمل متعمد من جانبنا لرجل يمثل رمزًا في تاريخ نضالنا المشرّف، وهو رمز يحوز انتباه أمتنا ومثال

على نضال مثقف قرر أن يضع قدراته في خدمة شعبه".

كانت وصية مالرو لعائلته أن تكون جنازته مقتصرة على أفراد عائلته، وأن يرقد في المنطقة التي أحبها: فير لوبوسون. لكن فرنسا بعد 20 عامًا شاءت غير ذلك مع الأديب الذي كتب عنه ديغول في مذكراته: "إلى يميني كان وسيظل أندريه مالرو، إن حضور هذا الصديق العبقري إلى جانبي يمنحني الشعور بأنني مغطى كليًا. إن الفكرة التي لهذا الشاهد الفريد تقويني في موقفي، وإني على يقين في الأزمات الخطيرة بأن حكمه الساطع والصارم كان يساعدني دومًا على تبديد الشكوك".

***

كان عمرة 19 عامًا عندما سافر إلى جزيرة لاوس حيث أسّس هناك حركة (أنام الشابة) التي سيحولها هوشي منه بعد سنوات إلى (فيات منه)، والتي ستقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وحين تُمنح فيتنام الاستقلال عام 1945م، كان مالرو البالغ من العمر أربعة وأربعين عامًا يقف إلى جانب صديقه هوشي منه، الذي سيلتفت إلى الفرنسي الذي تبدو على ملامحه نشوة الانتصار ليقول للآلاف التي تهتف للنصر: "باسمكم سأقدم تحية للفرنسي الذي ساعدنا للتخلص من استعمار بلاده". بعد سنوات نجده يقف إلى جانب ماو ليسجل يوميات الثورة ومعانيها في روايته الشهيرة (الوضع البشري)، وفيها يخبرنا أن الصين القديمة تحتضر، وأن هناك بلادًا جديدة تولد من رحم الفعل الثوري. يذكر سارتر أن الوجودية الفرنسية وجدت أساسياتها مع بطل مالرو في (الوضع البشري)، حين كان هذا البطل آنذاك تجسيدًا للإنسان الوجودي المتمرد أو الثوري، يحمل غايته في نفسه، فلا يهم إن انتصر أو انهزمْ، الأهم من ذلك هو فعله الإنساني، إن فعله هنا هو اكتشاف وجوده الفردي الذي لا يكتمل إلا في الإطار الإنساني. ويضيف سارتر أن:

"مالرو كان يدرك عبثية الحياة، لكنه يحترم الشجاعة الفائقة عند الإنسان، الكائن الحي الوحيد الذي يعرف أنه سيموت، ثم يظل يضع مشاريع للحياة". كان الموت هاجسًا رافقه منذ الصغر، عندما وجد والده منتحرًا، ولهذا غالبًا ما يموت أبطال مالرو. ويتذكر حين التقى بستالين في موسكو أن الزعيم السوفيتي قال له: "إن الذي سينتصر في النهاية هو الموت". وحين تنشب الحرب الأهلية الإسبانية عام 1936م يسارع إلى الانضمام في صفوف الجمهوريين، ويقود الطائرة في معركة مدريد، لكن طائرته تسقط ويصاب بجروح بليغة ينتقل بعدها إلى المعركة الإعلامية. في مطلع الحرب العالمية الثانية يقع في الأسر، لكنه يهرب من السجن بمساعدة قدمها له ديغول، يكتب روايته الشهيرة (الأمل)، الأمل بانتصار الإنسان على القوى الفاشية، لكن التساؤل الأهم كان عن جدوى الحرب، ولماذا يدفع الإنسان ثمن تهور الطغاة.

رواية (الأمل) وحدها ضربت الرقم القياسي في المبيعات، وتناولت الحرب الأهلية في إسبانيا، حيث الثورة على الوضع القائم هي بطلة الرواية، وقد أثرت تلك الحرب على مالرو كثيرًا: "إسبانيا ليلاً مليئة بالغناء، الصراخ والطلقات النارية والألم". لا مكان في هذه الرواية لحكايات الفرد، إنما هي نشيد للخلاص الجماعي: "أنتم تريدون أن تكونوا شيئًا ما، إنها مأساة كل الحروب التي تتغذى على حياتنا". يسأله أندريه جيد: "لا يوجد أغبياء في رواياتك"، فيجيبه: "إنني لا أكتب لكي أثير الملل في النفوس، أما عن الأغبياء فهناك الكثير منهم في حياتنا اليومية".

عاش مالرو أكثر من حياة، فهو المراهق الذي قرر أن ينضم إلى ثورة الفيتناميين على بلاده، وهو الطيار الذي قام ببعثة استكشاف في الجزيرة العربية، وهو الحائز على جائزة غونكور الأدبية، وهو الكولونيل بيرجيه في المقاومة الفرنسية، وهو الطيار الذي قاتل إلى جانب الجمهوريين في الحرب

الإسبانية، وهو الرفيق كيو في الثورة الصينية، وهو صديق نهرو وجاكلين كنيدي، وهو السينمائي الذي أخرج فيلمًا عن مآسي الحروب، وهو المبعوث الدولي من اللجنة المناهضة الفاشية، وهو وزير ثقافة ديغول، وهو قاطع المسافات متنقلاً من أفغانستان إلى الهند إلى بلاد فارس إلى اليابان إلى مصر إلى أميركا ليسجل أول كتاب رحلات بعنوان (الطريق الملكية).

***

كان في الحادية والعشرين حين التقى لأول مرة أندريه جيد، الذي قال له بعد سنوات: "هل تتذكر حوارنا الأول؟ لقد تعلمت منه الشيء الكثير".

في شبابه حلم أن يكون طيارًا، لكنه وبعد أن أهداه أستاذه بول فاليري كتاب (المقامر) لدستويفسكي قرر أن يصبح كاتبًا: "هذا الكتاب كشف لي كيف يمكن للإنسان أن يقامر بكل شيء من أجل أن يمسك المستحيل"، وكان المستحيل بالنسبة إليه أن يترك كل هواياته ومشاغله اليومية لينضمّ إلى فيلق الثوار، ولينحاز إلى مصائر البشر العاديين، وفي رواياته (قدر الإنسان) و (الوضع البشري) و (الأمل) يرصد التغيير الاجتماعي والسياسي في منتصف القرن الماضي، وكيف تحولت الحياة إلى رعب وموت ودمار. ولهذا ينصح قرّاءه بأن يصروا على تحقيق الأمل. قارئ صيني قصده يوم كان وزيرًا للثقافة، قال له إن ما كتبه عن الأمل لم يتحقق، يمشي معه إلى باب مكتبه، وهو يقول له: لم يعد اليأس واردًا.

لقد هزّه إصرار نهرو وهدوؤه وموهبته في إسكات ما يسميه "قطيع البشر". يقول له نهرو وهما يتجولان في شوارع الهند: "قيل إن اللاعنف خرافة، لكنه هنا هو الوسيلة الوحيدة للنضال". ثم يضيف أثناء الحديث: "كنت أذكر دائمًا ما يقوله المهاتما غاندي: لا يمكن أن يظهر الله حيث تكون الكراهية والخوف".

قبل أشهر استرجعت ذكريات جميلة وأنا أعيد قراءة طبعة جديدة من كتاب (لا مذكرات) لأندريه مالرو، وهي ليست المرة الأولى التي اقتني فيها هذا السِّفر العجيب. ففي منتصف السبعينيات كنت ما أزال في سنة أولى قراءة - على حد تعبير شيخ صحفيي العرب مصطفى أمين - حين قرأته، وكان هو ومذكرات نيرودا (أشهد أنني قد عشت) و (داغستان بلدي) لرسول حمزاتوف أبرز ثلاث سير حياتية أثّرت بجيل كامل من المثقفين العراقيين.

حين وقف مالرو أمام ديغول يؤدي اليمين باعتباره وزيرًا للثقافة، بادره الأخير بالقول: "المستقبل أولاً"، وكان ذلك بالنسبة لمالرو مفاجأة. فهو كان يريد ان يقول للجنرال إنه خاض معارك من أجل العدالة الاجتماعية، وذهب مع أندريه جيد إلى برلين ليحتج في ساحاتها على إرهاب هتلر لأوروبا، وشكّل مع رومان رولان اللجنة العالمية المعادية للفاشية، وقاد طائرة للدفاع عن إسبانيا الجمهورية، وشارك الصينيين ثورتهم، وأنه منذ عامه العشرين انطلق خارج فرنسا باحثًا عن المغامرة الإنسانية.

يحيلنا مالرو، الذي دعاه البعض بملهم المقاومة الفرنسية إلى فكرة المثقف الملتزم، الذي ينقض المصلحة الأنانية بمثال أخلاقي مرغوب: "على المثقف، كي يكون كما يجب، أن يواجه المجتمع المسيطر ببديل اجتماعي متحرّر من السيطرة، يتيح للإنسان، مهما كان لونه ووضعه ومعتقده، حياة مبرّأة من القمع والحرمان".

في باريس التي عاد إليها جريحا يسأله ألبير كامو: "هل سنضطر يومًا لأن نختار بين روسيا وأميركا؟"، فيجيب بحدة: "الاختيار لن يكون إلا بين فرنسا قوية وفرنسا ضعيفة مستباحة مهانة تبحث عمن يحميها".

يقول الجنرال ديغول لصاحب (الوضع البشري): "بيني وبينك، هل

نستطيع أن نعيد الأمل إلى نفوس الناس؟"

ويرد مالرو: "أتذكر أنّ غاندي قال لي يومًا: أفضل للإنسان أن يناضل من أن يخاف. المهم أن نربح الحياة".

أتصفح كتاب مالرو وتقع عيناي على جملته الشهيرة "ترى في أي عالم من الفوضى سنعيش لو لم يكتشف الإنسان الحرية؟"، وتأخذني هذه الجملة إلى حيث يقول بطل رواية (الأمل): "تسألينني عن الحرية.. إنها موجودة في كل فعل نقوم به، شريطة أن يكون فعلاً من أجل الناس".

أصبح كتاب (اللامذكرات) إنجيل الثوريين في القرن الماضي، ونال الاحترام النقدي أيضًا بعد إقبال الأكاديميين على دراسته ومعرفة كيف كان يفكر أحد أبرز عقول فرنسا، الطيار الشاب الذي مجّد النضال، وأحب الحياة ثوريًا وشطب المستحيل من حياته، كما يشطب جملة غير ملائمة، ولم يُطِل التفكير حين قرر أن ينضم إلى صناع المستقبل.

***

يظل كتاب (سقوط السنديان) الذي ترجمه إلى العربية سامي الجندي هو الكتاب الذي يلقي الضوء على العلاقة بين السياسي والمثقف، وقد أراد فيه مالرو أن يسجل الكلمات الأخيرة للجنرال الذي شاء أن يختار من بين أدباء فرنسا ومثقفيها من يكون، كما كان شاتوبريان لنابليون بونابرت. ويذكر ديغول في مذكراته أنه وسّط بعض الأصدقاء للتعرف على مالرو، ويتندر مالرو وهو يجيب على سؤال لصحفي حول اللقاء الأول مع ديغول فيقول: إنه حب من أول نظرة، وجدت بطلي ووجد هو كاتبه المفضل، وفي السيرة التي أصدرها غايتان بيكون وترجمتها إلى العربية أميرة الزين نقرأ كلامًا على لسان ابنة مالرو تقول فيه إن والدها لم يحب في حياته سوى امرأة واحدة حتى الجنون: ديغول.

***

كانون الثاني 1969م، كان ديغول قد رضخ لتظاهرات الشباب، وقرر أن يقدّم استقالته وينفي نفسه إلى قرية في الجنوب كي يكون بعيدًا عن مجرى الأحداث. هناك يكتب في مقدمة مذكراته: "لا شيء أهم من فرنسا مستقرة". كان لا يملك أكثر من أن يمازح الفلاحين حول محاصيلهم، ويجلس ليسطر أهم ما خطّه سياسي في التاريخ، مذكراته التي أسماها (مذكرات الأمل)، يدخل عليه أندريه مالرو ليجده جالسًا إلى طاولة عليها أوراق متناثرة، يكتشف وهو يصافحه كم هما صغيرتان يداه وناعمتان، تذكرانه بيدي ماوتسي تونغ، يقول له إن الجميع يتساءلون ماذا سيفعل بعد الرحيل، يخبره الجنرال أن الأمر انتهى. يتذكر لقاءه الأول معه في أحد الخنادق، آنذاك سأله: "ماذا يريد الفرنسيون؟ هل يريدون أن يبعثوا الحياة في فرنسا أم يناموا؟ فأنا لن أبنيها من دونهم". يتذكر أنه ذهب ذات يوم ليعرف ماذا يريد تروتسكي، فوجد البيت صامتًا إلا من الجرائد التي تزدحم بها المنضدة والكتب التي تناثرت على الأرض، وحين سأله ماذا يريد أجاب تروتسكي: "هذا السؤال تطرحه على الشخص الآخر"، ويقصد ستالين. لا يزال يتذكر تلك الجملة الرائعة التي قالها له الجنرال قبل ربع قرن: "إنني أضع خططي من أحلام جنودي النائمين"، وحين يعيد عليه السؤال: ماذا تريد؟ يجيب الجنرال العجوز: "أريد أن أكتب تاريخ الأوهام. إن السياسة هي فن وضع الأوهام في مكانها، إنك إذا خضعت للأوهام لم تستطع فعل أي شيء جديد".

***

بعد عشر دقائق من إعلان خبر وفاة الجنرال ديغول، كان مالرو يحث الخطى باتجاه القرية التي قرر أن يقضي فيها آخر سنيّ حياته، يرى النسوة دامعات العيون أمام البيت، وفي بكين يعلن ماوتسي تونغ تنكيس الأعلام،

وفي قصر بكنغهام تقرر الملكة إليزابيث إلغاء جميع مواعيدها والسفر إلى باريس لإلقاء النظرة الأخيرة على صديق عزيز. راديو فرنسا يعلن أن هناك حشودًا صامتة تقطع الطريق بين الشانزليزيه والقصر الحكومي، قوس النصر يغص بالنسوة اللواتي يحملن الزهور، امرأة تقول لأحد الجنود: "خسارة أنه لن يرانا بعد اليوم".

كثيرون من الذين يتقدمون الجنازة في بطء كانوا من الذين خرجوا في تظاهرات 1968م التي طالبت باستقالته. الجميع يرمون زهورهم باتجاه الرجل الذي قال ذات يوم: "عندما تبحث عن قرارك انظر في عيون الأطفال."

(11)
في الطريق إلى شقة دستويفسكي

في الثالث من تشرين الأول عام 1866م، اقترب منها معلمها ليخبرها أن هناك كاتبًا يعاني من أمراض عدة، وهو بحاجة إلى مساعدة كاتبة اختزال، من هو هذا الكاتب؟ سألت الشابة آنا جريجوريفنا، أجاب الأستاذ إنه فيدور دستويفسكي. لم تصدق أول الأمر أن الاسم الذي يقصده الأستاذ هو نفسه كاتبها المفضل الذي طالما ذرفت الدموع وهي تعيد قراءة (ذكريات من منزل الأموات)، وأنها كانت مغرمة بفرنكا بطلة قصته الأولى (الفقراء)، فهي مثلها تكتب رسائل لشخص مجهول تخبره أن حياتها تغيرت منذ أن توفي والدها، لتبدأ الخطوة الأولى لها في مسيرة الفقر ومخاطره وهمومه!

وفي صبيحة اليوم التالي استيقظت آنا جريجوريفنا على غير عادتها نشطة، كانت تنتظر هذا اليوم منذ شهور، أن تتحول من طالبة صغيرة إلى موظفة، غادرت البيت مبكرًا. كان لابد أن تمر على منزل صديقتها إيميليا لتخبرها أنها ستضع أولى خطواتها على سلّم الحياة، ولتغيظها أيضًا فهي ستلتقي وجهًا لوجه مع فيدور دستويفسكي الذي طالما تبادلت مع ايميليا كتبه.

في الساعة الحادية عشرة كانت تقف أمام الشقة 13 الواقعة في شارع بولشايا. ذكّرتها البناية بأحداث رواية (الجريمة والعقاب) التي كانت قد أتمت قراءتها قبل مدة. تتلفت حولها، ربما في واحدة من هذه الشقق سكنت ذات يوم العجوز إليونا القاسية الأنانية التي ظهرت فجأة في طريق

راسكولينكوف الذي شعر أمامها في لحظة أنها عقبة تقف في طريقه: " لم تكن العجوز إلا وعكة أردت أن أتخطاها مسرعًا قدر الإمكان، أنا لم أقتل العجوز، بل قتلت مبدأ".

تتذكر آنا جريجوريفنا أن والدها أعطاها يومًا مجلة الرسول الروسي، وفيها قرأت تلخيصًا قدّمه دستويفسكي لروايته الشهيرة هذه، حين كتب ردًا على تساؤلات القرّاء عن مغزى الجريمة قائلاً: "هذه الرواية إنما هي عرض سيكولوجي لجريمة... والحدث يدور في زمننا الراهن، أي في هذه السنة بالذات. أما صاحب الحدث فهو شاب طالب في الجامعة من أصول بورجوازية لكنه يعيش في فقر مدقع، لذلك يقرر، تحت تأثير بعض الأفكار الغريبة التي نراها رائجة هذه الأيام، أن يخرج بضربة واحدة من وضعه المزري: لقد قرّر أن يقتل امرأة عجوزًا، هي أرملة لمستشار وتعمل اليوم في الربا. والشاب ينطلق في مشروعه من تساؤلات لا ينفك يطرحها على نفسه: ما فائدة هذه المرأة؟ لماذا تراها تعيش؟ هل تنفع أحدًا في عيشها؟ وهو يؤمن أن في مقتل العجوز خلاص له وأداء واجب تجاه إخوته في الإنسانية، لقد شعر وهو يفك الساطور من الإبزيم بأنه لم تعد لديه لحظة يضيعها".

أخيرًا انتبهت آنا جريجوريفنا على صوت امرأة عجوز تقول لها: "تفضلي. ماذا تريدين؟"

للحظة تصورت أنها تقف أمام عجوز (الجريمة والعقاب) بشالها الأخضر وعينيها الماكرتين، وقبل أن تعيد الخادمة عليها السؤال أجابت بنبرة مترددة: "أنا قادمة من طرف السيد أولخين، وإن صاحب المنزل على علم بموعدي معه".

دعتها الخادمة للدخول، وبعد دقيقتين ظهر أمامها كاتبها المفضل الذي لم يترك لها فرصة أن تأخذ نفسها حيث سألها مباشرة: "هل أنت بارعة

بالاختزال؟" وقبل أن تجيب طرح عليها سؤالاً آخر: "منذ متى وأنت تعملين بهذه المهنة؟" لكنه أخيرًا تنبّه إلى أنها لم تجلس، فطلب منها أن تدخل معه غرفة مكتبه، وقال للخادمة: "احضري لنا الشاي".

***

كان الدائنون قد يئسوا من الحصول على أموالهم، فباعوها لناشر الكتب ستيلوفسكي الذي كان يأمل بالحصول من دستويفسكي على رواية جديدة شبيهة بالجريمة والعقاب التي حظيت بمبيعات جيدة. وفي ركن من المكتب، وعلى الأريكة المغطاة بقماش قديم مهترئ، كان ستيلوفيسكي يبرز كمبيالات الدائنين وهو يقول: "إنه العطف الذي أشعر به نحوك دفعني إلى شراء هذه الكمبيالات، رغم أنني أعتبر الصفقة خاسرة، فديونك ثلاثة آلاف روبل وهي قيمة أكثر من ثلاث روايات".

وقبل أن يجيب دستويفسكي يحكم الناشر الخبير خطته بأن يخرج نقودًا جديدة من جيب معطفه. يقلبها، وهو يقول: "وفوق هذا يمكن أن أدفع مئات الروبلات الجديدة بشرط". "ما الشرط؟"، قال دستويفسكي.

"نوقع عقدًا جديدًا بثلاث روايات جديدة خلال فترة عام واحد"، قال ستيلوفسكي.

"لكنه زمن قصير"، أجاب دستويفسكي.

"وأنا لا أستطيع أن أنتظر أكثر، هذه ليست أموالي، إنها أموال شركاء لي". قال ستيلوفسكي وهو يخرج من جيب معطفه الآخر أوراقًا يضعها على مفرش أحمر يغطي المنضدة المستديرة، وإلى جانبها أوراق الروبل الجديدة.

مد دستويفسكي يده إلى أوراق الروبل التي سحبها الناشر بخفة، ليقدم له العقد وهو يقول: "أرأيت رقة قلبي، وما فطرت عليه من رحمة؟"

"لكنك أفّاق كبير"، قال له دستويفسكي.

"وناشر شاطر ستوافق على شروطه لأنك لا تريد أن تدخل السجن ثانية". كانت كلمة السجن تثير الرعب في نفس دستويفسكي، فهو ما يزال يتذكر صبيحة الحادي والعشرين من كانون الأول عام 1849م. حين أغمض عينيه، إنه السادس في ترتيب تنفيذ حكم الإعدام، الدور القادم سيكون دوره، فبعد خمس دقائق لن يعود موجودًا، أثناء ذلك يوجّه الجنود بنادقهم إلى الأعمدة التي ربط عليها زملاؤه، يسود صمت يثير الحزن ينطلق صوت: "نار". ستنهار تلك الأجساد الثلاثة على الأرض، وسينتقل هو إلى واحد من هذه الأعمدة، ولكن مرت ثوانٍ ثقيلة ولم تُطلق النار. وبخوفٍ يتلفّت حوله لكي يرى ماذا يحدث، كان هناك أحد الجنود يلوّح بمنديل أبيض إعلانًا بالتوقف عن التنفيذ، لقد قرّر صاحب الجلالة القيصر منحهم الرحمة وإبدال الإعدام بالسجن مع الأشغال الشاقة. وأخيرًا نجا من الموت، وسيقول لآنا جريجوريفنا بعد عشرين عامًا : "إني لا أذكر يومًا شعرت فيه بمثل تلك السعادة."

كان يرتعش وهو يتذكر تلك الأيام، لاحظ ستيلوفسكي تغير وجهه، للحظات أصيب برعب وهو يرى دستويفسكي يمتقع لونه ولربما سيصاب بنوبة من نوبات صرعه، كان يعرف أن كاتبه المفضل مريض منذ زمن طويل.

"ليست لدي شروط ما عدا أن تقدّم لي رواية بـ 400 صفحة"، قال ستيلوفسكي ليخرج دستويفسكي من حالة الشرود التي سيطرت عليه.

" لكن لا أفكار جديدة عندي، ولا أستطيع أن أعدك بشيء".

"يا للخسارة! لقد تصورت أنك بأمسّ الحاجة إلى النقود"، قالها وهو يمد يده إلى النقود ليعيد وضعها في جيب معطفه.

"حسنًا، رواية بأربعمئة صفحة فقط".

"وهذا ما أطلبه الآن"، قالها ستيلوفسكي وهو يقدم له العقد الذي كان من أبرز شروطه أن المؤلف مطالب بأن يقدم خلال شهر تشرين الثاني، رواية جديدة لا تقلّ عدد صفحاتها عن أربعمئة صفحة.

***

"كم أنجزنا من الصفحات؟"، سألها دستويفسكي ذات يوم.

كان العمل قد انتظم برواية (المقامر)، وأخذ دستويفسكي يطمئن بأن الرواية ستسلّم في موعدها المحدد. كان يشعر بمتعة غريبة وهو يعمل إلى جانب هذه الفتاة الشابة، التي ستكون يومًا بطلة قصة حياته الحقيقية. كان يملي عليها قصة غرام ألكسي إيفانوفيتش بالشابة الجميلة بولين سوسولوفا، فتاة بالغة العذوبة يقع في غرامها رجل مقامر، يضيف إلى بطلة الرواية بعضًا من ملامح آنا جريجوريفنا. كانت هي تصغي إليه وتحاول أن تتخيّل بطل الرواية يقع في غرامها. إنه يقول لها: "في حضورك أفقد كل كرامتي". وحين يصل دستوفيسكي إلى السطور التي يقول فيها إيفانوفيتش: "ضممتها بين ذراعي، قبّلت يديها وقدميها، وجثوت على ركبتي أمامها". تكتب آنا جريجوريفنا في مذكراتها: "بعد أشهر وجدت دستويفسكي وهو يعيد مشهد المعلم أليكسي إيفانوفيتش، وقع عند قدمي مقبلاً، ضامًا إليه ركبتي وهو ينتحب بصوت عالٍ، لا أتخيل أن بمقدوري أن أفقدك".

بتاريخ 30 تشرين الأول عام 1866م، وبعد خمسة وعشرين يومًا من العمل المتواصل، أصبحت (المقامر) جاهزة للطبع. وفي اليوم الأول من تشرين الثاني وحسب الموعد المحدد، ذهب دستويفسكي لمقابلة ستيلوفسكي وتسليمه مخطوطة الرواية.

كان قد اعتاد على فتاة الاختزال والتي أصبحت تناقشه بشؤون أبطال رواياته بحماسة، كانت فكرة فراقها تؤرقه وسألها ذات يوم: "ضعي نفسك

مكان بطلة قصة المقامر لدقيقة واحدة، وافترضي أن إيفانوفيتش هو أنا وأني أبوح لك بحبي، وأني أطلب منك أن تكوني زوجتي. قولي بماذا يمكن أن تجيبي؟"

كان منزعجًا من جرأته، وخائفًا أن تفسد كلماته هذه الصداقة اللطيفة، ولم يكن يتوقع أن موظفة الاختزال ستنظر إلى عينيه بهدوء، ثم تقول له بكل بساطة: "سأجيبك بأني أحبك، وأني سأظل أحبك طوال حياتي".

***

لعب دستويفسكي في حياتي دورًا حاسمًا، فمنذ أن قرأت له لأول مرة رواية (الأبله) بترجمة العبقري سامي الدروبي، أثار فيّ من الحماسة والنشوة للقراءة ما لم يثره كاتب آخر. ولا أزال أتذكر اللحظة الأولى التي قرأت فيها (الأبله)، وأتمثل السطور الأولى من الرواية التي لا تزال تسحرني: "في صباح من صباحات تشرين الثاني، في نحو التاسعة أثناء ذوبان الجليد كان قطار وارسو يقترب من بطرسبورغ". وما من مرة قرأت دستويفسكي إلا تكشّف لي وجه الأمير مشكين، صدمني هذا البطل الطيب إلى درجة أنني كنت أبحث عنه في وجوه جميع الذين التقي بهم، بل حاولت أن أضع شيئًا منه في شخصيتي، لكني فشلت.

في شباط من عام 1967م يكتب دستويفسكي رسالة إلى أخيه يقول فيها: "إن فكرة الرواية هي فكرتي المفضلة القديمة، لكنها من الصعوبة بحيث إنني لم أجرؤ على محاولة تنفيذها لزمن طويل. الفكرة الرئيسية هي تصوير الرجل الطيب الفعال، وليس على الأرض ما هو أصعب من هذا، خصوصًا في أيامنا الحاضرة، فكل الكتّاب الذين تصدّروا لتصوير الإنسان الطيب قصّروا دائمًا في غاياتهم، والسبب أن هذا عمل بلا حدود، ولا شك أن ظهور هذا الشخص الطيب طيبة لا تُقاس ولا تُستنفد ليس إلا معجزة. دون كيشوت

وحده بين أشخاص الأدب الطيبين أكثرهم إتقانًا، لكنه طيب لا لشيء، إلا لأنه مهرج أيضًا، كما أن بيكوك الذي ابتدعه ديكنز يدعو أيضًا إلى السخرية، جان فالجان فكتور هيجو أيضًا يمثل إحدى المحاولات القوية، لكنه يبعث على الشفقة والعطف من جراء حظه شديد السوء وظلم المجتمع له، ليس في روايتي شيء من هذا القبيل مطلقًا، ولهذا فإنني شديد الخشية من أن تفشل فشلاً ذريعًا".

كان ديستويفسكي يشعر بأن القرّاء خذلوه في رواية (المقامر)، والمبلغ الذي حصل عليه من الناشر تقلص كثيرًا بسبب الديون المتراكمة. ولاحظ أن زوجته حامل، وقرر أن المولود سيكون بنتًا وأنه سيسميها إيمي، وأخفى عن آنا جريجوريفنا رواية (الحرب والسلام) التي صدرت حديثًا، لأن تولستوي يروي فيها احتضار الأميرة بولكونسكي أثناء الولادة.

الأمير مشكين المصاب بالصرع يعود من عيادة في سويسرا حيث يعالج من مرض الصرع، وهو يتيم ولا يملك شيئًا سوى صرة ملابس هزيلة، ولا يعرف شيئًا من أمور الحياة. وقد قال له الطبيب: "لقد حصلت لدي قناعة تامة بأنك طفل حقيقي"، هذا الطفل الذي بلغ السادسة والعشرين من العمر مهذب خجول طيب القلب وساذج، وقد انقضت حياته في تأملات داخلية، وعندما صدرت (الأبله) أربك بطلها النقاد وحيرهم. يقول تورجنيف لأحد النقاد: "يا إلهي! ما الذي لم يقله السيد دستويفسكي في هذه الرواية التي هي في الحقيقة أشبه بكتاب اعترافات؟"

في (الأبله) يستعير دستويفسكي حياته أكثر من أي رواية أخرى له، ويروي فيها على لسان بطله كيف وقف على منصة مرتفعة وهو في الثامنة والعشرين، واعتقد أنه بقيت له من الحياة ثلاث دقائق لا أكثر.

***

أمضى المترجم السوري الكبير سامي الدروبي عشرين عامًا في ترجمة أكثر من عشرة آلاف صفحة من أعمال دستويفسكي إلى العربية، وكنا نحن القرّاء نرى من خلال هذا الدبلوماسي السوري معالم الدنيا في عناوين دوستويفسكي: (مذلّون مهانون)، و (ليالٍ بيضاء) و (الإخوة كارامازوف) التي تطرح ذلك السؤال: من هو المجرم الحقيقي، المحرِّض أم القاتل؟

ويشير سامي الدروبي، في لقاء أجراه معه أحمد بهاء الدين ضمن زاوية (زيارة إلى مكتبة) عندما كان الدروبي سفيرًا لسوريا في القاهرة، أن علاقته بأعمال دوستويفسكي بدأت عندما كان في الثامنة عشرة. ويضيف: "شعرت أن بيني وبينه أنسابًا روحية، ووجدت نفسي فيه، وصرت أتحرك في عالمه كتحركي في بيتي، وأعرف شخوصه معرفة أصدقاء طالت صحبتي معهم، حتى لأكاد أحاورهم همسًا في بعض الأحيان". ويستشهد بقول لنيتشه: "دوستويفسكي هو الوحيد الذي علمني شيئًا عن النفس الإنسانية."

وتروي زوجة الدروبي أنها كانت برفقة زوجها في زيارة إلى موسكو. وخلال جولة في شوارع المدينة، أشار سامي إلى جسر مرّا بقربه، وقال: "هذا الجسر ذكره دوستويفسكي في قصة الليالي البيضاء". وفي شارع آخر، وقف يتأمل بيتًا ثم علّق: "أظن أن رواية الجريمة والعقاب حدثت في هذا المنزل".

في ليلة الثاني عشر من شباط عام 1976م، كانت عينا سامي الدروبي ترنوان إلى مكتبته حيث كتبه التي ترجمها إلى العربية، والتي بلغت ثمانين كتابًا بأكثر من 40 ألف صفحة. كان يعاني من ضيق في التنفس، ويمشي بصعوبة باتجاه المكتبة ليراجع معجمًا بحثًا عن كلمة تقلقه، ولم يدرِ أنها آخر اللحظات في حياته، حيث وجدته زوجته ملقى على الأرض والمعجم بالقرب من رأسه، وكانت هناك أربعون صفحة من الجزء الثاني من (الحرب والسلام) لم تترجم بعد.

(12)

النساء مثل الروايات، لابد أن تجد نهاية لعقدتها

في السادسة عشرة من عمره ذهب إلى باريس أول مرة. حاول أن يقنع والده إنّ في مقدوره أن يصبح كاتبًا مسرحيًا، لكن الأب المحامي كان يجد في ولده القبيح صورة للبؤس الذي عاش فيه مع والدته، التي كان يصفها بالماكرة والحقودة. فوجد الفتى في جدّه أبًا آخر يشجعه على حب الأدب والفن. في باريس، المدينة الضاجّة، اكتشف أن وظيفته الأهم أن يصبح عاشقًا كبيرًا. لم يكن سوى شخص بدين، يخفي صلعته، يفتقر إلى اللياقة الاجتماعية. نرجسيًا متفاخرًا بنفسه، يصنع الأكاذيب والأسماء المستعارة. اعتبر أن الفوز بامرأة مثل الانتصار في معركة عسكرية. قال يومًا لبلزاك: "إن النساء مثل الروايات، لابد أن تجد نهاية لعقدتها". في باريس، يلتقي بممثلة مغمورة تكبره بثلاثة أعوام، يصاب من ورائها بمرض تناسلي عانى منه حتى آخر يوم في حياته. صار جمهوريًا متحمسًا لأن والده من أنصار الملكية، كان في الرابعة عشرة من عمره حين قرر الانضمام إلى إحدى الجماعات الثورية، وهناك يصاب بصدمة. فقد كان يتوقع أن الثوار مجموعة شباب وسيمين وفتيات متأنقات، لكنه وجد عمالاً تفوح منهم روائح التبغ والعرق، بعد ذلك يكتب في مذكراته: "كنت وما أزال أحب الشعب وأكره جلاديه، ولكني سأتعذب عذابًا كبيرًا إذا أنا عشت مع الشعب، لقد كنت وما زلت ذا ميول أرستقراطية للغاية، إنني على استعداد للقيام بأي شيء من أجل إسعاد الشعب، ولكني أفضل أن أقضي أسبوعين في السجن على أن أعيش مع

أصحاب الحوانيت".

في أواخر أيام حياته أصيب بسكتة دماغية جعلته يفقد النطق، بعد حياة اتسمت بالرفاهية وبالعلاقات الغرامية. وتوفي وحيدًا في غرفة فندق، ولم يمش في جنازته سوى ثلاثة أشخاص كان بلزاك أحدهم.

لكن ماري - هنري بيل الذي اتخذ مئتي اسم مستعار، كان أشهرها "ستندال" يُقرأ اليوم في العالم أكثر من كل كتّاب فرنسا. تكتب ناتالي ساروت: "ليس لنا الآن سوى أستاذ واحد هو ستندال الذي يشكل عمله باتفاق الجميع بشيرًا بالرواية الجديدة. إن ستندال يجلجل كما لا يفعل أي روائي آخر".

***

جلس ليكتب رواية تدور في بلدته التي ولد فيها، لكن باريس فرضت نفسها عليه. كان الظلام يسود الشقة الصغيرة في شارع ريشيلو، هناك شمعتان تضيئان المكتب، الآن شعر بالتعب، فأبعد الريشة وهو يقول لنفسه: "حسبي اليوم هذه الصفحات، والان إلى الانتعاش والخروج". ينهض ليرتدي ثيابه، نظرة سريعة إلى المرآة، يا له من وجه كوجه الكلاب - يخاطب نفسه - وجه أحمر خشن يفتقر إلى الرقّة، الأنف مكور كبصلة، العينان على جانب كبير من القبح، فوقهما حواجب ثقيلة. ماذا بقى في هذا الوجه من خصلة جميلة؟ - سأل نفسه - وتذكر أن بطل روايته الجديدة جوليان سوريل، شاب جميل تعشقه النساء. التفت ناحية الأوراق المتناثرة على المكتب، كم تمنّى أن يصحو يومًا فيجد نفسه وقد تحول إلى جوليان آخر، بلا كرش منتفخ وساقين مفرطتين في القصر. كان زملاؤه في المدرسة يسمونه "البرج المتنقل"، لكن الكتابة أصبحت شيئًا ثقيلاً، طقسًا بطيئًا يدوم كل يوم من الصباح حتى ساعات الغروب الأولى. منذ ستة أسابيع لم يكتب سوى صفحات قليلة من

هذا العمل المتعب (الأحمر والأسود). كان والده يريد منه أن يصبح محاميًا، ولم ينقذه من هذا المصير سوى وفاة والدته. يكتب في مذكراته أن طفولته كانت تعيسة بسبب تزمّت والده الذي كان يرفض الاختلاط. أحبّ نابليون وقرر أن يشارك في حملته على إيطاليا، عهد إليه في مهمة بكتيبة الفرسان، لكنه تركها ما أن وصل إلى ميلانو التي سحرته مباهجها. لم يشهد أية عملية حربية، لكنه يكتب بعد ذلك واحدة من أجمل روايات الحرب، رائعته (دير بارما) التي تعد مع ملحمة تولستوي (الحرب والسلام) من أهم الأعمال النثرية التي جعلت من الحرب منطلقًا لقصة عميقة الفعل في النفس، حسب ما قاله جبرا إبراهيم جبرا في مقال عن أدب الحرب. لم يستقبل الفرنسيون رواية ستندال بمثل ما استقبل الروس رواية تولستوي. كتب ستندال (دير بارما) أواخر حياته، وفيها قدّم شهادته على الأحداث الكبرى التي عايشها، وموقف المثقف من حروب نابليون، وعن خيبة أمله بالثورة التي قامت عام 1830م. في الرواية، نحن إزاء أبطال يخبروننا أن لا أحزاب حقيقية هناك، والناس صامتون قانعون بمصيرهم، أما أصحاب السلطة فإن لديهم من الثروات ما يكفي للتحكم بمصائر البشر. وعلى عكس تولستوي، يتعمق ستندال في مناقشة واقع السلطة من جوانبها الأكثر دناءة وحقارة: "بصفتها سخافة ترعب من جهة أولئك الذين يمارسونها، ومن جهة ثانية تمثل تهديدًا دائمًا للناس الأذكياء، فيما هي من الجهة الثالثة تمثل إفسادًا للناس الضعفاء".

في أيلول من عام 1840م، وقبل وفاة ستندال بعامين، يكتب بلزاك مقالاً حماسيًا عن رواية (دير بارما). كان ستندال آنذاك يعاني من الأمراض، لكنه يصر أن ينشر ردًا على مقالة الروائي الشهير يوضح فيها منهجه الأدبي. يعلن بلزاك أن ستندال تربّع على عرش الرواية، وهو يقدّم تلك الشخصيات اللامعة التي خرجت إلى الحياة بكل رحابتها. أعجب بلزاك بالقوة والحيوية

التي صاغ بها ستندال شخصيات روايته، ويرد ستندال أن الأبطال لا يشغلونه في الرواية، ما يشغله هو الأفكار التي تحركهم.

***

كان عمره ستة عشر عامًا حين أهداه والده نسخة من كتاب (الأحمر والأسود)، تعلّق بشخصية جوليان سوريل، وحلم ذات يوم أن يصبح مثله شغوفًا بالقراءة والمغامرات. قرّر عندما يكبر أن يكتب رواية يرسم فيها صورة بطل جديد على غرار بطل ستندال، فكان هولدن كولفيلد بطل (الحارس في حقل الشوفان) رمزًا لتمرد المراهقة.

خدم جيروم سالنجر في فرقة للمشاة، وشارك في النزول على النورماندي. حمل في حقيبته العسكرية فصولاً من (الحارس في حقل الشوفان)، وكان يطلب مرارًا من سائق الشاحنة التوقف ليجلس إلى جانب الطريق ويكتب الفصول المتبقية. في باريس، يلتقي بإرنست همنغواي الذي كان قد قرأ له بعض القصص القصيرة، وقرر أن يجري معه حوارًا. قال للمراسل الحربي همنغواي إنه مشغول بكتابة رواية ربما تغير حياته، وإنه أمضى سنوات في التخطيط لها. قال له همنغواي بعد أن قرأ فصولاً من حقل الشوفان: "إن لديك موهبة هائلة فلا تضيعها".

يشكو بطل الحارس في حقل الشوفان من غياب الصدق والبراءة، وهو مسكون بموت شقيقه الأكبر ويعطف على شقيقته الصغرى التي تنقذه في النهاية من الضياع. باعت الرواية أكثر من خمسة ملايين نسخة، وسجلت لسنوات على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في أميركا.

بعد (الحارس في حقل الشوفان) امتنع سالنجر عن النشر. كان يعتقد أن عدم النشر يعني سلامًا روحيًا، فهو يحب أن يكتب لنفسه وأن يتمتع وحده بما يكتب. يقول في حوار أُجري معه قبل وفاته بأشهر: "ألم يكن ستندال

يترفع على النشر، وكان يخبئ أوراق (الأحمر والأسود) عن عيون معارفه؟ إنّها حياته الثانية وأسراره الشخصية التي يجب ألا يعرفها أحد".

كان والد سالنجر تاجرًا ثريًا، وصمم أن يصبح ابنه تاجرًا أيضًا. لم يفلح في المدرسة حيث طرد منها ليدخل عالم الجيش، تعلّم أن يعامل أصدقاءه كأنهم شخصيات في رواياته. قال لهمنغواي إن ستندال كان يسجّل حركات أصحابه وحتى همساتهم، ليضعها بين سطور رواياته. تمنى أن يختار اسمًا مستعارًا مثل كاتبه المفضل.

***

جوليان سوريل بطل (الأحمر والأسود) شاب طموح عنيف المشاعر، ابن لبرجوازي صغير، تدفعه الظروف إلى أن يدخل سلك الرهبنة الذي يتيح له فرصة التأمل، لا سيما بعد هزيمة جيش الإمبراطور نابليون بطله المثالي خلال جميع مراحل العمل. خلال دراسته وتهيئته ليصبح قسًا، يعرض عليه محافظ بلدته السيد دي رينال تدريس أبنائه. يرى جوليان في هذا العمل فرصته للدخول إلى الطبقة الأرستقراطية، وبلا تردد يعمل على إغواء زوجة دي رينال، لتأكيد قناعاته تجاه نفسه وشعوره بأن هذا الواجب يحقق له جزءًا من السمو والارتقاء.

ينجح في مسعاه ويصبح الاثنان عاشقين. يشيع أعداء المحافظ الأقاويل حول غراميات السيدة دي رينال مع الشاب جوليان. ولتجنب الفضيحة ينقل الشاب إلى دير بيزانسون. وفي الدير يستطيع جوليان أن يحظى بإعجاب مديره جيرارد الذي يشجعه ويدعمه ليكون كاهنًا نظرا لمثابرته وتميزه على أقرانه.

ومع تجاوزه لزملائه في تحصيله يثير حفيظة القساوسة والتلاميذ على حد سواء، وحينما يقدم المدير استقالته نظرًا لعزوفه عن مشاركة الكنيسة

في المؤامرات السياسية، يدرك بأن جوليان سيفقد حمايته، وعليه يرشحه لصديقه الماركيز دومول ليكون سكرتيره الخاص.

وسرعان ما يدرك جوليان بأن منصبه الجديد سيساعده ثانية على دخول أوساط النبلاء الذين كانوا يصرون على تجاهله، وعليه لم يتردد في اغتنام الفرصة الجديدة حينما أظهرت ابنة الماركيز ماتيلدا إعجابها به. وعندما تكاشف ماتيلدا والدها بأنها حامل من جوليان، يرضخ لطلبها بأن يمنح حبيبها لقبًا رفيعًا، وأن يبارك زواجهما نظرًا لحبه الشديد لها.

وما أن يشعر جوليان بأنه كاد يحقق حلمه بالكامل، حتى تصل رسالة من السيدة دي رينال إلى الماركيز تخبره فيها بأنه شخص انتهازي ودون جوان وضيع، ولا هدف له سوى جمع الثروة. وهكذا ينهار حلمه، مما يثير غضبه ويدفعه إلى التوجه مباشرة إلى بيت دي رينال، وبلا تردد يطلق رصاص مسدسه على السيدة دي رينال التي تنجو بأعجوبة، لكن المحكمة تصدر عليه حكمًا بالإعدام. وفي المرافعة، تصل حبكة القصة إلى ذروتها حيث يكشف ستاندال عن واقع المجتمع الفرنسي في تلك الفترة من خلال خطاب جوليان الذي يبين بأن حكم الإعدام الجائر عليه إنما بهدف إجهاض حلم كل فرد في المجتمع من أبناء الطبقة الفقيرة من أن يرتقي في المجتمع. وقبل إعدامه، يكتب جوليان رسالة إلى خطيبته يخبرها فيها بأن حلمه كان مجرد طموح زائف جرّده من حياته الحقيقية، ويخبرها بأن حبّه للسيدة دي رينال كان صادقًا.

***

العام 1841 باريس

الرجل الضخم الجثة يجر قدميه بصعوبة. يتذكر تلك الأيام الجميلة حين كان يصوب بصره إلى النساء، أما الآن فالبصر تعبان واليد ضعيفة،

والعينان ترقدان خافتتين، شفته السفلى ترتعش، فقد أصيب قبل أيام بنوبة دماغية مؤلمة. لم تعد باريس كما كانت يوم وصلها وهو شاب صغير، تغيرت كثيرًا. ها هو الموت يتقرب إليه. ينقل نظراته المتعبة بين المتنزهين، يقترب من إحدى النساء التي تسأله وهي تبتسم عن مهنته، فيجيبها بصوت متقطع: "أنا مراقب القلب البشري"، وما أن يتركها ويسير خطوات حتى ينهار وقد جحظت عيناه وازرقّ وجهه، لقد أصابته النوبة من جديد، يتجمع المارة حوله، ثم يحملونه إلى غرفته في الفندق، حيث الأوراق تتوزع على المنضدة وعلى إحداها كتب: "12 أذار 1841، باريس، لا أجد شيئًا مضحكًا في أن أموت في الشارع، ما دمت لا أفعل ذلك عامدًا".

في اليوم التالي ينشر نعيه بستة أسطر فقط، فيما وصيته لم تكن سوى صندوق خشبي كبير طلب بأن ينقل إلى المكتبة العامة، هناك حيث يجد القائمون على المكتبة أكثر من أربعة آلاف ورقة تمثل سيرته التي كتبها منذ أن دخل باريس أول مرة، يكتب في إحدى الأوراق: "سأكون مشهورًا في 1880". يرثيه بلزاك في كلمات مؤثرة: "إن ستندال يكتب حسب ما يهبط عليه من إلهام، لكنه لا يريد أن يلهمنا، والأصح أنه يريدنا أن نتعلم، أن نرى في برود الشهوة نوعًا من الزهو الباطل، وأن العاطفة الحارة ما هي إلا زهو باطل يصل إلى درجة الجنون".

أحبّ ستندال النساء منذ طفولته، وقد كان يحب أن يتخيل نفسه منقذًا لامرأة مجهولة جميلة من الخطر. وحين وصل باريس كتب لأحد أصدقائه: "ما أبحث عنه هو امرأة ساحرة، وسوف أعبدها مثلما أجعلها تعرف أسرار روحي". وعندما تقدمت به السن كان يكتب في أوراق ملونة الأحرف الأولى من أسماء النساء اللواتي أحبّهن، لقد كانت النساء شغفه الرئيسي وجوهر حياته.

الصديق الرقيق للنساء، كما أطلقت عليه سيمون دي بوفوار، لم يكن يؤمن بالغموض النسوي، وكان يذوق متعة التأمل أمام المرأة، وهو مسحور بها كما يسحره المنظر الطبيعي أو اللوحة الفنية: "من المستحيل فهم رقة النساء وحساسيتهن وحرارتهن من غير أن يصبح الرجل بدوره ذا روح رقيقة وحساسة وملتهبة، فالعواطف النسائية تخلق عالمًا من ظلال الألوان ومتطلبات يكون اكتشافها مثريًا للرجل".

في تقديمه لكتاب روجيه غارودي الشهير (واقعية بلا ضفاف) يكتب أراغون: "إن رواية (الأحمر والأسود) تبدو لنا اليوم رواية شديدة المعاصرة". ويذهب أراغون أبعد من ذلك حين يؤكد: "إن ستاندال كان ماركسيًا سابقًا للماركسية، بمفهومها الفلسفي والسياسي والحياتي".

(13)

من يخاف فرجينيا وولف؟

في نهار من نهارات الحرب العالمية الثانية، أطفأت النور، وارتدت معطفها الشتوي الثقيل ليحميها من البرد. تركت ورقة لزوجها تخبره فيها بأن رحلتها هذه المرة ربما ستطول. أغلقت باب المنزل وراءها، وسارت باتجاه النهر. كانت متأكدة من أنها ستفعل شيئًا تتمناه منذ سنوات. الطائرات تحلّق بارتفاعات منخفضة، منذ الصباح والصداع يطحن رأسها، تناولت أكثر من حبّة مسكن، لكن يبدو أن الألم لا علاقة له بجسدها، إنه شيء خارج إرادة الطبيعة.

تساءلت وهي تنظر إلى فلاح يزرع أنواعًا من الخضراوات: "كم هو سعيد"، أصوات القنابل تأتي من مكان بعيد، بعد أكثر من ساعة سيعود زوجها ويسأل: "أين المدام؟" ستقول له فينسيا: "يبدو أنها خرجت كعادتها". تتخيّل أن زوجها لن يقرأ الرسالة وسيظل ينتظرها على الغداء، تصل إلى حافة النهر تخطو إلى الأمام، تمد يدها لكي تخلع حذاءها، لكنها في اللحظة تغيّر رأيها، لن تخلعه، الماء بارد لدرجة لا تحتمل. تتقدم ببطء، يرتطم حذاؤها بأحجار صغيرة، تفكر: هل هذه الأحجار يمكن أن تشبه الأحجار التي أثقلت بها جيوب معطفها؟ تفكر في الأطفال وفي زوجها الذي سينتظر على مائدة الغداء، أين المفر في كل هذا؟ هل كل ما هو مسموح لها أن تكون مجرد رقم في عائلة فشل كلّ أعضائها، أو ربّة بيت تتأكد من إطفاء الأنوار بعد نوم الصغار؟ فجأة تنتبه إلى الماء الذي غمر قدميها، تتخيل أنها تستدير فتخرج

الحجر من جيبها، وتعود مسرعة إلى البيت لتمزق الرسالة قبل أن يقرأها ليونارد. ترى ما الذي سيقوله وهو يقرأ سطورها الأخيرة: "أيها الأعز، لديّ يقين أنني أقترب من الجنون ثانية، وأشعر أننا لن نستطيع الصمود أمام الأوقات الرهيبة مجددًا، فلن أشفى هذه المرة، بدأت أسمع الأصوات، ولم يعد في وسعي التركيز، لهذا سأفعل الشيء الذي أظنه الأفضل. لقد وهبتني أعظم سعادة إلى أن ظهر هذا المرض اللعين، لقد كافحت طويلاً ولم يعد لدي المزيد من المقاومة. أعرف أنني أفسدت حياتك، لكنك في غيابي سيمكنك العمل، وسوف تواصل العمل، أعرف هذا. أنت ترى أنني لا يمكنني حتى كتابة هذه الرسالة على نحوٍ سليم، لم أعد أستطيع القراءة. ما أود أن أقول هو أنني أدين لك بكل سعادة مرت في حياتي، لقد كنت صبورًا إلى أقصى حد، وطيبًا على نحوٍ لا يصدق. أود أن أقول إذا كان ثمة من أنقذني فقد كان أنت. كل شيء ضاع مني إلا يقيني بطيبتك، لا أستطيع إفساد حياتك أكثر".

يجرفها تيار الماء بسرعة، تبدو كمن يطير في الهواء، ذراعاها تنفردان، شعرها ينساب، معطف الفراء ينتفخ، الحذاء يطفو على سطح النهر، تغمض عينيها للحظات. ربما لم تكن تريد حقًا الوصول إلى أي مكان. ربما كل ما كانت تريده هو أن ينتهي ذلك الصداع والآلام التي تغرقها في الظلام وعتم الجنون كل مساء. تتخيل ليوناردو يسرع راكضًا في أرجاء البيت وبيده الرسالة، يصطدم بالخادمة وهو يصرخ: "أظن حدثًا سيئًا وقع لوولف. ألم تشاهديها وهي تذهب؟ أي طريق سلكت؟" تبدأ الخادمة المسكينة بالصراخ والعويل، وتركض باتجاه الأطفال الذين عادوا من المدرسة، تفتح عينيها بصعوبة فلا ترى سوى دعائم الجسر التي سرعان ما يرتطم وجهها بها، لم تعد ترى شيئًا، الأصوات اختفت ومعها ذهب الصداع المزمن إلى غير رجعة.

* في أحد صباحات لندن الباردة العام 1932م، تصحو فرجينيا وولف على حلمٍ كئيب، لايزال يتكرر منذ أسابيع، سوف يقودها هذا الحلم فيما

بعد إلى أن تجلس لتكتب السطور الأولى من روايتها (السيدة دالاواي). منذ أشهر وهي حزينة تكافح من أجل السيطرة على عقلها الذاهب بقوة نحو الجنون.

* في أحد مساءات لوس أنجلس عام 1949م، تستيقظ السيدة لورا براون، تشعر باضطراب وإحباط، يتملّكها إحساس بالملل، تحاول أن تجد مبررًا لوجودها. كانت قد قررت أن تحضّر مفاجأة لزوجها الذي نسي أن اليوم عيد ميلاده، لكنها وسط كل هذا الاضطراب لا تستطيع التوقف عن قراءة رواية (السيدة دالاواي) لفرجينيا وولف.

* في العام 1995م، وفي نهار لندني مشمس، تستيقظ السيدة كلاريسا فون. اليوم تخطت الخمسين من عمرها، عليها أن تعدّ حفلاً لتكريم حبيبها ريتشارد، الشاعر الذي فاز بجائزة كبرى، لكنه يعيش محنة الموت البطيء إثر إصابته بالإيدز.

لقطات خاطفة للنساء الثلاث حاول من خلالها المؤلف البريطاني مايكل كننجهام في روايته (الساعات) الحائزة على جائزة بوليتزر عام 1999م أن يربط حيوات هؤلاء السيدات بخيوط تتقاطع مع رواية فرجينيا وولف (السيدة دالاواي)، فالكل يبحث عن لحظات الوجود الحقيقية، تلك اللحظات التي يحاول فيها الإنسان أن يقبض على لحظة من الزمن الحقيقي، أو يجد مبررًا لقبول حياته. فالحياة لا يجب أن تتحول إلى مجرد ساعات تنقضي هنا وهناك، بل لابد أن تتخللها ساعة تحنو فيها الحياة علينا، وتفتح لنا نافذة أمل، وتمنحنا بعضًا من الأشياء التي حلمنا بها. يقول البريطاني كننجهام في جواب على سؤال لماذا (السيدة دالاواي)؟

"قرأت (السيدة دالاواي) لأول مرة وأنا طالب ثانوي بالمدرسة. كنت بطريقة ما متكاسلاً عن الدراسة، لم أكن صبيًا من النوع الذي يختار كتابًا مثل

هذا ليقرأه. قرأته في محاولة يائسة لأثير إعجاب الفتاة التي كانت تقرأه في هذا الوقت. أردت، لأغراض عاطفية تمامًا، أن أبدو أكثر ثقافة مما أنا عليه". ويضيف من أجل هؤلاء الذين لا يألفونها أن الرواية تتعلق بيوم من حياة كلاريسا دالاواي، سيدة المجتمع التي تبلغ من العمر 52 عامًا. تخرج في الرواية لتشتري احتياجاتها، وتقابل حبيبًا قديمًا لم تعد مهتمة به، تنام القيلولة وتنظم حفلاً. هذه هي الحبكة. (ترجمة أمير زكي - جريدة أخبار الأدب المصرية).

في (السيدة دالاواي)، تريد فرجينيا وولف أن تقول لنا إنّ يومًا في حياة أي شخص يحتوي، إذا نظرنا إليه باهتمام كافٍ، الكثير مما نحتاجه لنعرف كل شيء عن الحياة الإنسانية. تبدأ الروايةُ مع السيدة دالاواي وهي تشتري زهورًا لترسلها إلى رسام صديق لها يعيش حالة انهيار صحي بسبب مرض خطير، سيقوده في النهاية إلى الانتحار. وقبله حاولت السيدة دالاواي أن تجرّب هذا الفعل - فعل الانتحار - بأن ترمي نفسها من النافذة لكنها فشلت بسبب الخوف الذي سيطر عليها، في حين ينجح صديقها سبتيموس من تجاوز فعل الخوف فيرمي نفسه من النافذة نفسها ليموت.

يكتب هارلود بلوم في مقاله الشهير (كيف نقرأ فرجينيا وولف) إلى أن هذه الرواية تعد الأهم والأبرز بين النصوص التي كتبتها وولف، ورغم أنها رواية عصيّة على القارئ للّحظة الأولى، فهي لا تسرد أحداثًا معينة، لكنها تتعاطى مع الزمن مثلها مثل جيمس جويس وهو يلخص لنا الحياة في يوم واحد في ملحمته الشهيرة (يوليسيس).

***

أتذكر أنني قرأت (السيدة دولاواي) في ترجمتها العربية التي قام بها عطا عبد الوهاب في منتصف الثمانينيات. ولا زلت أتذكر كيف أنني شعرت

بالملل، وأعترف أنني فشلت منذ الصفحات الأولى في التعرف على دهاليز الرواية، وفشلت محاولاتي للظهور بأنني قارئ جيد للرواية، أمام تلك السيدة التي تريد أن تشعرنا أن للساعات في حياتنا أهمية كبيرة علينا أن نعرف جيدًا كيف نقتنص لحظات الفهم والمعرفة فيها. كنت قارئًا كسولاً أو بتعبير أدق قارئًا عاديًا مثلما تصفنا فرجينيا وولف في كتابها الممتع (القارئ العادي) - ترجمته إلى العربية الدكتورة عقيلة رمضان - هذا القارئ الذي دائمًا ما يبحث عن الأشياء السهلة التي تقدم له بعضًا من المعلومات الضعيفة والبعيدة عن الدقّة. صادفتني السيدة دالاواي وأنا لا أملك خبرة في قراءة الرواية الحديثة. قبلها كنت جربت مع (يوليسيس) جيمس جويس بترجمة الدكتور طه محمود طه، وكان قد أهداني إياها صديقي الشاعر الراحل رياض إبراهيم الذي كانت له قدرات عجيبة في الدخول إلى مغارة الكتب واقتناء ما هو مثير منها. وقد فشلت فشلاً ذريعًا في حل ألغاز الرواية، وعرفت فيما بعد أنني لم أكن الوحيد الذي ناله التعب. فقد سألت الكثير من الأصدقاء: هل قرأتم رواية (يوليسيس)؟ يضحك البعض منهم، وآخرون يقولون إنه لم يقرأها سوى القليل. ومررت بالتجربة نفسها وأنا أصارع (انفعالات) أناتالي ساروت في ترجمة فتحي العشري. واكتشفت بعد سنوات أن ساروت وقبلها فرجينيا وولف وقبلهما الأستاذ جيمس جويس، تخلّوا بإرادتهم عن السرد التقليدي، وألغوا الشخصية والعقدة والرأي والتسلسل الزمني مثلما تعودنا عليه في روايات القرن التاسع عشر، واعتمدوا بديلاً عن ذلك التكرار والملاحظة الدقيقة للأشياء الصغيرة والأحداث اليومية، وسعوا جميعا إلى تغييب التسلسل الدرامي للأحداث. هكذا غيّرتني السيدة وولف لأصبح قارئًا يحمل شيئًا من النباهة، كما يقولون. العجيب أن فرجينيا وولف كان لها رأي آخر في جيمس جويس، حيث وصفت روايته (يوليسيس) بأنها "كتاب أمي، هجين، كتبه رجل محزن، أناني، لجوج، فظّ، ومثير للغثيان".

***

حين ولدت فرجينيا وولف في الخامس من كانون الثاني 1882م، لعائلة أرستقراطية تعيش في ضواحي لندن، ظنّ الجميع أنها لن تعيش طويلاً فقد كانت ضعيفة البنية، كادت تموت تحت نظر والديها. سترافقها الأمراض طيلة حياتها وتلزمها باتخاذ احتياطات طبية صارمة. كان هذا المرض فرصة لأن تنسحب إلى عالمها الداخلي وتتفرغ لكتبها وأوراقها، في التاسعة من عمرها كتبت قصصًا قصيرة، كتمت منذ الصغر حبًا محرمًا لوالدها، توفيت والدتها وهي في الثالثة عشرة، فأصيبت بنوبات من الهيستريا، كانت تخاف الظلام. توفي والدها بعد عامين آخرين فأصيبت بانهيار عقلي، حاولت الانتحار أكثر من مرة، اعتقد المقربون منها أن زواجها يمكن أن يداوي آلام غياب الأب. تعرفت إلى زوجها ليونارد عن طريق أصدقاء مشتركين. عندما طلب الزواج منها استاءت وكتبت إليه رسالة حادة ينقلها لنا ابن اختها كوينتين بيل في سيرة حياتها التي ترجمها إلى العربية عطا عبد الوهاب: "أشعر بالغضب من طلبك، تبدو أجنبيًا للغاية، وأنا مضطربة إلى درجة تثير الخوف. كما قلت لك بقسوة، لا أشعر بأي انجذاب جسدي نحوك. مع ذلك يغمرني اهتمامك بي". ونجدها في نفس اليوميات تعترف أنها لم تشعر قط بمتعة جسدية مع زوجها، رغم حبها الشديد له.

حار الأطباء في معرفة نوع مرضها وأسبابه، وعزاه عالم النفس جاك لاكان في كتابه (الذهانات) إلى الحساسية المفرطة التي لازمتها طوال حياتها، وإلى الخوف من الجنس بعد أن تعرضت للتحرش الجنسي وهي في سنّ السادسة. تقول في رسالة إلى شقيقتها: "كم أعاني! لا أحد يعرف كم أعاني". في يومياتها تكتب: "لو أستطيع مصادقة النساء، يا لها من متعة أن تكون العلاقة سرّية وخاصة مقارنة بتلك التي مع الرجال". فضّلت النساء لكنها لم تمارس الجنس مع واحدة قط.

أهدت روايتها (أورلندو) - صدرت عن دار المدى بترجمة توفيق الأسدي - إلى إحدى صديقاتها التي جعلتها شخصية متحولة تبدأ حياتها فتىً، وتنتهي امرأة. أسرت بكتابتها جيلاً من الكتّاب الذين اعتبروها "منارة الرواية الحديثة"، تناولت في (الأمواج) ست شخصيات تروي حياتها من الطفولة إلى الشيخوخة. يخبرنا ابن شقيقتها بأن كل رواية كتبتها كانت تثير عندها صداعًا مزمنًا وتهيجًا عصبيًا وفقدانًا للشهية، حتى عدّها الأطباء مجنونة، لكنها تغلبت على حالات الكآبة ومضت تعالج نفسها بالانصراف إلى الكتابة. ويضيف كوينتين بيل: "أن لحظات الاكتئاب كانت تعقبها لحظات الإبداع، وأن بوسع فرجينيا أن تنتفع من أمراضها".

كتبت ثلاث رسائل وداع. قالت في واحدة منهن: "إنني أجنُّ ثانية، وأشعر أنني لا أستطيع مواجهة وقتٍ صعب آخر. لن أشفى هذه المرة. بدأت أسمع أصواتًا ولا أستطيع التركيز، لذا سأقوم بما يبدو أفضل ما يمكن فعله... لا أستطيع إفساد حيوات القريبين مني أكثر مما فعلت". رأى زوجها الرسائل الثلاث وركض إلى النهر. كان الحذاء الذي ارتدته يعوم، تمنت بطلة رواية (أورلندو) ألا يجدوا جثتها، لكن جثة كاتبة بريطانيا الشهيرة وجدها الأطفال تطفو قرب الجسر. دُفنت في حديقة منزلها ومثلما طلبت في وصيتها بالعبارة الأخيرة من روايتها (الأمواج): "عليك ألقي نفسي بلا هزيمة أو استسلام يا موت".

***

كان إدوارد آلبي قد توّج نفسه واحدًا من كتّاب المسرح الأميركي الحديث، لكن مسرحيته الأخيرة (من يخاف فرجينيا وولف) جعلته على قمة المسرحيين المعاصرين. كان آلبي قد بدأ الكتابة بنصوص قصيرة مثل (الحلم الأميركي) ومسرحية العبث المتميزة (قصة حديقة الحيوان)، التي عالج فيها

مسألة الفرد الأميركي، وحاول في أكثر من عمل مسرحي فضح ممارسات الرأسمالية، لكنه في (من يخاف فرجينيا وولف) وجّه سهام نقده هذه المرة إلى النخبة الأميركية المثقفة. ولأنه مغرم بفرجينيا وولف فقد استحضر شخصية شبيهة لها تعيش مع زوجها حياة مبينة على الكذب والرغبة في تدمير الذات، الذي يؤدي في النهاية إلى تحويل الصراع الصامت والحميم بين الزوجين إلى لعبة استعراضية يصل العنف فيها إلى أقصاه، مثلما وصلت حياة فرجينيا وولف إلى أقصاها بعد أن تيقّنت أن لا مفر من دخول النهر بجيوب مثقلة بالحجارة.

(14)

حمار الحكيم يشعل معركة أدبية

نحن الآن في الساعة الثامنة مساءً من يوم الثامن من تشرين الأول عام 1898م. القلق يسيطر على سكان البيت الواقع على شاطئ مدينة الإسكندرية، صاحبة البيت قلقة، تمر الساعات ببطء، الشقيقة الصغيرة التي جاءت في زيارة قصيرة تصرخ. لقد حانت لحظة الولادة.

منتصف نهار التاسع من تشرين الأول، تلقّى وكيل النيابة في إحدى قرى الريف المصري برقية مستعجلة تخبره أنه: في الساعة العاشرة من مساء الأمس شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق، فأرادت إرسال الخادم إلى القابلة، فامتنعت بقولها: ربما لا يكون الأمر كذلك، ولم نزل مترقبين حالتها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حيث اشتد الألم ولم يعد هناك شك في اقتراب الوضع، وفي الساعة الثالثة حضرت القابلة وباشرت أعمالها إلى أن كانت الرابعة حين أقبل "أخينا" مصحوبًا بسلامة الوصول، وقد رأيته صباح اليوم فوجدته مثل أبيه ولكن بدون "شوارب".

كان وكيل النيابة آنذاك يحقق مع أحد المتهمين، فلم يهتم للأمر، حتى وصلته برقية أخرى في اليوم التالي يطلب أصحابها منه أن يسمي المولود. فاضطر أن يكتب ردًا يفوّض فيه الأم بتسمية المولود، فوصلته برقية في اليوم الثالث تخبره بأنهم أطلقوا على المولود اسم "حسين توفيق الحكيم".

الأب إسماعيل الحكيم يصل إلى الإسكندرية ليرى مولوده الجديد، يتطلع

إليه، مازال صامتًا لا يبكي ولا يبتسم، يلتفت إلى زوجته التي تراقبه بقلق.

- لكن الاسم لا يعجبني.

- ماذا كنت تتمنى أن تسميه؟

"زهير، على اسم الشاعر زهير بن أبي سلمى"، يقول الأب.

"لكن يا إسماعيل هذا الجيل الجديد قد لا يعرف شيئًا عن زهير الذي تعشق أشعاره. نحن نعيش عصرًا جديدًا"، هكذا أجابت الزوجة التي عرف عنها حبها للفن والموسيقى، فيما عرف عن الأب اهتمامه بحساب مصاريف البيت. فلم يكد ينتهي من قضية الاسم حتى أخرج ورقًا وقلمًا ليكتب:

17 قرشًا أجرة القطار إلى الإسكندرية.

10 قروش أجرة الطعام في مطعم المحطة، 5 قروش أجرة الحمال الذي حمل الحقائب.

2 قرش أجرة الحمار الذي وصل به إلى البيت.

***

مراهقًا تعرفت على توفيق الحكيم الكاتب، من خلال رواياته التي قرأتها بمتعة لا تضاهيها متعٌ أخرى، وما يزال طعم روايته (عودة الروح) ورائحتها يرافقني منذ أكثر من أربعين عامًا. كنت في الصف الأول المتوسط، حين عثرت في المكتبة المدرسية التي كان يشرف عليها آنذاك الفنان العظيم شاكر حسن سعيد على كتاب أبيض اللون مطبوع على غلافه الخارجي بحروف كبيرة (عودة الروح)، رواية من منشورات مطبعة الرغائب، وفي الأسفل تاريخ صغير يشير إلى السنة التي صدرت فيها وهي عام 1933م. وأتذكر أنني في الاستراحة فتحت الكتاب لأقرأ ما جاء في الصفحة الأولى: "أصابتهم كلهم في عين الوقت الحمى الإسبانيولية، وعادهم الطبيب فما كاد

يقع بصره عليهم حتى دهش، قاعة واحدة اصطفت فيها خمسة أسرة، أحدها بجنب الآخر، وخزانة كخزانة الخطاطين مخلوعة إحدى عارضتيها، فيها ثياب على كل لون ومقاس وبعضها ملابس بوليس رسمية، بأزرار نحاسية وآلة موسيقية بمنفاخ عتيقة معلقة بالحائط.

- أعنبر أم ثكنة؟

ولكن الطبيب واثق من أنه دخل منزلاً، وما زال يذكر رقمه وشارعه. ودنا أخيرًا من السرير الخامس، فلم يتمالك نفسه وابتسم: لم يكن هذا سريرًا، إنما مائدة الطعام الخشبية انقلبت فراشًا لأحدهم.

وقف الطبيب يتأمل المرضى الراقدين صفًا. وفي النهاية تقدم وهو يقول: لا.. دا مش بيت دا مستشفى".

كانت هذه الصفحات هي التي حفزتني إلى دخول عالم الرواية والتعرف فيما بعد على نجيب محفوظ، وتولستوي، ودستويفسكي، وبلزاك، وشارلوت برونتي، وديكنز، وكونديرا، وستندال، وعشرات من الذين أعيش معهم كل يوم حيوات جديدة.

***

المكان: رصيف ميناء القاهرة

الزمان: 1926

توفيق الحكيم ابن السابعة والعشرين يقف على كل جملة يسمعها من والده، بينما الباخرة الفرنسية تخرج صفيرًا زاعقًا.

إنه يعانق أباه ثم يتقدم باتجاه الباخرة، يصعد، يحاول ألا يتطلع إلى الخلف. ما يزال يسمع وسط هذا الضجيج بكاء والدته، التي رفضت أن تحضر لوداعه، الدخان الأبيض للباخرة يعلو ويعلو، ضجيج الآلات يزداد

صراخًا، هذه أول مرة يركب فيها باخرة، شاهد والده يلوح بيديه. يكتب بعد ذلك في (عصفور من الشرق): "طالما قاومت وكافحت في سبيل التجرد والتحرر من كل ما يشغلني عن الأدب والفن، وها أنذا اليوم قد انتصرت، فأنا الآن للفن وحده".

من أجل هذا الفن هجر دراسة القانون التي ذهب من أجلها إلى باريس ليرجع أستاذا جامعيًا، فنراه بعد سنوات يستبدل منصة القضاة بخشبة المسرح، وينصرف عن حياة "وكيل النيابة" التي تزدحم بالقضايا والأوراق والملفات، ليرى بعين الكاتب ما تحت سطح المجتمع المصري المحاصر بالفقر والظلم والاستبداد، ليخرج لنا بـ(يوميات نائب في الأرياف). لم تشغله حياة الطبقة الأرستقراطية التي تعيشها عائلته، وإنما شغلته حكاية غرفة الست زنوبة، ومنديل سنيّة الذي تحايل حتى أخذه واحتفظ به في (عودة الروح)، ولم يدخر وسعًا في الابتعاد عن الالتزام الحزبي والخصومات السياسية ليتفرغ لمشروعه في تأسيس مسرح عربي. فكانت البداية مع (أهل الكهف) عام 1923م. لقد وهب نفسه لدور واحد فقط هو دور الفنان الذي يطرد من عقله كل شيء إلا الفكر والفن والثقافة التي رأى فيها خلاص هذه الأمة من أزماتها، ودليل ذلك أنه ظل يؤمن حتى آخر لحظة من حياته بأن خير رسالة للثقافة هي في إعلاء شأن المعرفة، سواءً من خلال المسرح الذي ننقل من خلاله واقع المجتمع، إلى الغوص في أقنعة التاريخ ورموز الأساطير، جنبًا إلى جنب رواياته التي استلهمت الواقعية لتضفي عليها سحرًا جديدًا.

***

على مدى أكثر من ثمانين عامًا، ظل توفيق الحكيم يستأثر بأكبر قدر من اهتمام النقاد والقرّاء على السواء، فأحاطت به هالات الإثارة والغموض. فمرة هو عدو المرأة، ومرة حبيس برجه العاجي، ومرات راهب الفكر،

وأخرى صديق الحمار والعصا، يتهمونه بالبخل ويروي عن نفسه النكات. إلا أن أحدًا لا يستطيع أن ينكر دوره الكبير في الحياة الثقافية العربية منذ أوائل القرن العشرين وحتى نهاياته، ولعل الميادين العديدة التي ارتادها تشهد له بأنه كان رائدًا، سواء في الرواية أو المسرحية أو المقال الثقافي. جميع الذين قرأوا لتوفيق الحكيم رسموا له صورة، ما انعكس عليهم من خلال قراءتهم لأدبه الموسوم بالعمق دائمًا، الهادف إلى الحكمة، وجميع القراء متأكدون أن هذا الرجل لكثرة معاشرته سليمان الحكيم وأهل الكهف وإيريس، لا يتكلم إلا بقدر، ولا يتفوّه إلا بالعدّاد، كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، إلا المقربين من توفيق الحكيم يرسمون له صورة أخرى. ففي كتابة الممتع (عاشوا في حياتي)، يكتب أنيس منصور:

"من السهل: أن تكره العقاد

من الصعب: طه حسين

من المستحيل: توفيق الحكيم

فليس له أعداء، حتى أعداؤه يحبونه، فالعقاد يصدمك، وطه حسين يراودك، والحكيم يضحك على نفسه وعلى الناس. فهو يضع البيرية على رأسه، والعصا في يده ويسحب وراءه حمارًا. ثم أنه يخفي يديه في جيوبه دائما خوفًا من أن يراها أحد فيطلب منه مساعدة. لكن الناس أحبت توفيق الحكيم لبساطته ولأنه قريب منهم، وبسرعة يكون أخًا وأبًا وصديقًا، فلا هو العقاد وقد ارتدى ملابس مدرعة وأمسك سيفًا، ولا هو طه حسين، إمبراطور الأدب، إنما هو الذي يقبل أن يمتحن مدى بخله وحرصه على الفلوس، وكيف أنه يساومك حتى لا تشرب عنده فنجانًا من القهوة".

ورغم هذه الصورة الكوميدية، إلا أن توفيق الحكيم حقق إنجازًا لم يسبقه أحد إليه من قبل، فهو مؤسس الرواية العربية الحديثة، وهو أبو المسرح

العربي الحديث الذي بدأت بشائره بـ(أهل الكهف). فقبله لم يكن المسرح يحظى باحترام الأوساط المثقفة والنخب السياسية، فمجرد الكتابة للمسرح، كان فعلاً غير محترمًا من الناحية الاجتماعية، ولا من الناحية الأدبية. الأديب آنذاك كان كاتب المقالات والقصص، فماذا فعل الحكيم؟ ولماذا أقبلت الناس على المسرح تشيد بـ (أهل الكهف)؟ يخبرنا الحكيم في حواره المطوّل مع جمال الغيطاني أن نجاح (أهل الكهف) يرجع إلى أسباب عدة، منها: "أنني استوحيت فيها القرآن الكريم. ومنها أن أحد الذين كتبوا عن المسرحية ورحبوا بها، هو الشيخ مصطفى عبدالرازق، وهو أزهري قديم، ولولاه لهاجمني الأزهريون. كتب عني الشيخ مصطفى عبدالرازق، وأبدى إعجابه بـ (أهل الكهف) وتساءل: هل الكاتب مطربش أم معمم؟ فقال له أحد أصدقائه: لا... إن المؤلف مطربش، وهو من خيرة المطربشين!"

***

كان يجد نفسه أقرب إلى رجال المسرح وعشاق الموسيقى، ومنذ صباه استبدت به رغبة جامحة أن ينقل إلى الورق كل ما تقع عليه عيناه، فقرر أن يكون رسامًا، لكنه اكتشف أن الشعر أقرب إليه، عاش على هامش الحياة الثقافية، فقرر أن يدرس الرسم. وأن يجد من خلال قراءته الواسعة للشعراء روابط بين الشعر والرسم والموسيقى، هكذا راح يقرأ للشعراء الرومانتيكيين، وأُعجب بملتون وفردوسه المفقود، وما أن بلغ العشرين من عمره حتى كان يحفظ عن ظهر قلب قصائد معظم رواد المدرسة الرومانتيكية. إلا أن والده أصر على أن يدرس ابنه القانون، لكن رغبة الأب لم تصمد أمام إصرار الابن، الذي سيصبح فيما بعد أهم شعراء إسبانيا، وليخطف نوبل للآداب عام 1956م، وليمارس تأثيرًا قويًا في تيار بأسره من تيارات الشعر العالمي.

عام 1914م يصدر خوان رامون خمينيث كتابه النثري الوحيد (بلاتير

وأنا)، وقد تلقفت إسبانيا الكتاب حتى أن الطبعة الأولى منه نفدت خلال أسابيع. وبلاتير هو ذلك الحمار الذي جعله خمينيث بطلاً للرواية، أخبرنا في مقدمتها أنها نص للأطفال، غير أن قراءة معمقة للرواية سيكشف لنا أنها أكثر غنى من أن تكون مجرد حكاية للأطفال. فالحمار فيها يلعب دورًا أساسيًا في سعي الشاعر للوصول إلى جوهر الحكمة. فمنذ البداية سنجد كيف أن الكاتب جعل من ذلك الحمار دليله للعودة إلى فردوس الشاعر ملتون، فيخاطبه قائلاً: "أنت يا أيها المثقف الحقيقي، أنت يا صديق العجوز والطفل، يا صديق الجدول والفراشة، الشمس والكلب والوردة والقمر. أنت أيها الغارق في صبرك وفي شجنك... في الود الذي تغمر به العالم".

وفي معظم صفحات الكتاب يطالعنا خمينيث وهو يتحدث مع حماره بنزعة عاطفية تكاد تكون كشفًا لما يجري من أحداث في الطبيعة.

***

"عرفته في يوم من أيام الصيف الماضي، في قلب القاهرة، وفي شارع من أفخم شوارعها، كنت أسير في ذلك الصباح إلى حانوت حلّاقي، وكان الهواء حارًا ممزوجًا بنسيم لطيف، وكان صدري منشرحًا. رأيته يخطر كأنه غزال، وفي عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه، رجل قروي، ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون في جماله ورشاقة خطاه، لقد كان صغير الحجم كأنه دُمية، أبيض كأنه قدَّ من رخام، بديع التكوين كأنه من صنع فنان. وكان يمشي مطرقًا في إذعان كأنما يقول لصاحبه: اذهب بي إلى حيث شئت فكل ما في الأرض لا يستحق من رأسي عناء الالتفات. ذلك هو الحمار الصغير الذي سيصبح رفيقي فيما بعد".

بهذه السطور يبدأ توفيق الحكيم كتابه الشهير (حمار الحكيم)، الذي يرى غالي شكري أنه من أكثر أعمال توفيق الحكيم امتلاءً بالحكمة والعمق

الفكري، فقد جعل الحكيم من حماره، مشاركًا في التعليق على أوضاع المجتمع وأخلاقياته.

وبرغم أن الحكيم يروي لنا قصة لقائه بهذا الحمار العجيب إلا أن نقّاد الأدب دائمًا ما كانوا يقارنون بين حمار الحكيم الصادر عام 1940م، والذي ألحقهُ بكتاب آخر بعنوان (حماري قال لي) صدر عام 1954م، بكتاب الإسباني خمينيث الصادر عام 1914م بعنوان (بلاتيرو وأنا)، والذي ترجم إلى العربية بعنوان (أنا وحماري) - ترجمة لطفي عبد البديع وإصدار دار المدى - فيكتب الناقد رشدي صالح في جريدة الجمهورية ويتساءل عن مدى تأثر الحكيم بحمار صاحب نوبل الإسباني، وهو الموقف الذي أيّده الشاعر كامل الشناوي، الذي خاض معركة مع يوسف السباعي الذي كان يدافع عن أصالة حمار الحكيم. ولم تتوقف ثورة الحمير التي أشعلها توفيق الحكيم، فنجد كاتبًا مثل أحمد بهاء الدين يكتب في صباح الخير: "كثيرون عتبوا علينا أننا نشرنا على صفحاتنا تحقيقًا أدبيًا حول حمار الحكيم وحمار خمينيث، وقد أشفقوا من أن يكون هدف التحقيق هدم كاتب كبير يدين له أدبنا بأكثر من وثبة إلى فوق وأكثر من خطوة إلى الأمام". ويطل عباس محمود العقاد فيخصص كتابًا عن الشاعر الإسباني خمينيث بعنوان (شاعر أندلسي وجائزة عالمية)، ليبرئ ذمة صديقه توفيق الحكيم. وقد نشر قبل هذا مقالاً في جريدة الأخبار بعنوان (العقاد يحكم ببراءة حمار الحكيم)، قال فيه إن الأديب الإسباني لما أصدر كتابه (بلاتيرو وأنا) إنما أراد أن يطرح آراء يبديها حماره في 138 قضية، أما الحكيم فقد كان يريد أن يوصل لنا حكاية المجتمع بأكمله من خلال حمار يتقمص الحكمة. ويعلق توفيق الحكيم على معركة الحمير هذه في مقال طريف بعنوان (من هو حماري) قائلاً: "الحمار في حياتي له شأن.. إنه عندي كائن مقدس، لقد عرفته منذ صغري في صورة جحش صغير اشتراه لي والدي، وكنت لا أفارقه إلا للنوم فقد كان في مثل سنّي، على

هذه الحال من المودة عشنا حتى فرقتنا الأيام، فذهبت أنا إلى مدارس الحضر وبقي هو في ريفه".

(15)

هتلر يقرر حرق أول كتاب في ساحة عامة

في إحدى قرى الجنوب الألماني، وفي صيف العام 1898م، استقبلت عائلة ماريا ريمارك مولودها الرابع، وكان هذه المرة ذكرًا بعد ثلاث بنات، الأمر الذي دفع الجدّ أن يعلّق آمالاً على حفيده في أن يوصل تراث هذه العائلة المُحبة للمغامرة والرحلات. كان الجدّ قد طاف العالم كلّه، ضابطًا يعمل في البحرية الألمانية، لكن الأب لم يكن يحب المغامرات فانتهى به الأمر أن يعمل مشرفًا على معمل للورق. لم تكن العائلة غنية، ولكنها كانت ميسورة الحال، قضت الأم حياتها على سرير المرض تشكو من مرض السل، وعلى امتداد فترة مرضها، كان على الابن الصغير أن لا يقترب منها خشية أن تصيبه العدوى، مما دفع الأهل أن يوكلوا تربية الصبي الصغير إلى جدّه المغامر، وبينما كانت الأم المريضة تفكر بابنها ومستقبله، كان الجد يحاول أن يجعل من حفيده نسخة ثانية منه، فيما الأب تمنى لأبنه وظيفة مستقرة، معلم مثلاً، مهنة تعني له الأمان والضمان. كان كل شيء ينبئ بأن المصير الذي أعدّته العائلة لابنها سيتحقق لا محالة، إلا أن القدر كان يخفي ما لم يتوقعه أحد، فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى وكان على الشاب الذي لم يكمل دراسة مهنة التعليم أن يلتحق بالجيش ليُرسل إلى الجبهة. هناك يعيش تجربة مريرة جدًا حيث يُجرح مرتين ويتخلص من الموت بأعجوبة. وعندما تنتهي الحرب، ويعود الجنود إلى أهاليهم، يعود إريك ماريا ريمارك شخصًا آخر، لا يشغله سوى موضوع واحد: مصير الإنسان وكيف يتخلص من مأساة

الحرب. إنها الفكرة الوحيدة التي تسلطت عليه، وحين يعود إلى مدينته ليمارس مهنة التدريس كانت أول محاضرة له بعنوان: (كيف نعيش في مجتمع لا نسمع فيه صفارات الإنذار؟)، الأمر الذي جعل مدير المدرسة يستدعيه ليوجه له إنذارًا شديد اللهجة بأن يترك الحديث عن الحرب، وينشغل بتدريس المادة المقررة. وبما أنه لم يكن سعيدًا بهذه المهنة، فقد قرر أن يعمل في محل صديق له يبيع رخام القبور وتماثيل تذكارية للحرب، مهنة رتيبة، لكنه تغلب عليها بالتفرغ للقراءة، فقضى أوقاتًا ممتعة مع دستويفسكي وجيمس جويس وشكسبير، والتهم الإلياذة حتى أنه كان يحفظ منها مقاطع طويلة، وانغمس في قراءة أعمال توماس مان، وكانت عائلة بودنبروك تسحره، فكتب عنها مقالاً أرسله إلى إحدى الصحف التي لم تنشره، فقرر أن يرسله بنفسه على عنوان توماس مان وكتب على المظروف: "إلى أبينا في المعرفة، هذه الصفحات في تمجيد أعضاء عائلتك المقدسة أتمنى أن تطّلع عليها"، ولم يصدق حين سلّمه ساعي البريد بعد أسابيع مظروفًا كتب على غلافه بخط توماس مان: "إلى السيد إريك ماريا ريمارك، مع المودة".

كانت رسالة مان دافعًا له لأن يقرر التفرغ للكتابة، بدأ يرسل بعض كتاباته إلى الصحف والمجلات. صار يشعر بالملل من مهنة بيع شواهد القبور، فيقرر السفر إلى برلين، وهناك يجد عملاً في صحيفة (الرياضة المصورة)، كل ما مطلوب منه هو أن يكتب تقارير عما يجري في حلبات الملاكمة، التي وجد فيها وجهًا "قذرًا" آخر من وجوه الحرب الكريهة، لكن لا مفر، عليه أن يكتب ويحرّر. وقد تعلّق بمهنة الصحافة لأنه كان مقتنعًا أن حياته لا معنى لها من دون الورق، ورغم أن مهنة الصحافة في ألمانيا التي تعاني من أزمة اقتصادية خانقة، لم تكن تضمن له حياة مرفهة مثلما كان يتمنى، لكنه هنا في برلين ذاق طعمًا مختلفا للحياة. كتب روايته الأولى (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) – العنوان كما جاء في الترجمة العربية التي قامت بها دار الهلال بترجمة

محمود مسعود - حاول أن يبعث بمخطوطتها إلى إحدى دور النشر، لكن مصاريف البريد كانت عائقًا أمام طموحاته.

***

"فجأة سمعت وقع أقدام أعرفها جيدًا، أخرجت الخنجر فطعنته، أخذ يصرخ، لكنني واصلت الطعن وصوبت إليه في النهاية ضربة قوية فهوى على الأرض، لقد طبقت عادة مبدأ الحرب الدائم: "اقتل أو تُقتل"، لكن الرجل لم يمت، بل كان في النزع الأخير، فتح عينيه وجعل يحدّق إليّ بعينين مفعمتين بالرعب والهلع، كانت الجثة ساكنة، لكن رغبة الفرار التي نطقت بها عيناه كانت من بلاغة التعبير بحيث خيّل إليّ أنها ستحمل الجثة حملاً وتفر بها ذعرًا من الموت - أي منّي - لئلا أجهز عليه".

لم ينته الأمر، بطل الرواية ينظر إلى عدوه الذي تحول إلى جثة متأملاً حزينًا، يحاول أن يطمئنه، يهمس في أذنه، يرفع يده ويضعها فوق جبين الميّت لكي يفهمه أنه يريد إسعافه، ينظر إلى عينيه التي غابت في نوبة من الفزع المميت، لم ينتهِ المشهد بالقتل، فقد قرر بأنه ما أن تنتهي هذه الحرب اللعينة ويعود سالمًا، حتى يبدأ رحلة البحث عن زوجة القتيل وأطفاله عسى أن يستطيع تقديم يد العون لهم.

بمثل هذه الصور المفزعة تمضي أحداث رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي)، ويقول إريك ماريا ريمارك في حديثه عن الرواية، أن المشهد لم يكن من الخيال بل هو حقيقي، ولهذا أصرّ أن يجعل منه مشهدًا رئيسيًا في روايته التي صدرت طبعتها الأولى عام 1928م. لتعدّ من أولى الروايات التي وقفت ضد الحرب أيًا كانت مبرراتها.

لم يوافق أحد من الناشرين الألمان على طبع الرواية التي أرسلها إلى معلمه توماس مان، ليرسل إليه الأخير خطابًا يطالبه بإعادة كتابتها، لأنها

في صيغتها الحالية عبارة عن ضباب من الكلمات. ولأن ريمارك يدرك أنه يسير ضد التيار السائد للرواية الألمانية آنذاك، لم يبالِ كثيرًا لكلمات توماس مان رغم تقديره الشديد له، فقد كان يدرك في قرارة نفسه أنه مصمم على أن تكون روايته الجديدة مثل حجر ضخم يلقى في بحيرة الأدب الراكدة.

لم يجد أمامه سوى المجلة التي يعمل فيها (الرياضة المصورة)، فربما يقتنع رئيس التحرير بطبع الرواية، لأن دار النشر تطبع الكتب أيضًا. ولكن من يغامر بشراء رواية لكاتب مبتدئ في زمن يعاني فيه الناس من أزمة مالية صعبة، يسأله رئيس التحرير عن موضوع الرواية فيجيب:

- الحرب

"أنصحك بأن تمزقها، من يريد اليوم قراءة رواية حربية؟" يقول له رئيس التحرير.

يكتب لوالده: "الظاهر أن مغامرتي الأولى في الأدب لن ترى النور". الصدفة تلعب دورًا كبيرًا في مستقبله، كان قد أرسل نسخة من الرواية إلى دار نشر في بون، وقد وصلت النسخة إلى يد أحد الفاحصين في الدار، الذي جلس ذات يوم ليقلب ملفاته فعثر على المسودات فقرر أن يقضي معها بعض الوقت، وبعد صفحات قليلة، يكتشف أن بين هذه الأوراق رواية عجيبة ومؤثرة، يضطر إلى أن يعرض الأمر على مسؤولي الدار:

"لقد وجدت هذه الرواية مؤثرة بشكل غير طبيعي.. أنصح بطباعة عشرة آلاف نسخة منها"، قال الفاحص فورتيس.

التردد يصيب الجميع. إلا فورتيس الذي يكمل: "إذا وجدتم في الأمر مجازفة، فالخسارة سأتحملها أنا".

وبعد مناقشة دامت أيامًا، وافقوا على طبع الرواية، لكنهم اقترحوا أن

تنشر في البداية على شكل سلسلة حلقات في جريدة (فويس) التي تصدر عن دار النشر. المسؤولين على الصحيفة يعترضون، فالرواية في نظرهم غير مشوّقة، والناس تكره الحديث عن الحرب، والأهم أن الصحيفة لا تنشر إلا لكبار الكتاب من أمثال توماس مان وهاوبتمان وبعض قصص هيرمان هيسه. لكن رأي الخبير انتصر في النهاية وظهرت الحلقة الأولى من الرواية في العاشر من تشرين الثاني عام 1928م، ولم يصدق أصحاب الصحيفة ردود أفعال القرّاء غير المتوقعة، الجميع لا حديث له سوى حكايات الميدان الغربي، وما أن صدرت الحلقة الثانية حتى تجاوز طبع الصحيفة المئة ألف نسخة.

أصحاب دار النشر يعقدون اجتماعًا طارئًا ليتخذوا قرارًا بوقف نشر الحلقات، وطبع الرواية كاملة وبمئة ألف نسخة، لكن هذا الرقم يخيّب تقديرات الناشرين فقد نفد خلال ساعات، الكتاب يباع بسرعة مذهلة، وتضطر دار النشر أن تستعين بمطابع أخرى. في بداية عام 1929م، تتجاوز المبيعات المليون نسخة، بعد عام تباع خمسة ملايين، لكن الناشر والكاتب يواجهان مشكلة جديدة، فقد تعرضا لموجة شديدة من الكراهية، ريمارك يُتهم بمعاداة ألمانيا، وتنشر بعض الصحف مقالاً بقلم غوبلز- وزير دعاية هتلر فيما بعد - يصف الكتاب بالقذارة، وأن مؤلفه غير ألماني ينتحل اسمًا غير معروف، بل ويشكك كاتب المقال بمشاركته ريمارك في الحرب. الهجمات التي تشنها الصحف الرجعية تتحول إلى أفضل دعاية للكتاب الذي تتجاوز مبيعاته العشرة ملايين نسخة، ويترجم إلى معظم لغات العالم. الكتاب يباع بنجاح كبير، ويضطر الناشر أن يستعين بمطابع أخرى لتساعده في الطبع. في عام 1930م، تباع منه في ترجماته العديدة أكثر من 30 مليون نسخة، ويقرر القائمون على طريقة بريل في القراءة طبع أول رواية لفاقدي البصر.

***

شكلت الرواية صدمة للقراء ومفاجأة لنقّاد الأدب، إلى درجة أن أعمال ريمارك اللاحقة ستقاس عليها وستقارن باستمرار بها، بل أن إريك ماريا ريمارك سيكشف في حوار صحفي عام عن حقيقة قلّما انتبه إليها مؤرخو الأدب، حقيقة أن رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) كانت في صميمها وبصرف النظر عن هواجس الخوف التي ترافق الإنسان وهو يواجه الموت، رواية وجودية بامتياز، خصوصًا أنها كتبت في وقت كان الذل والهزيمة اللذان تليا استسلام ألمانيا خلال تلك الحرب العالمية الأولى قد تحولا إلى نزعة عسكرية ألمانية خطيرة وشديدة الشعبية في الوقت نفسه، وهذا ما يحدث عادة مع الشعوب التي تهزم ويتلو هزيمتها جرح عميق لكرامتها، فتتحوّل إلى شعوب تنتظر اللحظة المناسبة للسير في دروب العنف ولتثأر لا لكرامتها، بمقدار ما تثأر من وجودها كأمة مهزومة، ويضيف ريمارك :"لقد كتبت رواية عن الحرب، من الذي يشعلها؟ ومن الذي يستفيد منها؟"

ريمارك يصبح مشهورًا وغنيًا لكنه غير سعيد، رسائل مجهولة تصله باستمرار تهدده بالموت، الحزب النازي يواصل صعوده بقوة، ريمارك مقتنع تمامًا بأن هتلر سوف يتسلّم مقاليد السلطة الآن أو بعد سنوات، وستكون ألمانيا مهدّدة. يقرر السفر إلى سويسرا، ليصبح أول أديب منفيّ. يصحو ذات يوم من عام 1933م على نشرات الأخبار تعلن تعيين أدولف هتلر بمنصب مستشار ألمانيا، وها هو عدوّه القديم غوبلز يؤدي اليمين وزيرًا للدعاية. لا يزال ريمارك يتذكر مقال غوبلز عنه، وطافت في ذهنه صور وزير دعاية هتلر عام 1930م، وهو يقود مع رفاقه في برلين الهجوم بالقنابل على دار السينما التي عرضت الفيلم المقتبس من رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي)، الأمر الذي دفع بالرقابة إلى منع عرض الفيلم، كان هذا أول انتصار لغوبلز. والآن جاء الانتصار الثاني، فقد صدر قرار بمنع الرواية، وحرق جميع النسخ الموجودة منها، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فلابد من قرار جديد بسحب

الجنسية من الكاتب الذي باع وطنه للأجانب، هكذا صدر الأمر بإمضاء أدولف هتلر.

***

إريك ماريا ريمارك الذي ولد عام 1898م في ألمانيا، عاش حتى عام حتى عام 1970م، حيث أنهى حياته في سويسرا، تزوج من النجمة الهوليوودية السابقة بولين غودارد بطلة فيلم شارلي شابلن الشهير (الأزمنة الحديثة)، وظل يكتب حتى فترة متأخرة من حياته. ومن أبرز رواياته إلى جانب (كل شيء هادئ في الميدان الغربي)، و (للحب وقت وللموت وقت) يؤرخ فيها الهتلرية، و (ليلة لشبونة) وهي تروي رحلة الكاتب في دروب المنفى، لكنه لا يستطيع الهروب من ذكرياته التي تحاصره بكل ماضيه وما فيه من ألم ممزوج بلحظات سعادة. ورواية (الرفاق الثلاثة) التي تسجل حياة شباب خرجوا من الحرب ليعيشوا حياة جديدة، لكن آثار الحرب تلاحقهم، الرواية التي تحولت إلى فيلم شهير بعنوان (صائد الغزلان) الذي حصد عددًا من جوائز الأوسكار، واعتبر كواحد من أفضل مئة فيلم في تاريخ السينما العالمية.

عبر سطور مؤلفاته الروائية العديدة، قام إريك ماريا ريمارك بعمل غاية في البساطة قلما أقدم عليه الآخرون؛ فقد وضع المرايا مباشرة أمام وجوه القراء، تلك المرايا المؤلمة التي لم تعكس الوجوه فحسب، بل عرّت الضمائر والنوايا، وكشفت عن بؤس إنسان القرن العشرين وسقوطه في فخ الشر، في عالم مريض مليء بالحروب والعنف ودوامة القتل التي لا نهاية لها.

في سؤال طرحته صحيفة التلغراف على عدد من الكتاب عن أهم رواية كتبت في القرن العشرين، كانت إجابة الكاتب التركي الشهير يشار كمال: "طلب منّي مؤخّرًا تسمية الرواية التي فكّرت أنها أفضل ما يعكس جوهر القرن العشرين، الذي ربّما كان القرن الأكثر إيلاما للبشرية، القرن الذي

شهد إهانات لا إنسانية، وحروبًا عالمية دامية، وجرائم إبادة جماعية. كنت قد تمنيت لو أننا تركنا وراءنا إرثه من المخاوف، والحزن، وفقدان الحسّ تجاه الموت.. ويمكن لرواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي)، تلك الرواية التي سبق أن قرأتها قبل سنوات، أن تبدو كأنّها كتبت اليوم".

تتطلب مثل تلك الروايات شيئًا أكثر من موهبة كبيرة، لأنها كتبت في لحظة خطرة من حياة الإنسان. لنتذكر أنّ هتلر قد أحرق الكتاب في ساحة عامة. وقد فتشوا عن كاتبه إريك ماريا ريمارك للقضاء عليه أيضًا، لكنه نجح في الهرب.

تقول هذه الرواية أنه ليس هناك أيّ أمل للمتورطين في الحرب، يصبحون مرضى بطريقة أو بأخرى. وإذا نجا فرد من الحرب فإنّه يتضاءل وجوده ككائن بشري. الحرب هي حكم بالإعدام على كلّ الناس والطبيعة، فهي تفسد إنسانيتنا، وضميرنا.

يقف الفن الحقيقي ضد الظلم والعنف، وضد أيّ نوع من الوحشية. إنّ الفن هو تمرّد. يحذّر الناس ضدّ الأكاذيب، والقمع، والحروب التي لا معنى لها ولا تنتهي أبدًا، وجميع أشكال الشرّ. كتب ريمارك رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) في عام 1928م، لتبقى نضرة كما هو الحال اليوم، مرسلة تحذيرها من جديد مع كلّ إعادة قراءة، وفي كلّ بعث، وتستمرّ في منح قرّائها القدرة على المقاومة.

(16)

داروين يتجول متخفيًا في شوارع بغداد

في مراهقتي المبكرة عثرت بالصدفة على كتاب اسمه (هؤلاء علّموني)، الكتاب لم يكن رواية مثلما خمنت، لكنه أشبه برحلة يقوم بها المؤلف سلامة موسى متقصيًا لحياة وأعمال عددٍ من الشخصيات. انزويت بالكتاب جانبًا، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها باسم سلامة موسى، في ذلك الوقت لم أكن أرى من الكتب سوى الروايات التي يصدرها محمود حلمي في سلسلته الشهيرة (كتابي). لكني الآن مع كتاب مختلف وصاحبه مختلف أيضًا، كان قد نشر عشرات الكتب التي أثارت حفيظة المتزمتين آنذاك.

كان هذا أول عهدي بكتاب فكري، لم أسمع بأسماء الذين يروي سلامة موسى حكاياتهم، ولا أعرف ما معنى الإنسان السوبرمان، ونظرية التطور، وما الذي يمكن أن ينفعني من منطق جون ديوي. لكن الكتاب استولى على عقلي، والحقيقة أنني انتهيت منه دون أن أعرف ماذا يريد المؤلف أن يقول، فهي المرة الأولى التي أقرأ فيها كتابًا لا حكاية ممتعة، ولا مسامرات بين الأبطال، كنت أقرأ في كلمات لا أفهمها، لكن الرغبة في أن أعرف جعلتني ألتهم الكتاب في يومين.

ثم كان أول لقاءٍ حقيقي لي مع سلامة موسى. كان لي صديق في مثل عمري، له أخ يدرس في كلية الآداب وكانت لديه مكتبة تضم عشرات الكتب، وكنت في كل مرة أدخل فيها إلى بيتهم لابد أن أمرّ على هذه المكتبة

وأتحسّس كتبها، وأنظر إليها مأخوذًا. أسأل نفسي: هل يمكن أن تكون لي مكتبة بهذا الحجم في يوم من الأيام؟ وفي يوم شاهدت هذا الأخ الكبير وهو يجلس وبيده كتاب ويستمع إلى نوع من الموسيقى، ولم أكن أدرك آنذاك ما العلاقة بين الموسيقى التي ليس فيها صوت لمغنٍّ واحد، وبين الكتاب الذي يقرأ فيه. كان هذا الشاب أول من شرح لي ألغاز كتاب سلامة موسى، وأخبرني، وهو يشير إلى مجموعة من الكتب، أن هناك كتبًا كثيرة لسلامة موسى، وأن لكلّ كتاب موضوعًا يحتاج منّي أن أقراه بانتباه. وأعتقد أنني بعد شهور من التفرغ لقراءة كتب سلامة موسى، بدأت أتذوق وأستطعم هذا النوع الفخم واللذيذ من الكتابة.

***

في الرابع من كانون الثاني عام 1887م، كانت ولادة سلامة موسى في بيت لموظف كبير يتقاضى نهاية كل شهر سبعة جنيهات. الطفل الذي رحل والده قبل عامين، لا يتذكر شيئًا من هذا اليوم الذي أطلقت عليه والدته "يومًا أسود"، هكذا يخبرنا في كتابه (تربية سلامة موسى)، ولا ينسى أن يخبرنا أيضًا أنه كان طفلاً منعزلاً، فقد كانت أمه تخاف عليه، فألبسته ملابس البنات اتقاءً للحسد، ومنعته من الخروج إلى الشارع حتى نشأ على ما قال "محبًا للوحدة والانطواء".

في مقدمة كتابه (أحلام الفلاسفة) يكتب سلامة موسى تعريفًا لحياته: "كنت ذلك الصبي الذي أرادت والدته أن تشكّله مثل عجينة طريّة".

في (تربية سلامة موسى) التي أسماها سيرة ذاتية، يقسّم حياته مثل فصول الكتاب إلى قسمين أساسيين، الأول بعنوان (تربيتي الأدبية)، والثاني (تربيتي العلمية). ويفسر لنا في السيرة كيف أنه ربّى نفسه ثقافيًا: "عندما أرجع إلى البذور الأولى والجذور التي نشأت ونبعت منها ثقافتي الحاضرة، أجد أنها

تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين 1907م و1911م حين كنت في لندن، ففي تلك الفترة كانت طائفة من المذاهب والنظريات في الأدب والعلم "تتجرثم"، وقد كان من حظي أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات".

كان يتمنى أن يعيش مئة عام، يموت ومن حوله الكتب، مثلما كانت نهاية الجاحظ. لم تجتمع لكاتب عربي غيره قوة التأثير والتنوع في الكتابة، أصبحت كتبه مَعلمًا من معالم المكتبة العربية، وتفشّت أفكاره حتى اعتقد أدباء ذلك العصر أن هذا الرجل المتوسط القامة سيسحب البساط من تحت أقدامهم، ما دفع الكثير منهم أن يخصص جزءًا من وقته للرد على "هرطقات" سلامة موسى.

كانت كتبه أشبه بالتحدي لموقف المجتمع من العلم والحضارة والتطور، وبرغم العديد من الكتابات التي صنّفت سلامة موسى بخانة الأدب، إلا أن الرجل وهو الذي كتب عن تولستوي وبرناردشو والأدب للشعب، وفي الحياة والأدب، وخصّص أحد كتبه للأدب الإنكليزي الحديث، يرفض أن يكون أديبًا، فقد ظل إلى اللحظة الأخيرة من حياته يعتبر نفسه مفكرًا :"لم تترك الكتب الأدبية في رأسي مركبّات ذهنية، كتلك التي تركتها كتب داروين ونيتشه ومقالات أينشتاين، فقد غيّرني داروين، أما أوسكار وايلد وكارلايل من الأدباء فقد نسيتهم".

كان يرى أن فكرة التطور التي أطلقت نهاية القرن التاسع عشر نجحت في تفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية والتاريخ، ويتساءل في كتاب (نظرية التطور وأصل الإنسان) الصادر عام 1928م عن إحساسه تجاه نظرية داروين فيقول: "عندما استبطن إحساسي الديني أجد بؤرة هذا الإحساس هو التطور، فأنا أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النباتات وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل، قبل ملايين السنين هي عنصرنا

الأول، وأننا ما زلنا ننبض ونتغير في تجارب لا تنقطع وأن سنّتنا هي سُنّة التغيير، وجريمتنا هي جريمة الجمود".

***

في العراق بدأت المعركة حول داروين وكتابه (أصل الأنواع) في وقت مبكر من القرن الماضي، ويذكر العلّامة علي الوردي أن المتعلمين في العراق كانوا فريقين: ملّائية وأفنديّة، الأول يؤمن بالقديم ويحافظ عليه، والثاني يدعو للتجديد والتحديث. وكان الصراع بينهما شديدًا، صراع بين المجددين والمحافظين. ثم تطور الأمر عندما تحول بعض الملّائية إلى أفنديّة فأصبحوا من أشدهم تجديدًا، ومن بين هؤلاء كان الزهاوي الذي نشأ ملّائيًا يلبس العمامة ويدرس الدين واللغة، ثم تحول إلى "أفندي لوغيّة" بلغة ذلك الزمان، ويعني بالتركية أن الزهاوي أصبح نموذجًا للأفندي المولع بالتجديد.

في عام 1876م، تدخل مجلة (المقتطف) المصرية إلى مكتبات بغداد، وكانت هذه أول مجلة تدعو للتجديد وتنقل العلوم الأوروبية إلى البلاد العربية، فحدثت ضجّة حولها في العراق، وطلب فريق الملّائية من الحكومة منعها، ولكن الأخيرة كانت مؤلّفة من أفندية. وبعد التشاور، قالوا سنسمح للمجلة بالدخول وإذا شئتم أن تردّوا عليها فردّوا. وكانت المجلة تحمل وتؤكد نظرية داروين، فاعتنقها الزهاوي وردّ عليه الملّائية بأن حرّضوا العامّة ضده ليشتموه في الشارع، بل إن إحدى الجمعيات الدينية أصدرت بيانًا تتهم فيه الزهاوي بإهانة الدين، فخرجت مظاهرة كبيرة قادها الملّائية نهبت الدكاكين وقوافل التجار وصدرت فتاوى بشنق الرصافي الزنديق.

أربعة فقط بشّروا بداروين في الوطن العربي: جميل صدقي الزهاوي، شبلي شميل، إسماعيل مظهر، وسلامة موسى، اثنان منهما مسيحيان. وكانت الكنيسة تقف موقفًا معاديًا لمذهب داروين، بينما الزهاوي ومظهر ينحدران

من عوائل محافظة. ويذكر كاتبو سيرة الزهاوي الكثير من المواقف الطريفة التي مرت بحياة هذا الشاعر، فقد كتب مقالاً في جريدة الأهرام المصرية يعدد محاسن هذه النظرية. وما أن وصلت الجريدة إلى بغداد حتى هاج الخطباء ضده، فطالبوا الحكومة بمحاكمته، بل ذهب البعض منهم إلى إهدار دمه. يقول المستشرق الفرنسي ماسينون، الذي عاش في بغداد آنذاك وكان صديقًا للزهاوي، أنّ الأخير بقي في البيت إلى أن غابت الشمس، فتستّر بالظلام وبقطعة قماش، وذهب إلى أقرب محل عطارة، واشترى كمية من التبغ تكفيه لمدّة إقامته الجبرية في البيت. غير أنّ المفاجأة كانت بانتظار الزهاوي النحيل، فما أن عاد إلى البيت حتى وجد أحد شقاوات ذلك العهد بانتظاره قرب باب البيت. كان الرجل ضخم الجثّة، مُسْتَفَز العضلات، أبلغه بعض العامّة بأنّ الزهاوي يقول "أنّ جدّك قرد". فلمّا وصل الأخير متستّرًا بالليل أمسكه "الشقاوة" من ياقته ورفعه عاليًا، وهو يصيح: "ولك آني جدي قرد؟!" فبادره الزهاوي خائفًا بالقول: "لا عمّي أنا ما قلت جدّك قرد حاشا لله"، ثم كشف عن وجهه ومسك ذقنه بيده وقال: "أنا قرد ابن قرد لسابع ظهر".

في عام 1948م، يصدر أول كتاب باللغة العربية عن داروين. وكان الكتاب بعنوان (فلسفة النشوء والارتقاء) لمؤلفه الطبيب شبلي شميل. ويخبرنا المؤلف في مقدمته أن كتابه يضم مقالات في مذهب داروين، ومباحث لتأييد هذا المذهب، ومناقشات علمية في الحياة لإثبات الرأي المادي، وأخيرًا خلاصات في فلسفة علوم الإنسان.

وكان الطبيب شبلي قد ولد في بيروت عام 1850م، ونشأ في أسرة دينية سرعان ما تمرد عليها لتعارض أفكارها مع صريح العقول الحرة. وقد تعمَّق في دراسة الفلسفة والعلوم، حتى لقَّبه زملاؤه بالأستاذ الفيلسوف. وفي عام 1871م، ينشر بحثًا بعنوان: (اختلاف الحيوان والإنسان بالنظر إلى الإقليم والغذاء والتربية)، جاء فيه بكثير مما وجده يؤيِّد مذهب داروين.

في عام 1875م، يسافر إلى باريس وهناك يتعرف على مدارسها الفلسفية، ويقف على أدلة نظرية التطوُّر، ويطمئن عقله لصحة الأفكار التي سبق أن نادى بها بخصوص نظرية داروين. ويعود من باريس ليسكن القاهرة، يفتتح عيادة طبية يعالج بها المرضى مجانًا، ويصدر أول مجلة طبية عربية بعنوان (الشفاء). لكن هدفه الرئيس للإقامة في مصر لم يكن نشر الطب ولا علاج المرضى بالمجان، وإنما للتبشير بنظرية النشوء والارتقاء، التي اعتقد شميل آنذاك أنها ستكون سببًا في تطور العقلية العربية. ويذهب بعيدًا في تمجيد داروين فيضعه في مصاف أئمة الأمة، فيكتب في مقدمة كتابة الشهير (شرح بخنر على مذهب دارون) قائلاً: "هذا الإمام المقدام، والعالم المدقق، والفيلسوف المحقق". وتبعًا لقانون البقاء للأفضل يكتب شميل رسالة إلى علماء الأزهر يؤكد فيها أن دفاعه عن نظرية النشوء والارتقاء لا يعني أبدًا كفره بالقيم المقدسة، ولا حطِّه من شأن الأنبياء، بل العكس، فإنه ينظر إلى أن: "تجديد الفكر الإسلامي مرهون بقدرة زعماء الإصلاح على فتح باب الاجتهاد مجددًا".

قدم إسماعيل مظهر إلى العربية الترجمة الأولى لكتاب (أصل الأنواع) عام 1918م، وكانت هذه بمثابة علامة فارقة في حياة الرجل الذي كرّس حياته لنشر المعرفة. وفي مقدمة الترجمة يؤكد مظهر أنه حاول من خلال تقديمه لداروين أن يجد سبيلاً وسطًا، وآلية قراءة يقبلها العقل والدين للنظرية الداروينية.

***

ظهر كتاب (أصل الأنواع) في أواخر تشرين الأول عام 1859م، وكان مؤلفه تشارلز داروين قلقًا حول عدد النسخ التي يمكن أن تباع، فقد أقنع شقيقته أن تقرضه مبلغًا من المال سيعيده إليها بعد ثلاثة أشهر. صاحب

المطبعة التي طبعت الكتاب كان يسخر من المؤلف الذي يريد أن يثبت للناس أنهم سلالة من القردة، كان ينظر إليه ويشير للعامل: "يبدو أن السيد داروين يطيل النظر إلى المرآة طويلاً ليثبت نظريته". لكن المفاجأة كانت بانتظار الجميع، فـ (1250) نسخة نفدت في الأسبوع الأول، وكان باعة الكتب يلحّون على صاحب المطبعة أن يعيد الكرة ويطبع نسخًا جديدة. في السنة الأولى يعاد طبع الكتاب ثلاث مرات، ويتجاوز عدد النسخ التي بيعت منه العشرة آلاف، البعض يبحث عن الكتاب ليرضي تطلعه المعرفي، وآخرون لإرضاء فضولهم والجواب على سؤال يشغلهم: هل نحن حقًا سلالة من القرود المتطورة؟

لكن الكتاب في الواقع لم يكن سوى فرضيّة علميّة يطرحها المؤلف للنقاش. وضعها داروين بعد ملاحظات وبحوث ورحلات وقراءات دامت أكثر من عشرين سنة، أراد من خلالها إيجاد السبل للإجابة على سؤال لطالما حيّر العلماء حول الحلقة المفقودة في عملية التطور المعقدة التي تمت عبر ملايين السنين.

يشرح تشارلز داروين العناصر الرئيسية لنظريته في القسم الأول من الكتاب، حيث نجده يناقش الاعتراضات التي يمكن أن تثور ضد نظريته. أما في الأقسام الأخرى من الكتاب، فإنه يخصصها للحديث عن الجيولوجيا والتوزع الجغرافي للنباتات والحيوانات والحقائق ذات الصلة بعلم الأجنّة.

أما الأساس الذي يبني داروين عليه فرضيته تلك فيتعلق برصد التغيرات التي طرأت على النباتات والحيوانات الأليفة، لا سيما منها تلك التي يتحكم بها الإنسان. ويقارن داروين ذلك، أي الفروقات في الأنواع الناتجة عن "الانتخاب الصناعي"، بالتغيرات الحاصلة في الطبيعة من دون تدخل الإنسان، أي الناتجة عن "الانتخاب الطبيعي"، ليخلص إلى أنه:

"حيثما هناك حياة، ثمة تغير وتطور مستمران ناتجان أساسًا من الصراع من أجل البقاء، حيث أن الانتخاب الطبيعي يتفحص كل يوم وكل ساعة وفي كل أنحاء العالم أبسط التغيرات، رافضًا السيئ منها ومضيفًا الجيد إليها، عاملاً بصمت ومن دون إحساس على تحسين كل خلية حية"، وهو يؤكد أننا في الحياة اليومية: "لا نلاحظ أيًا من هذه التغيرات البطيئة أثناء عملها، بل ستلاحظ حين تحفرها يد الزمن على مر العصور".

ما أن صدر الكتاب حتى سارعت الكنيسة إلى مهاجمته معتبرة إياه خطرًا على الدين، ما جعل المؤلف يقول ردًا على هذا الهجوم: "إنهم بالتأكيد لن يحرقوني، لأن ليس ثمة قانون يمكنهم من ذلك، لكنهم سيجهزون الحطب، وعود الثقاب".

يكتب سلامة موسى في (هؤلاء علموني): "لا أعرف كتابًا تأثرت به أكثر مما تأثرت من داروين، فإنه أعطاني القلب الذي أزن به أحيانًا، وأحيانًا أهدم به التقاليد، وجعل التطور مزاجًا تفكيريًا ونفسيًا عندي، بل جعله عقيدتي البشرية التي تنأى بي عن الغيبيات".

(17)

رصاصة همنغواي الأخيرة

ذات ليلة من ليالي الشتاء، دوّت رصاصة من بندقية عتيقة لتنهي حياة أشهر كتّـاب القرن العشرين إرنست همنغواي، وكان قبل ذلك بساعات عجزَ عن كتابة عبارة واحدة لمقال لمجلة لايف. بقي الورق أمامه خاليًا: "لم تعد الكلمات تأتي"، هكذا أخبر كاتب سيرته هوتشنر، ثم بكى.

لا أذكر عدد الكتب التي قرأتها أو تصفحتها عن همنغواي أو "بابا همنغواي" كما أسماه الصحفي الأميركي إي. هوتشنر في كتابه الذي يعد أبرز سيرة أدبية كتبت بأسلوب روائي. كان فيها الصحفي الشاب والمغمور آنذاك يحاول إقناع صاحب (العجوز والبحر) أن يمنحه من وقته خمس دقائق فقط من أجل الحصول على إجابة لسؤال طرحته الصحيفة تحت عنوان (ما مستقبل الأدب؟) لتتحول الخمس دقائق، فيما بعد، إلى رفقة كان فيها الصحفي الخجول قد تحول إلى ظلّ للكاتب العجوز.

"هوتشنر.. إنه اسم يثير التساؤل". قال همنغواي، ثم أضاف: "الحقيقة أنني لا أعلم مقدار ذرة عن مستقبل أي شيء".

ودهشت لتلك الإشارة المفاجئة وقلت: آه طبعًا.

"كم سيدفعون؟" قال مستدركًا.

"15 ألفًا".

نظر إليّ وهو يبتسم ثم قال: "حسنًا، هذا كاف في حد ذاته لبعث مستقبل الأدب".

قبل أسابيع، خطر لي وأنا أقرأ (بابا همنغواي) للمرة الخامسة أو السادسة، وبالتأكيد ليست الأخيرة، تساؤل واحد: ماذا لو لم يوافق همنغواي على إجراء المقابلة؟ ماذا لو أن مؤلف الكتاب اكتفى بالحوار وذهب لعمله الصحفي، ولم يفرغ نفسه لملاحقة الكاتب الذائع الصيت؟ في (بابا همنغواي) نجد أمامنا كاتبًا يقرأ الحوادث واليوميات والأدب بمنطق الباحث واستقصاء الصحفي، وفي كل مرة أعود إلى الكتاب أشعر بالغيرة والحسد، وأنا أقدر الجهد الصحفي فيما أقرأ، لأنني أمضيت جزءًا من حياتي أحاول أن أكتب عن حوادث وشخصيات عايشتها، وفي كل مرة أتذكر كيف أنني في بداية عملي الصحفي، كنت أمنّي النفس أن أصبح مثل همنغواي صحفيًا متنقلاً بين العواصم، وما زالت محاولاتي الأولى في الكتابة هي تقليد "ساذج" لروايته العظيمة (وداعًا للسلاح) والتي هي أقرب إلى سيرة ذاتية، عندما كان همنغواي يعمل ضمن قوات الإسعاف خلال الحرب العالمية الأولى. ويذكر كاتبو سيرته أنه أعاد كتابة (وداعًا للسلاح) أكثر من 39 مرة قبل أن يدفعها للنشر. ومن الطريف أن همنغواي اختار 50 نهاية لروايته هذه، وقد وجدت بين رسائله عبارة كتبها قبل أسبوع من رحيله، تمنى لو أنه ختم بها (وداعًا للسلاح): "ليست هناك أية نهاية ما عدا الموت والولادة هي البداية الوحيدة".

وعندما سئل همنغواي عن سبب هذه النهايات الكثيرة، أجاب: "من أجل الوصول إلى الكلمات المناسبة". كما كتب همنغواي العديد من العناوين المختلفة للرواية، ومنها (حب في الحرب)، و (عن الجراح وأسباب أخرى)، و (السحر) ثم وصل أخيرًا إلى (وداعًا للسلاح) أخذها عن قصيدة لشاعر إنكليزي في القرن السادس عشر.

أتذكر أنني اشتريت كتاب (بابا همنغواي) من الكتبيّ القدير بناي جار الله صاحب مكتبة التحرير عام 1977م. ومنذ الصفحة الأولى شدّني الكتاب، ولم أتركه إلا بعد أن أكملت صفحاته، ولانبهاري به حدّثت معظم الأصدقاء عنه، فطلب أحدهم أن أعيره إياه، واختفى الكتاب مع صاحبي علي نجم الذي تعرض للاعتقال والتغييب بسبب انتمائه للحزب الشيوعي. بعدها بثلاث سنوات، وجدت نسخة من الكتاب عند المرحوم أبي طه، وهو أشهر كتبيّي شارع السعدون وكنت فرحًا به جدًا، لكن فرحتي لم تدم سوى أيام، فقد دخلتُ صحيفة الجمهورية صباح أحد أيام عام 1980م، وما أن أخذت مكاني في الصفحة الأخيرة، ووضعت الكتاب على المكتب، حيث امتدت له يد الأستاذ سامي الزبيدي مسؤول الصفحة الأخيرة الذي طلب مني أن أعيره إياه لمدة يوم واحد، وطال اليوم وتمدد ليختفي الكتاب من جديد. وذهبت إلى العم أبي طه أشكو إليه ضياع الكتاب، فأخبرني أنه يحتفظ بنسخة من الكتاب في بيته سيجلبها غدًا، وهي النسخة التي أصر صديقي جواد الشكرجي أن يستعيرها مني واختفت مثل صاحباتها. النسخة الرابعة اشتريتها عام 1994م، واستولى عليها بالغصب والمودّة الصديق الراحل رياض قاسم كعادته عندما يقرر أن يستولي على كتاب من كتبي. النسخة الخامسة هي التي ترافقني الآن وأنا أكتب هذا المقال.

***

ظل صاحب (وداعًا للسلاح) يشغل العالم حيًا وميتًا، وحتى سنوات قريبة لم يخلُ عام من دون صدور كتاب عنه. وجميع هذه الكتب تتحدث عن سر هذا الرجل وكيف أنتجت "قريحته" كل هذه السطور والعبَر والمشاهد والمواقف التي توزعت بين الدفاع عن الجمهورية الإسبانية وعشق مصارعة الثيران، وبين هواية صيد الحيتان، وكتابة الريبورتاجات الصحفية لمجلة لايف. ويحدثنا الناقد رجاء النقاش في مقال ممتع عن همنغواي أنه استطلع

آراء عشرات القراء كان معظمهم يعتقد أن همنغواي قناع لأكثر من مؤلف، إذ لا يمكن لرجل واحد أن يمتلك كل هذه القدرة على تصوير الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد، فهو رأى الحروب واستمتع بالسلام، وكتب عن الضعف الإنساني والحب والحرب، لكنه كان وسيظل بارعًا في تصوير الأسى البشري، يسأل هوتشنر في (بابا همنغواي) كم يوجد في (لمن تدق الأجراس) من حوادث حقيقية، أجاب "البابا": "إن كل الكتب الجيدة تشترك في صفة واحدة، وهي أنها تحكي الوقائع بطريقة أصدق مما لو كانت هذه الوقائع قد حدثت بالفعل".

كان على همنغواي أن يعيش أكثر من حياتين ليتحقّق له العيش كما أراد، لكن رهافة حسّه وقلقه دفعته ليرسم نهاية محددة لحياته. المشاكس، المقاتل الذي اقترب من الموت أكثر من مرة، الأميركي صاحب الشعر الأبيض، واللمعة الطفولية، المشاغبة، الضاحكة في عينيه، منذ أن نشر في الثانية والعشرين مجموعة قصص قصيرة، رأى فيها فيتزجيرالد، صاحب (غاتسبي العظيم)، ولادة كاتب متميز. ترك اثنتي عشرة رواية ومئات القصص القصيرة، وآلاف المقالات، وخمسة وثلاثين ألف رسالة، ومئات المقابلات الصحفية، وسيناريوهات أفلام.

***

في صيف عام 1926م، بلغ همنغواي السابعة والعشرين من عمره، يجلس وراء طاولته في مقهى يضجّ برواده من النساء والرجال، كان عليه أن يتخلى عن الغرفة التي استأجرها في الفندق، وسيبقى عليه البحث عن غرفة أرخص. الطقس اليوم رديء جدًا، حدث التغيير في يوم واحد فقط، أخذت الريح القوية تعرّي الأشجار من أوراقها، المقهى غطيت شبابيكه بالضباب نتيجة الحرارة والدخان في الداخل، المقهى كئيب وسيئ السمعة، هكذا قال

له صديقه الرسام القصير بيكاسو وهو يشاهد الأوراق تتناثر على المائدة:

"ما الذي يجعلك تكتب وسط المجرمين والسكيرين؟" قال بيكاسو.

ولم يجادله، فهو حاول أكثر من مرة أن يتحاشى الجلوس في هذا المقهى لكن، وبعكس جميع الجالسين، كان يعاني من عادة سيئة هي الإفلاس. فكان يطلب من صاحبة المقهى، وهي امرأة لطيفة المعشر، أن تصبر عليه حتى يتسلم مبلغ التحقيق الصحفي الذي أرسله إلى إحدى الصحف.

انتبه بيكاسو إلى الكتاب المركون إلى جانب الأوراق. سأله: "لمن تقرأ الآن؟"

"د. هـ. لورنس"، قال همنغواي.

"إنه لا يطاق. يكتب مثل رجل مريض"، قال بيكاسو.

"أعجبتني روايته (أبناء وعشاق)".

"لم أستطع إكمالها، إنها قصة ملفقة".

"إذا كنت لا تريد أن تقرأ ما هو سيء، فعليك أن تقرأ فوكنر".

كان يعزّي نفسه بالنجاح، فجميع الذين وصلوا إلى هذه المدينة استطاعت كتبهم أن تنقذهم من العوز والألم. هل يتنازل عن الحلم أو يتخلى عنه؟ هل من الكثير عليه أن يرى كتبه تتصدر واجهات المكتبات؟ إنه يتأمل كثيرًا، صحيح أن الكتابة أمر شاق، وهذه الرواية الثالثة له، بعد (الشمس تشرق أيضًا)، و (وداعًا للسلاح) التي قال عنها المحرر الأدبي للواشنطن بوست إنها أسوأ رواية قرأها خلال سنوات طويلة. لكن صديقه سكوت فيتزجيرالد قال له أن لا يأخذ آراء النقاد على محمل الجد.

في أحد الأيام يصله طرد بريدي من نيويورك يعلمه أصحاب دار النشر

التي طبعت روايته (وداعًا للسلاح) أن القراء تدافعوا بالمئات للحصول على نسخة منها.

قالت له جيرترود شتاين وهي تتأبط ذراع بيكاسو: "لا تفرح بالنجاح. عليك أن تبدأ كل مرة من جديد".

يتذكر أن روايته الأولى لم تلق النجاح المطلوب، وعليه أن يسدّد ثمن الخسارة للناشر. لكنها بعد نجاح (وداعًا للسلاح) وضعت على قائمة الكتب المفضلة، فبيع منها عام 1930م أكثر من 25 ألف نسخة. أخذ يؤمن بأن الانتصار سيكون حليفه، قال لصديقه سكوت فيتزجرالد: "ليتني أتمكن من كتابة رواية كل شهر، هناك أفكار وصور وحكايات تعشعش في رأسي". بعدها بأعوام يتذكر حركاته الصبيانية هذه فيقول لهوتشنر: "لم أكن أعرف آنذاك كيف تكتب الرواية الجيدة. كنت أستعجل النجاح، لذا لا زلت أعتقد أن ما كتبته في بداية حياتي عبارة عن كوم من الأوراق السيئة".

في ذلك الوقت أغرم بدستويفسكي: "إنه مثال للصانع الماهر، يعلمنا كيف نفكر، وكيف نتقن الكتابة عن البشر".

عاد إلى المقهى الضاج بضحكات السكارى قال للعامل: "انتهى زمن التشرد".

***

كان عليه أن يعيش أكثر من حياة ليتحقّق له العيش كما أراد، لكن الحكاية التي تجلب له المجد لم تكتب بعد. يجلس وراء منضدة الكتابة ويشرع بالعمل، في السابق كان يستخدم الآلة الكاتبة، لكن الآن أقلام الرصاص تستهويه أكثر. يكتب السطور الأولى من روايته الجديدة: كان رجلاً أضنته الشيخوخة يعمل بالصيد وحده في مركب شراعي، في مجرى الخليج، لم يظفر حتى الآن بسمكة منذ أربعة وثمانين يومًا مضت.

وفي الأيام الأربعين الأولى كان برفقته صبي، بيد أنه بعد مرور أربعين يومًا بلا صيد انبرى والدا الصبي يقولان له: "إن الرجل العجوز لا شك قد أصابه النحس وهذا أسوأ ما يُبتلى به الإنسان".

بوضوح يرى همنغواي صيّاده العجوز، ضعيفًا مسكينًا، تجاعيد الوجه بارزة، يداه مليئتان بآثار الحبال الخشنة، كل شيء فيه وفي القارب يبدو عتيقًا ومستهلكًا، إنه وحيد، حتى الصبي الذي علمه الصيد تركه يائسًا، لا أسماك، لا شيء سوى الوحدة. خلال أسبوع واحد فقط يكتب الخمسين صفحة الأولى، غدًا عطلة سيقضيها في صيد النمور مع أصدقائه، لكنه في اللحظة الأخيرة يغير رأيه، صورة العجوز لا تفارقه. فقد أخذ مركبه وتوجه إلى وسط البحر، حيث سيجدد محاولاته التي لا تنتهي لاصطياد سمكة كبيرة. لن يوقفه الفشل، ولا تنهكه المحاولات غير المجدية، منذ أيام لم تَلُح في عرض البحر أي سمكة، إنه الآن وحيد لا شيء سوى زرقة الماء، إنه لا يهتم للزمن. فالزمن ليس شيئًا بالنسبة إليه، إنه هنا لكي يصطاد السمكة وسيصطادها حتمًا. ستأتي ذلك اليوم الذي يثبت للجميع فيه أنه صياد ماهر، الصياد مشدود الأعصاب، وقارئ الرواية سيظل يقلب الصفحات بلهفة حتى اللحظة التي يتنفس فيها الجميع الصعداء. فها هي السمكة تصل أخيرًا. الآن لاحت، وصاحبنا العجوز أدرك جيدًا أن الصراع قد بدأ. فالسمكة كبيرة مخيفة... لكنها بدلاً من أن تستسلم تبدأ بالنزال: "أيتها السمكة إنني أحبك كثيرًا وأحترمك، لكنني بالتأكيد سأنال منك". وتمر الأيام والعجوز صامد والسمكة لم تتعب بعد أخيرًا، عند صباح اليوم الثالث تظهر بلونها الفضي اللامع. ويصرخ العجوز: "أخيرًا رفعت راية الاستسلام"، وها هو حلمه يتحقق، السمكة تنزف دمًا، وتعلن عدم مقدرتها على المضي في النزال، هل انتهت الرواية؟ يأخذنا همنغواي في رحلة جديدة لم نتوقعها، فها هي دماء السمكة تجتذب أعدادًا من أسماك القرش التي تقترب لتنافس الصياد

العجوز على فريسته، وهنا يكون على سانتياغو أن يخوض صراعًا جديدًا. لكنه هذه المرة صراع لإنقاذ فريسته من الموت، لن تتوقف الحرب ما دام يملك نفسًا ورغبة في الانتصار.

***

قالت زوجة همنغواي: "إن الرصاصة انطلقت خطأ بينما كان ينظف بندقيته".

قال لهوتشنر: "لقد أمضيت وقتًا كبيرًا في قتل الحيوانات لكيلا أقتل نفسي". كانت الكتابة ملاذه من هاجس الموت، احتقر التزويق في الكتابة وأحب الاقتصاد. حين منحته الأكاديمية السويدية نوبل الأدب في 1954م، رأت فيه كاتبًا تمكّن من فن السرد، خصوصًا في (الشيخ والبحر) وتأثيره في الأسلوب المعاصر. خشي ألاّ يكتب شيئًا ذا قيمة بعد الجائزة، لكنه وجد في أوراقه القديمة مئات الصفحات عن حياته في باريس، فأصدر وليمة متنقلة، وفيها تحدث عن حياته كاتبًا فقيرًا.

في (بابا همنغواي) نقرأ الصفحات الأخيرة: "إن أفضل شيء في الحياة هو فرص كسب المعارك، ولكن بم يهتم الإنسان؟ الصحة، العمل الطيب، الأكل والشرب، الاستمتاع بلذة الفراش، ليس عندي شيء من هذا، لا شيء منه".

(18)
قطعة البسكويت التي أنتجت أهم روايات القرن العشرين

حين خطوت خطواتي الأولى في مجال الكتابة، في ذلك الوقت كنت أنشر مقالاتي في مجلة الثقافة التي يرأس تحريرها المعلم صلاح خالص. هناك كنت أشاهد الروائي الكبير فؤاد التكرلي بأناقته الشبيهة بنجوم السينما، وهو يجلس يضع رِجلاً على رِجل ينهمك في نقاش حول الأدب، في ذلك الوقت كان صلاح خالص يبشر بالواقعية الاشتراكية وضرورة أن يلتزم الأدب بالدفاع عن قضايا الناس. فيما التكرلي يبتسم وهو يرد بكلمات منتقاة عن فوضى الأدب، وهذا الكم الهائل من الكتّاب الذين لا وجهة لهم، ويضرب التكرلي مثلاً بالأعمال العظيمة، وأسمع منه حديثًا شيقًا عن رواية دون كيشوت التي كنت قد قرأت ملخصًا لها في مجلة تراث الإنسانية. وتتناهى إلى سمعي كلمات مثل بروست والزمن الضائع، ولم يكن اسم مارسيل بروست غريبًا علي، فقد قرأت عنه في العديد من المطبوعات، وكنت اقتنيت رواية له بعنوان (غرام سوان) صادرة عن سلسلة كتابي الشهيرة، وأتذكر حينها أنني لم أفهم من الرواية شيئًا سوى مقدمة حلمي مراد التي يخبرنا فيها أن هذه الرواية جزء من عمل أدبي كبير. وكنت أعتقد أن لا أحد من الذين يتحدثون عن مارسيل بروست تمكن من قراءة روايته الشهيرة (البحث عن الزمن المفقود) التي كانت الأجزاء الأولى من ترجمتها إلى اللغة العربية قد صدرت عن وزارة الثقافة السورية. وأتذكر أني قرأت أن الروائي المصري نجيب محفوظ استطاع خلال عمله موظفًا بالأوقاف أن يحصل على نسخة أصلية لرواية بروست

الشهيرة (البحث عن الزمن المفقود) بالفرنسية، وقد عكف على قراءتها بتأن وصبر حتى أنها أخذت من وقته عامًا كاملاً.

كنت أنتظر زيارة التكرلي الأسبوعية لمجلة الثقافة كي أسمع منه حديثًا عن الرواية، كما لو أنه يتحدث عن عينين تبصران في الظلمة، كاشفًا لنا عن تصوره للرواية وهو يتحدث بحميمية عن هذا الفن: "ملايين الصفحات من الكتابة الروائية على مدى العصور تعبر عن ذواتها وتفصح عن طويات نفوسها وتبثّ أحزانها وأفراحها وتعلن عن أفكارها ومشاريعها وشكوكها.. أي أنها تمارس عملية بوح مستمرة، عملية البوح هذه جعلت روائيًا مثل مارسيل بروست يكرّس حياته ليخرج للعالم ملحمة روائية تجيب على سؤال: من أنا".

***

كان في التاسعة حين أصيب بأول نوبة ربو، وكاد يموت تحت بصر والده الذي قال لأمه: "لا أعتقد أن هذا الطفل سيعيش حتى عمر العاشرة". كان ذلك عام 1880م، حيث تعوّد مارسيل بروست أن يصعد إلى غرفته الصغيرة يحلم بأن تطبع أمه على وجنته قبلة الخلود إلى النوم، استلقى على سريره ليلاً يحصي ما كرهه فيما حوله، ملابس النوم التي يتخيلها مثل الكفن، والساعة التي تتوسط الغرفة تعد الوقت مثلما يعده أبوه. يقول جيرمين بيريه صاحب الكتاب الشهير (التخلص من الزمن) الذي ترجمه إلى العربية نجيب المانع أحد دراويش مارسيل بروست: "في كل صفحة من ملحمة بروست (البحث عن الزمن المفقود) كانت هناك أشباح غرفة النوم حيث نجد موضوع غرفة النوم كاللحن المعاود يعزف أمام أعيننا ثم يتلاشى فاسحًا للنغم الذي يليه".

كتب روايته الوحيدة التي تتألّف من سبعة مجلدات، وأربعة آلاف

صفحة، ومليون ونصف المليون كلمة، وأكثر من ألفي شخصية في (البحث عن الزمن المفقود)، كما جاء في الترجمة العربية التي بدأها إلياس بديوي في نهاية السبعينيات، وتوقف عند الجزء الخامس ليكمل ترجمة الجزئين الأخيرين المترجم جمال شحيذ عام 2005م، الذي تمنى لو أن الترجمة العربية كانت بعنوان (في البحث عن الزمن المفقود)، لأن سباعية بروست هي بمثابة بحث روائي عن الزمن. حيث تبدأ الجملة الأولى في الجزء الأول بكلمة "زمن" وتنتهي الرواية بهذه الكلمة أيضًا. ويحصي الناقد تشارلز مورجان في (الكاتب وعالمه) المرات التي جاءت بها كلمة الزمن في الرواية لنجدها 1637 مرة.

في مراهقته، حرم من لقاء فتاة أحلامه ماري بيرناداكي التي كانت من أكبر غرامياته التي أخبره أبوه ذات يوم أن عليه أن يقطع علاقته بها بسبب صيت أمها. أدمن الوحدة بناءً على وصايا أمه بالحفاظ على صحته الضعيفة، بعد واحدة من خلواته الليلية، جلس في غرفته يقرأ مرتجفًا من البرد، قدّمت إليه خادمته سيلين فنجانًا من الشاي مع صحن من الكعك الذي ما أن وضع قطعة منه في فمه حتى غمره شعور بالنشوة. أغمض عينية ليسترجع ماضيًا كان قد اعتقد لسنوات أنه دُفن بين رُكام الذاكرة. أعاده طعم الكعك إلى بيت عمته التي كانت تحضّر له كلّ صباح هذا النوع مع كوب من الشاي، ليتجه بعدها إلى مكتبه الخشبي يخرج الأوراق ليخط الجملة الأولى في روايته: "كثيرًا ما أويت إلى سريري وكانت عيناي أحيانا حالما أطفئ شمعتي وتغمضان بسرعة لا تدع لي متسعًا من الوقت أقول فيه: أنني أنام".

عام 1913م، ظهر الجزء الأول من الرواية بعنوان (جانب منازل سوان) على نفقة المؤلف نفسه بعد رفض معظم دور النشر الفرنسية نشر الكتاب، والغريب أن أندريه جيد الذي كان يرأس لجنة القراءة لدى دار النشر الشهيرة "غاليمار" هو الذي أوصى بعدم نشرها.

وكان بروست قد بعث برسالة إلى الناشر غاليمار عام 1912م، يقول له فيها إنه يفكر في طبع رواية بجزئين، ويطرح على الناشر أسئلة تتعلق بالطباعة، فيجيب الناشر في رسالة تتضمن العبارات التالية: "يمكننا إخراج مجلدين من 550 صفحة ويمكننا طرح الجزء الأول للبيع في أذار من العام المقبل". ويقترح بروست فيما بعد على الناشر ثلاثة أجزاء بعنوان رئيسي (تقلبات القلب). المجلد الأول بعنوان فرعي (الزمن المفقود)، والمجلد الثاني بعنوان (في ظلال ربيع الفتيات)، والمجلد الثالث بعنوان (الزمن المستعاد). وفيما كان بروست يعتقد بإمكان إصدار الرواية في الأشهر القادمة، يرضخ الناشر غاليمار في النهاية إلى لجنة القراءة التي يرأسها أندريه جيد، والتي وجدت في الكتاب الضخم مجموعة خواطر تفتقر إلى الحبكة الروائية، لكن أندريه جيد يعود بعد أعوام ليبدي أسفه على رفض الرواية، ويكتب مقالاً في مديح بروست واصفًا الرواية بأنها تحفة فنية: "إن معنى رواية بروست ليس ذاتيًا محضًا، تبعًا لذوق كل فرد وهواه. فالمؤلف يدفعك منذ البداية إلى سؤال الأسئلة، وليس فقط الأسئلة الواضحة أو التي لا محيد عنها.. إن القارئ ربما يشكو أحيانًا من أن بروست يحجب عنه التفسيرات حتى عندما يسهل عليه أن يفسر، ولكن هنا يكمن خطأ القارئ في فهم طبيعة الرواية البروستية".

لم يعتمد بروست على أحد الأساليب المشاعة في الكتابة الروائية، بل صنع لنفسه أسلوبًا خاصًا ومختلفًا يقوم على الجمل الطويلة، والعبارات المكررة، والشروح اللامتناهية، والتفاصيل المكثفة، ممّا يجعل من قراءة الرواية أمرًا مجهدًا. لكنّه أراد كما قال لمربيته سيلين أن يدحض مقولة "البساطة تصنع الجمال"، ليثبت أنّ التعقيد أيضًا قد يصنع الجمال. ويخبرنا مترجم النص العربي جمال شحيذ في مقدمته للجزء السابع من الرواية: "كنت أقع أحيانًا على جمل عملاقة تبلغ 35 سطرًا، فأحار في البداية من أين أبدأ، ما كان يدفعني إلى قراءة الجملة مرات ومرات. وأحيانًا كنت أقطّع الجملة جملتين أو أكثر.. أما

الصعوبات المتمثلة بالإحالات التاريخية أو الفنية أو الفكرية، فكنت أحلها بالعودة إلى القواميس والموسوعات. وإزاء بعض الجمل الضبابية كنت أسأل أصدقائي الفرنسيين، وفي غالب الأحيان كانوا لا يفهمون بروست أكثر مني، فألجأ إلى تشجير هذه الجمل كي تتبدّى روابطها ومفاتيحها في المحصلة. وتفنن بروست في تلوين جمله وهندستها، فتارة هي حلزونية، وطورًا هي إهليلجية، وأحيانًا مستقيمة مثل الألف الحق، وأحيانًا أخرى هي جرفية تشبه تضاريس أرض تركت فيها البراكين كثيرًا من النتوءات والمهاوي. ومما جعلني أقدم على هذه الترجمة هو إعجابي بعبقرية هذا الرجل الذي سمّاه البعض ملاك الليل".

يكتب صاموئيل بيكت: "إن القارئ للملحمة بروست هذه لا يمكن له أن يمرّ سريعًا على المقاطع التي يقف فيها الروائي عند الأحاسيس التي ترزح تحتها شخصياته". علمًا أنّ معظم شخصيات الرواية مستوحاة من أشخاص عرفهم بروست وعاشرهم وعايشهم في حياته، لا سيما من قلب المجتمع الأرستقراطي الذي عاش فيه. وفي لحظات معينة، قد تتحوّل الرواية في عيون قارئها إلى آلة تصوير تلتقط أدق المشاعر، لكنّ بروست، الرجل ذا الحساسية المفرطة، انتبه إلى خطورة انفلات الزمن من بين يديه. وبدلاً من أن يترك للزمن فرصة أن يتتبعه، ارتأى أن ينقضّ هو على حركة الزمن ليصطاد منها اللحظات الهاربة.

ولعلّ البعض يسأل كيف يمكن أن نقرأ رواية بكل هذا التعقيد؟ يجيب الناقد الشهير هارولد بلوم في كتابه (كيف نقرأ ولماذا) قائلاً: "كيف نقرأ رواية بروست بصفة خاصة؟ نقرأ بحب إذا كانت قادرة على إشباع حب قارئ، وبغيره لأنها يمكن أن تكون صورة لمحدودية الإنسان في الزمان والمكان، ومع ذلك يمكن أن تعطي أنصار بروست بركة المزيد من الحياة".

يبرع بروست في رسم الشخصيات عبر تصوير دواخلها. ولأنّ قرّاء بروست عرفوا أن شخصياته مستقاة من الواقع، صاروا يحاولون في كلّ مرة إسقاط الشخصيات الروائية على شخصيات عاشت معه، قائلاً: وهذا ما كان يُزعجه لأنّه أراد لشخصياته أن تظلّ محصورة في عالمها الروائي كشخصيات قائمة في ذاتها.

***

في مساء السابع من تشرين الثاني عام 1922م، قال بروست لأحد أصدقائه إنه إذا عاش هذه الليلة فإنه سيثبت للأطباء أنه أقوى منهم، ومن بين هؤلاء الأطباء كان أخوه روبرت الذي توسل لمارسيل من أجل أن يعالج في عيادة طبية، ما حدا بمارسيل منعه من دخول البيت. لقد كان بروست يتشاءم من عيادات الأطباء، فهو يتذكر أن أمه أخبرته أنها كادت تموت عند ولادته، وأنه ولد عليلاً ومحتاجًا للرعاية، كانت تنتابه مخاوف ليلية، وكان يغرق كل مساء في حزن عميق، فهو ضعيف البنية شديد الحساسية وفوق هذا هو مدلل والدته، التي ارتبط بها بشكل عنيف. وقال لأمه ذات يوم إنه يفضّل أن تنتابه أزمة الربو وتظل أمه بالقرب منه لا تفارقه. في يومياته التي نشرت بعد وفاته نجد حنينًا مفرطًا لهذه الأم: "أنتِ التي تحبينني، لا تجعليني أبتعد عنك، فالموت ينتظرني في الخارج".

وفي (البحث عن الزمن المفقود) يحاول بروست تذكر الماضي مع أمه، أن يتذكر أيام طفولته الأولى، حين كانت أمه أحيانًا ترفض الصعود إلى غرفته لتطبع قبلة على جبينه قبل أن ينام. أراد أن ينتشل الأيام الماضية من هوة النسيان، وهو يلتقي بالصدفة السعيدة التي تمكنه من ذلك حين عاد ذات يوم ممطر، وكان قد تخطى الثلاثين من العمر حزينًا، مهمومًا. فعرضت عليه أمه التي رأت أنه بردان أن يشرب قليلاً من الشاي، وعندما وافق أرسلت

من يشتري له نوعًا من الكعك اسمه "أدلين الصغيرة". غمس قطعة منه في الفنجان ثم رفعها في الملعقة إلى شفاهه، وفي اللحظة التي مست فيها الجرعة الممزوجة بفتات الكعك سقف حلقه، انتفض منتبهًا إلى التحول العجيب الجاري في أعماقه، لقد اجتاحته: "نشوى لذيذة، منعزلة دون معرفة سببها، أحالتني فجأة لامباليًا أمام تقلبات الحياة، محصنًا ضد كوارثها، وأحالت قصرها وهميًا بنفس الطريقة التي يفعل بها هذا الحب، مالئة إياي بجوهر نادر، أو بالأحرى هذا الجوهر لم يكن فيّ، لقد كان أنا. لم أعد أشعر بنفسي تافهًا، عرضيًا، فانيًا.."

***

في أواخر أيامه شعر بروست بصعوبة في الكلام، حين زاره أندريه جيد وجده شاحب الوجه مرتجفًا، رغم أن الجوّ لم يكن باردًا، فيكتب: "أعتقد أنها النهاية، فقد وجدته مريضًا للغاية". قبلها بأيام كان فرانسوا مورياك قد أجبره على تناول الطعام بصعوبة فيما بروست يقول لضيفه: "لا تتصور كم كنت قريبًا من الموت". قال لمربيته: "حان الوقت لمناداة الأطباء"، كان يهمس بصوت مضطرب: "أمي"، ثم دخل في حالة غيبوبة. يسرع أصدقاؤه إليه فيجدونه هادئًا فاتحًا عينيه ممسكًا بيد شقيقه الذي طالما تحدث معه عن الماضي، عن أبيه، عن أصدقائهما القدماء. لم يستمر طويلاً في تذكر الزمن، فقد كان شبح الموت أقرب إليه. ينظر جان كوكتو إلى المدفأة التي تكدست فوقها دفاتر (البحث عن الزمن المفقود) ليكتب بعدها في رثائه: "للأسف كان يسبق عصره، إنه مثل ستندال الذي لم نعرف قيمته أثناء حياته".

(19)

الحب هو ألا نقول أبدًا إننا آسفون

كان على فراش موته في مطلع عام 2010م، بين غيابٍ وصحو، حين سأل ابنته التي لم تفارق سرير مرضه: "هل ما يزال الحب حاضرًا بقوة عند الشباب؟" قبل أربعين عامًا، حين كتب إريك سيغال روايته الشهيرة (قصة حب) كان آنذاك يعيش حياة بسيطة كأستاذ جامعي يلقي على طلبته محاضرات في الأدب، ويقرأ كل يوم فصولاً من روايته الأثيرة (ذهب مع الريح)، ويحلم أن يصبح نجمًا محبوبًا من النساء مثل كلارك غيبل الذي أدى باحتراف دور ريت بتلر في الفيلم الشهير المأخوذ من الرواية. لكن سيغال وهو يمسك بيد ابنته، تساءل مع نفسه عما إذا كان في حياته إنسانا طيبًا، أراد أن يقدم تفسيرًا جديدًا للحب الذي ظل الكُتّاب والمفكرون يضربون أخماسًا بأسداس وهم يحاولون حل لغزه، حيث لم يوفق أوفيد الذي ظهر قبل أكثر من ألف عام تاركًا القضاء والسياسة متفرغًا لكتابة موسوعته (فن الهوى) في أن يدرك سر العشق، وحين عصفت الأهواء بشيخ مثل تولستوي انزوى جانبًا ليسطر ملحمة الحب في (آنا كارنينا).

ظل سيغال يشرح لطلبته ويحدثهم عن كبار الكُتّاب الذين تركوا لنا أحكامهم عن العشق. ومن خلال آثارهم نعرف أن ستندال كان مغرمًا بزوجة جاره فقرر أن تكون بطلة عمله الكبير (الأحمر والأسود)، ونعرف أن د. ج. لورنس الذي كتب أعنف قصص الغرام، لم يقبل أن يرى ضعفه سوى شخص واحد هو محبوبته. وأن شاعرًا مثل لويس أراغون يضع آلاف

القصائد ونحو 60 رواية من أجل معشوقته إلزا. وكان مواطنه فلوبير قد قسّم الحب إلى أربعة أشياء: عاطفة، وذوق، وحس، وكبرياء.

لكن إريك سيغال لم يكن مغرمًا بأراغون، ويعترف أن الحب لا يمنحك الحق بأن تصبح مجرد ظل لمحبوبتك، ولا هو سبب للهلاك، مثلما كتب أراغون يومًا لإلزا: "يا حبي العظيم، يا سبب هلاكي، الحب السعيد لا يمكن أن يوجد".

***

كانت مارغريت تعاني من كسور في العظام، وهي منذ ثلاث سنوات لا تستطيع مغادرة الفراش، تقضي أيامها ولياليها في قراءة الروايات. وذات يوم يسألها وهو يشير إلى أكوام الكتب التي تكدست حولها: "لماذا لا تكتبين روايتك الخاصة؟"، المرأة الصغيرة ذات العينين الزرقاوين والمولودة عام 1900م، كانت كل مساء تذرف الدموع وهي تعيد قراءة صفحات من رواية ألكسندر دوماس الشهيرة (غادة الكاميليا)، ولا تزال تتذكر كيف أن أمها عاشت حياتها مغرمة بهذه الرواية، وقد أخبرتها أنها أصرت أن تسميها مارغريت تيمنًا باسم بطلة الرواية التي تواجه أخلاق المجتمع الزائفة، فتموت وحيدة بعد أن وقف الجميع ضد قصة حبها مع الشاب أرمان دوفال.

حين نشر دوماس الابن روايته (غادة الكاميليا) عام 1848م، كان في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يتوقع أن تحقق هذا النجاح الكبير الذي حوله، بين ليلة وضحاها، من كاتب مغمور إلى نجم تطارده المعجبات. الجميع يسأله عن الفتاة مارغريت غوتييه التي كانت تشتهر بحبها لأزهار الكاميليا، وحكايتها وكانت مارغريت على وشك إقامة العائلة الأرستقراطية الثرية، الذي هامت به وهام بها وحين يبدآن في عيش حكاية غرام حقيقية تريد مارغريت عبرها أن تبتعد عن عالم اللهو الذي انغمست فيه، أملاً في أن

يعطيها الحب طهرًا تتوق إليه. وإذ يخيل إلى العاشقَين أن الحب ونبله سيدومان معهما إلى الأبد، يأتي تدخل والد أرمان، الذي يجن جنونه حين تتناهى إليه حكاية الحب بين ابنه ومارغريت، فيسارع إلى لقائها ويقول لها إن حبها لابنه سيؤدي إلى دمار مستقبل الشاب، وسيقف عثرة في وجه مستقبله. وتدفعها نزعتها الإنسانية إلى الاقتناع بمنطق الأب، فتقرر بأن تضحي بنفسها وبحبها من أجل سعادة أرمان وسمعته ومستقبله.

أعادت مارغريت في ذهنها أحداث رواية دوماس الشهيرة، ثم أمسكت القلم ووضعت أمامها مجموعة من الأوراق، وبدأت تكتب: "لم تكن سكارلت أوهارا في الحقيقة فتاة خارقة الجمال، لكن قلّما كان الرجال يستطيعون مقاومة فتنتها الساحرة، كان وجهها جذابًا، أما عيناها فتلمعان بنظرات لاسعة كالسياط". ستدور أحداث الرواية التي لم تختر اسمًا لها في مدينة أتلانتا التي عاشت فيها طفولة سعيدة. أمضت ساعات تكتب وحين انتهت أخفت الصفحات تحت الوسادة، لم تكن تريد أن يعرف زوجها أنها أخذت بنصيحته، كانت مقتنعة بأن محاولتها في الكتابة ستكون لها وحدها، لأنها لن تجرؤ على نشر هذه الصفحات التي خطّتها على أوراق ملونة وبأحجام مختلفة، فالأمر أولاً وأخيرًا هو محاولة لقضاء الوقت، والتغلب على ضجر الرقاد في السرير لأكثر من ثلاثة أعوام.

لكن بعد أكثر من تسعة أشهر تبدأ الأوراق تتضخم، ولم يعد الأمر سرًا أنها تجرب حظها في الرواية. فالفتاة النحيلة التي عملت في الصحافة كمراسلة لمدة سنوات في قسم المحليات، كانت تدرك جيدًا أن ما يجري على أرض الواقع لا علاقة له بالخيال، فجراند أوهارا اللاجئ الإيرلندي الذي دخل الولايات المتحدة عام 1848م قرر أن يقضي حياته في هذه المدينة، فاشترى مزرعة وتزوج، وها هو سعيد ببناته الثلاث، إحداهن أطلق عليها اسم سكارلت ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراوين والطباع الحادة، والتي

ما أن بلغت السادسة عشرة من عمرها حتى بدأت عيون الرجال تطاردها، والجميع يطلب رضاها. لكنها تختار أشلي ويلكس، شاب عاطفي وحالم، لكنه مغرم بفتاة أخرى اسمها ميلاني التي يتزوج منها، ما يجعل سكارلت تفقد أعصابها، وتقرر في لحظة غضب أن تتزوج أول إنسان يتقدم إليها. ويقع الاختيار على شقيق حبيبها أشلي، وما هي إلا سنوات قليلة حتى تقع الحرب الأهلية الأميركية. أشلي وشقيقه يذهبان إلى القتال، ويموت زوج سكارلت، فيما يواصل أشلي القتال، وخوفًا من اقتراب نيران الحرب من أبواب أتلانتا، تفكر سكارلت بالهرب مع ميلاني وطفلتها، فتطلب من غني الحرب الشاب اللعوب، ريت بوتلر مساعدتها. تقضي شهورًا تتجول بين المنحدرات والغابات، وما أن تضع الحرب أوزارها، تقرر العودة إلى مدينتها، لكنها لا تجد الآن سوى بيوت محروقة، الأم توفيت والأب أصيب بمرض عقلي بعد أن رأى عالمه الذي بناه بيديه ينهار أمامه، لكن سكارلت تقرر أن تبني كل شيء من جديد معاهدة نفسها أن لا تهزم ثانية.

بعد أن علم الزوج أن مارغريت تواصل كتابة عملها الروائي أخذ يسألها بين الحين والآخر: "أين وصلت الرواية؟"

- لكنها يا عزيزي مجرد أوراق كتبتها للترفيه عن نفسي.

كان الزوج مقتنعًا بأن زوجته المقعدة ليست في حالة صحية وذهنية تؤهلها للدخول إلى عالم الأدب، ولهذا لم يطلب منها يومًا أن يقرأ ما كتبته، هذا إضافة إلى أن خطها رديء، لكنها لا تزال تطلب المزيد من الكتب، كل شيء عن الحرب الأهلية، مجلدات عن تاريخ أميركا وجغرافيتها، يقول لشقيقتها:

- ليتني لم أقترح عليها ذلك الاقتراح.

وبعد أسابيع يسألها: ماذا سيكون اسم الرواية؟

"ذهب مع الريح"، هذه العبارة التقطتها من قصيدة كانت قد قرأتها قبل أيام، ثم أضافت: "إذا ما انتهيت من هذه الأوراق فلن أعود للكتابة ثانية".

"كما تشائين"، قال لها، وهو يلاحظ أن صحتها بدأت تتحسن، كلما تقدمت في صفحات الرواية.

لكنها تواجه مشكلة، فقد انتهت من كتابة الرواية باستثناء الفصل الأول الذي وجدت صعوبة في إكماله بعد أن كتبت السطور الأولى، ولكن من سيهتم للفصل الأول؟ إذا كانت الرواية لن ترى النور وسيقرأها المقربون فقط. وذات مساء، قالت لزوجها:

-لن أسمح لأحد بقراءة ما كتبت، هذا قرار نهائي.

إلا أن المفاجأة كانت في انتظار الجميع. فقد وقعت الأوراق بيد ناشر مغامر، كان يبحث عن مؤلفين شباب، لكنه يواجه مشكلة رغم إعجابه بالرواية فهي بلا فصل أول: "ربما تكون هذه صرعة جديدة"، قال لأحد العاملين معه. لكن قرار طباعتها كان قد اتخذ رغم أن مارغريت كانت عاجزة عن إكمال الرواية. لا يهم ليقرأها الناس كما هي. الناشر الذي كان يتوقع أن الخمسة آلاف الأولى من الرواية التي طبعها ستباع خلال عام أو عامين، ولم يكن يحلم أن تصل المبيعات خلال العام الأول إلى عشرة ملايين نسخة.

***

كان الشاب الثري أوليفر باريت يدرس القانون في جامعة هارفرد، لم يتوقع أن تسحره الصبية الجميلة جنيفر كافيلري، والتي كانت تدرس الموسيقى. هو ينتمي إلى أسرة ثرية تمارس السياسة والاقتصاد، بينما هي فتاة من عائلة فقيرة والدها خباز، لكن الحب بدأ يأخذ مجراه، ولا مكان لأن نقول إننا آسفون.

ورغم أن الأحداث تجري في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، إلا أن أسرة ذلك الشاب ترفض فكرة زواجهما وتقف حائلاً دون تلك العلاقة، التي كانت تشعر كلاً من الشاب والشابة بالأمان والاستقرار والفرح. حكاية على غرار روميو وجولييت لكن بصيغة أميركية، الشاب يقرر تحدي أسرته فيتزوج من حبيبته، ليجد نفسه يعيش في عوز مالي بعد أن عاش في إمبراطورية مالية. لكنه يواصل المشوار ويتخرجان من الجامعة، وكان حلمهما أن يرزقا بطفل، فيذهبان إلى طبيب تحاليل بحثًا عن أسباب العقم ليكتشفا سرًا خطيرًا، فجنيفر مصابة بسرطان الدم، والموت يقترب منها، إلا أنها تصر على مواصلة الحياة والحب بنفس المتعة والمسرة التي عاشتها مع حبيبها في الجامعة. سيفرّق الموت بينهما، لكن الحب أقوى، ولن يجعلنا نقول آسفون على أيامنا التي مضت، وتموت جولييت الأميركية. لكن الرواية التي لم يتجاوز عدد صفحاتها الـ 150 صفحة ترفض أن تموت فهي، وعلى مدى سنوات، ظلت على لائحة الكتب الأكثر مبيعًا، عشرات الملايين من النسخ توزع في كافة أنحاء العالم.

"ما السر؟" يتساءل الناقد الأدبي لصحيفة النيويورك تايمز.

الجواب: لأنها رواية بلا مغامرات ولا بطولات ولا مطاردات، مجردة قصة رومانسية مؤلفها لم يحاول أن يتبع الأساليب الحديثة في الكتابة، لم يقترب من جيمس جويس ولا فرجينيا وولف، وكانت أستاذته في الكتابة امرأة ضعيفة البنية اسمها مارغريت ميتشل، كتبت على سرير المرض رواية وحيدة اسمها (ذهب مع الريح)، وحين تشفى وتستعيد عافيتها وتتذوق النجاح والشهرة، تنتهي حياتها تحت عجلة سيارة مسرعة.

ومثل مارغريت ميتشل، كان سيغال حائرًا في الفصل الأول. هل يبدأ الرواية بلحظة التعارف أم يبدأها من النهاية؟ لتكن (ذهب مع الريح)

مرشده إلى هذا العالم العجيب والمدهش، فتبدأ الرواية بلا فصل أول: "ما رأيك يا قارئي في فتاة ماتت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت جميلة وذكية، أحبت موزارت وباخ وأحبتني". نحن أمام محاولة لاستثارة مشاعر القارئ، وطوال صفحات الرواية يمضي المؤلف في وصف حياة الشابين، يخصّص الصفحات الأخيرة لوصف موت جنيفر بكل تفاصيله، إنها قصيدة ألم، وليست قصة حب، حتى أن قرّاء الرواية يظلون مسمّرين في أماكنهم، تخنقهم العبرات، وتخرج مجلة التايم بغلاف الرواية على صفحتها الأولى مع عنوان مثير: شباب أميركا يذرفون الدموع، قصة حب تعيد الحياة إلى روميو وجولييت.

لم يكتب سيغال رواية محكمة الصنعة، ولم تدخله قصة حب إلى قائمة الروائيين العظام، لكنها جعلت منه لسنوات الكاتب الأكثر مبيعًا والأكثر شهرة. يقول لمراسل التايم إنه كتب رواية بسيطة جدًا، لكنه اعتنى بلحظات الحب والألم، لقد كان يريد أن يقول للجميع إن الموت هو النهاية المحتومة، ولكن رغم كل ذلك، يظل الحب هو الذي يرسم الحياة.

***

يبدو أن موضوع الحب الخالص هو موضوع يستهوي القرّاء منذ عصر الكلاسيكيات الشهيرة، وانتهاء بقصص الحب الضائعة التي برعت السينما بتقديمها، وكانت آخرها (تايتانيك). ويكتب إريك فروم في كتابه (فن الحب): "إن الإنسان المعاصر يتوق إلى الحب الضائع، ويشغف به أشدّ الشغف. فما الذي كان سيحدث لو أن جولييت عاشت وتزوجت روميو؟ وما الذي كان سيحدث لو أن سكارلت تزوجت أشلي؟ إن الفراق والموت هما اللذان حافظا على حكايتهما إلى الأبد"، ويضيف فروم: "وربما كان الحب المثالي مرتبطًا، بشكل ما، بتراجيديا الموت الجميل المبكر. ففي روميو

وجولييت، يرى البطل حبيبته، التي لا يستطيع الحفاظ عليها، تغيب عن عينيه بلحظة واحدة".

لم تكن رواية سيغال (قصة حب)، كما هو شأن رواياته، نموذجًا للفن الحقيقي. يبدو أن سرّ ظاهرة نجاح الرواية، الذي بدأت مؤشراته تتضح منذ صدورها، يكمن في إنسانيتها وسمتها التراجيدية. فسيغال يذكّر القارئ بعدد من الحقائق البسيطة المعروفة، أبرزها أن المال ليس كل شيء عندما يتعلق الأمر بالمشاعر الإنسانية، وأن الحياة ليست سهلة وخالية من الهموم كما تقدمها الدعاية، وأن الحب سيظل يعيش معنا برغم كل الظروف، وأن كلمة آسف لا مكان لها في مواجهة المصاعب. بعد (قصة حب) كتب سيغال عددًا من الروايات أبرزها؛ (قصة أوليفر)، ورواية (رجل، امرأة، ولد)، و (الصف). وكلها تدور حول ثمن النجاح وأهمية الحب، والزواج، والإخلاص الإنساني، وتصور الإغراءات والضغوط التي تجعل من الصعب على الفرد أن يعيش على نحو ملائم.

في آخر حوار معه قال إريك سيغال: "إن الحب جزء من نسيج وجودنا في الحياة، ويجب أن نعيشه بكل تفاصيله".

(20)

إيما بوفاري هي أنا غوستاف فلوبير

في الثامنة من عمره بدأ يكتب عن الموت الذي يطارده، وهو يتجول بين أروقة المستشفى الذي يملكه والده الجراح الشهير. كان أول ما تفتحت عليه عيناه هو صراع الناس مع وحش خفي اسمه الموت: "كان مدرج المستشفى يشرف على حديقتنا، وكم مرة تلصصت عبر الأبواب لكي أرى الجثث الممددة على الأسرَّة". أراد أن يرسم منظرًا أدبيًا لهذه الجثث، فكتب أولى قصصه التي سخر منها والدهُ، فمزقها وجعلها طعامًا لنار مدفأة غرفة مكتبه مؤنبًا إياه: "الكتابة مهنة الضعفاء والمجانين. أنت خُلقت لتمسك المشرط، لا القلم". بعد سنوات يكتب إلى عشيقته لويز كوليه: "كنت ذلك الإنسان الذي بلا هويّة، ويريد الآخرون أن يشكّلوا له حياته". هذه الحياة التي تأرجحت بين جديّة الأب وقسوته، وعطف الأم التي كانت تعشق القراءة، كان سريرها مزدحمًا بالروايات والقصص الخيالية، ثمة كتب في كل مكان، في المساء كانت تنتابني رغبتان، حضن أمي وكتبها التي تتحدث عن العشق".

في العاشرة من عمره حاول أن يقلّد كاتبه المفضل فكتور هيجو، فكتب رواية قصيرة متأثرًا برواية هوجو الشهيرة (أحدب نوتردام)، وحين قدر له بعد سنوات أن يزور صاحب (البؤساء) في بيته، كتب لوالدته فرحًا: "أخيرًا استمتعت برؤيته عن قرب، فحدقت به مشدوهًا، كما أحدق في إناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة، متأملاً كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذي جلس بجواري على مقعد صغير، مدققًا النظر في يده اليمنى التي كتبت

كل تلك الروائع الجميلة قائلاً لنفسي: هذا هو الرجل الذي جعل قلبي ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت، والذي أحببته أكثر من جميع من لم أعرف".

في الخامسة عشرة من عمره يلتقي بالمرأة التي سيحبها طوال حياته، وقد خلّدها في روايته (التربية العاطفية)، كانت تكبره بثلاثة عشر عامًا، زوجة أحد كبار رجال الأعمال. حين كانت تنظر إليه، يصاب بالتعرق والارتباك، ويخبرنا سارتر في كتابه (أبله العائلة) أن فلوبير كان يرى فيها بعضًا من ملامح أمه التي عشقها منذ الصغر، ونراه يكتب في (يوميات مجنون) أنه لم يحب في حياته سوى أمه، وهذه المرأة التي تدعى "ماري شيزنجر".

يعود إلى المنزل مسرعًا، يخرج الأوراق فيكتب كتابه الأول (يوميات مجنون): "في ذلك اليوم رأيت على الشاطئ برنسًا أحمر جميلاً، مزينًا بخطوط سوداء، كان المدّ عاليًا والشاطئ مزركشًا بالزَّبد، علا الموج وتدفق مبللاً حواشي ذلك البرنس الحريرية، انتشلته لأضعه بعيدًا، فألفيت نسيجه ناعمًا رقيقًا، لابد أنه برنس امرأة، ويبدو أن أحدًا ما رآني لأني في اليوم نفسه وفي قاعة الاستراحة سمعت أحدهم يقول لي:

- أشكرك جدًا على لطفك.

استدرت، رأيت امرأة شابة جالسة مع زوجها على الطاولة المجاورة. سألتها باضطراب:

- تشكرينني على ماذا؟

- على أنك لمت برنسي، ألم تكن أنت؟

أجبتها مرتبكًا:

- نعم يا سيدتي.

نظرت إليّ، فخفضت بصري، وتورد وجهي خجلاً. يا لسحر نظراتها،

ما أجملها هذه المرأة، أصبحت شخصًا غريبًا عن نفسي، انبعث صوت جديد في روحي، كل ما في هذه المرأة يحدث تأثيرًا خارقًا في نفسي، ثنية فستانها، ابتسامة ثغرها، قدمها، أقل كلمة تافهة تقولها".

بعد عام يكتب لأحد أصدقائه: "لا تتوهم أني حائر ومتردد فيما يخص اختيار مهنتي في المستقبل. في الواقع أنه لن تكون لي أية مهنة! إني عاجز عن العمل. وذلك لأني أحتقر البشر إلى درجة أني لا أستطيع أن أفعل لهم خيرًا أو شرًا. وعلى أية حال، فسوف أدرس في كلية الحقوق وأتخرج محاميًا. ولكني لن أشتغل في مهنة المحاماة إلا إذا طلبوا مني الدفاع عن مجرم كبير. وأما فيما يخص الكتابة، فإني أراهنك على أني لن أصبح كاتبًا ولن أطبع حرفًا واحدًا".

لم تكن الوظيفة تشغله ولا المستقبل، فقد كان مشغولاً بتتبع حكايات النساء، يتخيل صديقات والدته، ويسرح في صور النساء اللواتي شاهدهن في الشارع، إلى أن يعثر على لويز كوليه وكانت مغرمة بالأدباء، حتى أن حكايتها مع فكتور هيجو كانت حديث الصالونات الأدبية. ويبدو أن فلوبير البالغ من العمر الآن خمسة وعشرين عامًا قد أحبها بإفراط، فلم تمض على لقائهما سوى ساعات قليلة حتى كتب لها خطابًا ناريًا: "إنك المرأة الوحيدة التي أحببتها باستثناء امرأتين، الأولى أمي والثانية كنت عشقتها قبل عشرة أعوام، دون أن أفاتحها أو ألمسها، لكنك الوحيدة التي أحيت في قلبي الأمل في أن أحظى بإعجابها، بل لعلك الوحيدة التي حظيت بإعجابها فعلاً".

وقد سخر فلوبير فيما بعد من هذه العبارات التي كتبها، وسرعان ما بدأت قصة الحب تفقد بريقها تدريجيًا، حتى كتب لها ذات يوم: "يبدو أنك لا تفهمينني على حقيقتي، فأنت أحيانًا ترفعينني إلى مرتبة أسمى مني، وأحيانًا أخرى تهبطين بي إلى درك أدنى مما أستحق، وهذا هو داء النساء منذ القدم، فهن لا يعرفن الاعتدال، ولا يردن أن يفهمن المخلوقات المعقدة التي هي

الغالبية العظمى بين البشر، ولقد تبيّنت منذ زمن أنّ من يريد أن يعيش حياة هادئة، لابد أن يعيش وحيدًا ويحكم إغلاق نوافذه لئلا يتسرب إليه هواء المجتمع، وهذا هو السبب في أني عشت سنوات عديدة أتجنب رفقة النساء".

وتصف لويز فلوبير بأنه كان قاسيًا، سريع الغضب، فريسة للانفعالات والتقلبات العاطفية، فتكتب بعد وفاته: "كان شخصية وحشية دائمة السخط".

على أن لويز كان لها تأثير آخر على فلوبير غير قصة الحب العاصفة التي عاشها، فقد استمد منها ملامح بطلة روايته الشهيرة (مدام بوفاري) التي تفرغ لها منذ أن كان في الثلاثين حتى السنوات الأخيرة من عمره.

***

بعد أن اشترى والده قصرًا كبيرًا يطل على نهر السين، قرر الابن فلوبير أن يتخذ منه مسكنًا، كان يكتب طوال ست ساعات في اليوم، لكنه يمزق ما كتبه في اليوم التالي، في ذلك الوقت يلتقي بالشاعرة لويز كوليه، التي سرعان ما أصبحت عشيقته، حدثها عن حيرته في الكتابة، كان قد قرأ عليها قصة بعنوان (البائسون) وما أن انتهى من القراءة حتى قذف بالأوراق من النافذة وصاح: "هراء.. كل ما أكتبه هراء، متى تبدأ يا فلوبير بدايتك الحقيقية؟"

قالت له كوليه: "يجب أن تعدل تمامًا عن كتابة موضوعات غامضة، خذ موضوعًا من الواقع. ألم تقرأ في الصحف عن حكاية مدام دلفين ديلمار؟ إنها تستحق عملاً ممتازًا بشرط ألا تقول لي إنك كنت أحد عشاقها".

- للأسف لم أكن في قائمتها.

- حسنًا، اكتب عنها إذن، لو كنت أمتلك موهبتك لما ضيّعت هذه الفرصة.

- وماذا لو تعرضت لمضايقة عشاقها؟ هل تريدينني أن أقضي بقية عمري بالسجن بتهمة التشهير بمواطنين شرفاء؟

ضحكت كوليه على عبارة المواطنين الشرفاء، وكانت تدرك في قرارة نفسها أن الموضوع استهوى فلوبير وسيكتب عنه.

أخذ فلوبير يبحث عن حكاية المدام ديلمار. فماذا وجد؟

كان الزوج يوجين ديلمار، طالبَ طب يدرس الجراحة على يد والد فلوبير، وكان طالبًا عاديًا فشل في العديد من الاختبارات الجامعية، ولم يستطع نيل دبلوم الطب، فأصبح مأمورًا في إحدى دوائر الصحة. في ذلك الوقت تزوج من أرملة تكبره بالعمر لكنها توفيت بعد سنوات، فأصبح وحيدًا، وراح يبحث عن رفيقة لحياته، عندئذ قابل فتاة في السابعة عشرة من عمرها، جميلة ذات شعر أشقر وجسد متناسق، كانت ابنة لواحد من مرضى ديلمار، تعلمت في دير وقد امتلأ رأسها بالأحلام التي تثيرها قراءة الروايات الرومانسية. في البدء كانت تعتقد أنها تزوجت من فارس أحلامها، لكنها سرعان ما اكتشفت أن ديلمار إنسان فاشل وثقيل الظل، ولا يملك الطموح. كانت تحلم برجل مندفع مثير، لكنها بدلاً من ذلك تزوجت بإنسان غبي يصفه فلوبير بدقة: "كان حديثه مسطحًا مثل رصيف الشارع، إنه لا يستطيع السباحة، لا يستطيع المبارزة والإمساك بسلاح ناري، مشاعره عادية، يعانقها في أوقات محددة، وأصبح الجلوس معه غير محتمل، يحلو له أن يلتهم الطعام الذي أمامه بشراهة، ثم يذهب إلى الفراش ليستلقي على ظهرة ويشخر".

ونجدها كثيرًا ما تردد حين تكون لوحدها: "يا إلهي لماذا تزوجت؟"، وتحاول أن تتخيل ذلك الزوج الذي لم تعرف، رجلاً وسيمًا وفطنًا ومتميزًا وجذابًا، وتسأل نفسها ما العمل؟ هل سيدوم هذا البؤس للأبد؟ كانت تتوق إلى الحياة الصاخبة، تبحث عن الحب، عن رجل يختطفها ويطير بها

بعيدًا، لقد قررت أن تفتح الباب المظلم، ففي مقابل احتقارها لزوجها وللحياة السخيفة التي تعيشها معه، نظرت في المرآة إلى جمالها، وأيقنت أن بإمكانها أن تحوِّل أحلام اليقظة إلى واقع، قررت أن تكتشف عالمًا أكثر إثارة يحقق لها وجودها. بدأت تبالغ في إنفاق الأموال على الألبسة والحفلات دون أن يعلم زوجها، وسرعان ما تراكمت عليها الديون. وبعد أن تفقد الرغبة في الملابس والحفلات، تقرر أن تغوي الرجال. في البداية كان العشيق جارًا لها يدعى لويس كامبيون، ثم عامل المزرعة، ثم كاتب العدل، ثم العديد من الموظفين الشباب. ويكتب فلوبير في الرواية: "لقد بدأت تعيد إلى ذهنها بطلات الروايات التي قرأتها، وبدأ هذا الفيلق من النساء العاشقات يغرد في رأسها".

أهملت زوجها وابنتها الصغيرة وأقاربها وجيرانها، لكنها في النهاية بدأت تشعر بالملل، كل هؤلاء العشاق الذين مارست الجنس معهم مخيبون للآمال، وأخيرًا في فجر السادس من آذار عام 1848م بدأت المشاكل تحاصرها: زوجها أفلس، العشاق تبخروا، تقرر أن تتناول جرعة مميتة من الزرنيخ لتنهي حياة بلا طعم ولا أمل.

كان فلوبير مقتنعًا بأن قصة ديلمار هي وسيلته الوحيدة لإثبات موهبته الأدبية، ولإسكات الأصوات التي كانت تقول إن هذا الشاب الذي دخل عامه الثلاثين سيظل مجرد مراهق أبله طائش يزحف وراء رائحة النساء. إلا أن هناك مشكلة يجب أن يجد لها حلاً، فالقصة سوقيّة ونشرتها معظم الصحف، لكنه لم يستطع مقاومة سحر السيدة ديلمار وإصرارها على أن تتمتع بكل ذرة من جسدها. بقيت مشكلة مستعصية هي رفض أمه القاطع أن يكتب عن موضوع هذه السيدة خوفًا من مقاضاته، وأيضًا لأن الموضوع مبتذل، لكنه في النهاية استطاع إقناعها، بعد أن قرر تغيير أسماء الشخصيات لتتحول السيدة ديلمار إلى "مدام بوفاري".

سارت الرواية ببطء شديد، ست صفحات في الأسبوع، قال لأمه: "يا لها من مهنة صعبة مهنة الكتابة! القلم أشبه بمجذاف ثقيل". ظل يعمل سبع ساعات في اليوم على مدى أكثر من خمس سنوات، درس خلالها كل ما يتعلق بالروايات الرومانسية التي ربما قرأتها السيدة ديلمار، أو مدام بوفاري، وحاول دراسة تأثير مادة الزرنيخ على وظائف الجسم، ومن حين لآخر كانت الكتابة تصيبه بالمرض: "عندما كنت أصف تسمم إيما بوفاري كنت أحس بطعم الزرنيخ في فمي، وقد عرّضني ذلك إلى آلام في المعدة وسوء في الهضم رافقني طوال حياتي". ويكتب إلى صديقة: "لقد توقفت عن الكتابة. لا أستطيع مغالبة دموعي"، ولم يكتف بشهادات الجيران ومعارف السيدة ديلمار، بل ذهب إلى القرية يستطلع مجريات الأحداث التي تتعلق بتفاصيل حياة البطلة، وفي الدوائر الرسمية ومراكز الشرطة اطلع على التقرير التالي: "يوم السادس من آذار 1848م انتحرت في قرية ري نورماندیا، سيدة في السادسة والعشرين من عمرها بتعاطي كمية كبيرة من الزرنيخ". في النهاية يجد نفسه قد كتب أكثر من 1800 صفحة من القطع الكبير.

***

لم يحاول فلوبير أن يقرأ الرواية على المقربين منه، ويكتب إلى أمه: "أشعر بأنني كتبت عملاً كبيرًا، لا أريد أن أعرضه على هواة تحطيم الأدباء وحفاري قبور الأعمال الفنية، سأذهب بالمخطوطة إلى الناشر".

لكنه ما أن يسلّم هذه الحزمة الكبيرة من الأوراق إلى أحد الناشرين المعروفين الذي وجد صعوبة في قراءة خطه الرديء، وأيضًا لم يستهوه الاسم. من يشتري رواية اسمها مدام بوفاري؟ كما أن الرواية تحتاج إلى تعديلات سيقوم بها الناشر نفسه بدءًا من الاسم الذي سيتغير إلى (قلوب في العاصفة)، وانتهاءً بمشهد الموت حيث اقترح الناشر أن تقتل على يد زوجها

بعد أن يضبطها متلبسة بالخيانة.

لم يرد أن يصفع الناشر، لكنه طلب منه بكل هدوء أن يعيد إليه المخطوطة.

ذهب بروايته إلى صديقه مكسيم دو كامب الذي نشرها في مجلة (ريفيو دو باريس) على ستة أقسام، وقد أثار نشر الأجزاء الأولى عاصفة. فما أن ظهرت الرواية حتى ثار المشتركون في المجلة، وصاحوا غضبًا: "إن المجلة تنشر قصصًا فضائحية، ولا أخلاقية". كتبوا رسائل يهددون الناشر لأن الرواية تسيء لسمعة فرنسا، هل ثمة أمثال تلك المرأة، نساء يخدعن أزواجهن، ويقابلن عشاقهن في الفنادق وبيت الزوجية؟

ويحاول الناشر أن يهدئ غضب القراء بأن يطلب من المؤلف أن يجري تعديلات على الأحداث.

"آسف. لن أعدل حرفًا"، أجاب فلوبير.

"أنت لا تعرف حرج موقفي"، قال الناشر، وهو يخرج خطابًا من سكرتير القصر الإمبراطوري، يقول فيه إنّ نابليون الثالث مزّق العدد الذي نُشرت فيه أول حلقة، وقذف به في وجه السكرتير.

وما أن تمضي المجلة بنشر الحلقات الأخرى، حتى تقوم نقابة الأطباء بإقامة دعوى تطالب فيه المؤلف والناشر بتعويض مالي كبير لأنه أساء إلى سمعة الطب. بعدها يتقدم عدد من المواطنين بدعوى جديدة إلى المحكمة بتهمة نشر عمل إباحي يسيء إلى الدين، ويقف أمام القضاء مدافعًا عن وليده: "إيما بوفاري من ابتكارات خيالي ونتاج عبقريتي الفنية، إيما بوفاري هي أنا". فتقرر المحكمة تبرئته من التهم الموجهة إليه.

وأخيرًا أصبحت مدام بوفاري حرة، واقترح أحد الأصدقاء نشر الرواية كاملةً في مجلدين، وخلال عام 1857م، صدر الجزء الأول الذي بيع منه

خلال شهر واحد أكثر من خمسين ألف نسخة. وأرسل فكتور هيجو تهانيه الحارّة، وإعجابه الشديد بالرواية التي قال عن مؤلفها إن له أسلوبًا خاصًا.

(21)

حكاية الطبيب الذي تحول إلى حارس للأحلام

تبدأ حكايتنا في منتصف سنة 1856م، وفي مدينة صغيرة تسمى فرايبرج، كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية، وهي الآن جزء من جمهورية التشيك، حيث ولد طفل لأب كان يعمل في تجارة الصوف، صارم الطباع متسلط في البيت، كانت أمه تريد أن تسميه جوزيف على اسم والدها، لكن الأب أصر على أن يسميه سيجموند، ليحمل الاسم الثلاثي: سيجموند شلومو فرويد. ولد هذا الطفل الذي سيعنى بآلام النفس ومشاغلها وهمومها في أسرة تعج بالمتناقضات، الأم فتاة صغيرة حسناء لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، فيما تجاوز الأب، الذي كان يعاني من العصاب، الخمسين من عمره، وهو يثير مشاعر الكره عند الطفل الصغير، الذي يشعر بالمنافسة بينه وبين أبيه على عطف أمه ورقّتها. في العام الثالث من عمره، ولدت شقيقته الصغيرة، فعرف لأول مرة معنى الغيرة، ولهذا يخبرنا في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن أسعد وأجمل سنيّ حياته هي تلك الثلاث سنوات الأولى من عمره. ونراه في كتابه المثير (مدخل إلى التحليل النفسي) يؤكد على أن الأساس التكويني للحياة النفسية عند الإنسان يتم في السنوات الثلاث الأولى من العمر. وقد ظلّ فرويد يسترجع تلك السنوات وأحلامها فيما بعد لتكون من أهم العناصر التي بنى عليها نظريته في علم النفس، وأيضًا لتكون مدخلاً لكتابة الكبير (تفسير الأحلام) الذي يعد إلى جانب (رأس المال) لكارل ماركس و (النظرية النسبية) لآينشتاين، أهم ثلاثة كتب غيرت مجرى التاريخ البشري.

عندما بلغ الرابعة من عمره، أصيبت تجارة والده بالكساد، وانتهى الأمر بالعائلة المكونة من الأب وزوجتين وتسعة أولاد وعدد من الأحفاد أن تنتقل إلى فيينا، وهناك يلتحق الطفل فرويد بالمدرسة الابتدائية التي يثبت بها تفوقًا، حيث ظل الأول على مدرسته لمدة سبعة أعوام، وظهر تفوقه الخارق في حفظ اللغات، فلم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره إلا وكان يتقن الإنكليزية واللاتينية والفرنسية بطلاقة. وبعد سنتين نراه ينكب على دراسة الإيطالية والإسبانية، لكن أكثر ما أثار اهتمامه وهو في سن الخامسة عشرة هو الفلسفة. كان يحلم بأن يصبح مثل الفيلسوف الألماني هيغل، ونراه وهو في السادسة عشرة من عمره يكتب كراسًا صغيرًا يسجل فيه إعجابه الشديد بصاحب كتاب (أصول فلسفة الحق)، حيث نقرأ في الكراس الصغير الذي ترجم إلى العربية من قبل مصطفى صفوان أن عبارة هيغل التي جاءت في مجلده الضخم عن الأخلاق: "إن ميولنا وانفعالاتنا الطاغية التي هي في نظر الأخلاق أصل الشر لا ينبغي محاربتها واقتلاعها في النهاية، بل يجب ترويضها وجعلها تجري في قنوات الأخلاق الاجتماعية وما فيها من نظم وعادات". هذه العبارة ترافق فرويد سنوات طوال وهو يدرس السلوك البشري. عندما بلغ السابعة عشرة من عمره دخل جامعة فيينا لدراسة الطب، وبعد ثماني سنوات، تجبره الأحوال المادية المتردية لعائلته على ترك الأبحاث للعمل في أحد مستشفيات فيينا طبيبًا مبتدئًا، ونراه يكتب في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن تلك السنوات التي قضاها في المستشفى مكّنته من التفرغ لكتابة المقالات عن طبيعة المخ، الأمر الذي دفع أستاذه أدينجر أن يطلب منه التفرغ نهائيًا لدراسة المخ، ويعده بأن يجد له مكانًا في معهد التشريح، لكنه يرفض العرض، فقد كان في قراره نفسه يشعر أن هذا الأستاذ يريد أن يستغلّ نبوغه وأنه لا يحمل له مودة خالصة. لكنه في المقابل يلتقي بأستاذ آخر سيكون له تأثير كبير على مساره العلمي هو آرنست بروكة الذي يشير إليه في أحد

أحلامه بأنه الشيخ "بروكة" أو "بروكة العجوز"، فقد كان ذلك الرجل فنانًا في مغامراته وبحوثه العلمية.

في معمل بروكة يقضي فرويد ست سنوات يعمل ليل نهار، وقد بهرته الأبحاث الفسيولوجية الطريفة التي كان يجريها بروكة الذي طلب منه أن يتخصص في دراسة المخ والأعصاب. وأدى ذلك إلى تضحية من العائلة الفقيرة التي تركت له حرية الاختيار، فاختار أن يتفرغ لبحوثه التي لم تكن تؤدي إلى أية فوائد مادية، لا سيما في نظر عائلة كانت تعيش أوضاعًا مالية صعبة. وقد سهلت له أبحاثه التي نشرت في المجلة الطبية الحصول على منحة دراسية في فرنسا ليدرس الأمراض العصبية.

وفي سبيل تلك الدراسة، نجد فرويد يؤجل زواجه خمسة أعوام، ويؤكد لخطيبته وهو يعانقها أنه سيعود إلى فيينا بعد أن يحقق حلمه، كان قد حزم ملابسه وأخذ معه كرسيه الخشبي "بدون ظهر"، وابتاع أرخص تذكرة قطار إلى باريس ليبدأ رحلة الألف ميل إلى التحليل النفسي. كانت شخصية فرويد قد تشكلت، وتعلّم أن بالبحث والمثابرة يمكن إدراك ما يبدو مستحيلاً. كان يخفي مشاعره خلف قناع من الذكاء البارد والفطنة، وقد كتب لخطيبته مارتا برنايس يقول: "علينا الاهتمام بالأشياء وليس بالأشخاص"، الأمر الذي يظهر كيف تغلب فرويد على الحرمان العاطفي والعجز المالي، لكنه وجد في باريس ومعاهدها وجبة دسمة علميًا وثقافيًا.

يكتب في رسالة إلى أحد الأصدقاء: "كان عقلي مركزًا في دراستي، وقد قسّمت وقتي بين المناهج والجزء العملي في المختبر والدراسة في المكتبة، وكنت أعمل في المختبر في الأمسيات حتى وقت متأخر من الليل. وكان كل ما أراه أو أتعلمه يمثل شيئًا سارًا ومبهجًا بالنسبة لي، كان ذلك بمثابة عالم جديد انفتح أمامي، عالم العلوم الذي سمح لي بالدخول إليه بكل حرية".

***

العام 1900م، يفاجئ سيجموند فرويد العالم بكتاب مثير ومدهش، حيث تصدر الطبعة الأولى من كتابه الضخم (تفسير الأحلام)، وكان قبلها قد أصدر كتيبًا صغيرًا أسماه (الحلم وتأويله) لم يثر الاهتمام، حتى أنه قال لزوجته: "يبدو أن البعض لا يزال يعتقد أن الكتابة عن الأحلام أشبه بالكتابة عن الخرافات".

إلا أن كتاب الأحلام أيضًا يستقبل عند صدوره استقبالاً سيئًا من معاصريه، وها هو أستاذه ليبمان يكتب عنه قائلاً: "لقد انتصرت في هذا الكتاب الأفكار الخيالية للفنان على البحث العلمي"، فيرد على أستاذه محاولاً أن يقدم تفسيرًا علميًا لنظريته فيلخصها بالقول: "جميعنا يرى البيوت بواجهاتها الخارجية المختلفة، إنها تشبه الكائنات البشرية، ومحاولة الغوص في أعماق أحلامها هي التي تمكننا من معرفة أسرار هذه النفس، كما يخترق المرء البنايات لاكتشاف دواخلها".

في فصل مهم من كتابه (الأحلام بين العلم والعقيدة)، ينبهنا عالم الاجتماع علي الوردي إلى عظمة فرويد فيكتب: "ما يجب أن نعترف به قبل كل شيء هو أن فرويد باحث مبدع، وله في العلم مكانة لا يُستهان بها، ويمكن تشبيه فرويد بكولومبس الذي اكتشف القارة الأميركية، وحين نرجع اليوم إلى إنجازاته نراه من أولئك المبدعين العظام الذين أنتجوا الأفكار الجديدة فقام عليها الرقعاء يتهمونه بالرقاعة".

في مقدمة كتابه (الأحلام) يكتب فرويد: "إن هدفي الأول هو أن أثبت بصورة قاطعة أن تفسير أحلامنا على ضوء المنهج كفيل أن يدلّنا على الصلة بين موضوع أحلامنا وما تضطرب به نفوسنا من الشواغل، حتى إذا تم الوصول إلى هذه الغاية بينت للقارئ كيف أن ما يتراءى لنا في الأحلام لابد

أن يتلوّى مبناه وتغمض معالمه من النشاط النفسي ذاته". ونراه عام 1931م يسجل رأيه في كتابه (الأحلام) فيقول عنه: "إنه حتى فيما أرى اليوم يحوي أثمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبي، فمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين".

ولعل الاهتمام بالأحلام قديم قِدم الاهتمام بعلم النفس، ونجد في كتاب أرسطو الشهير (رسالة في النفس) تفسيرًا للأحلام بأنها ليست رسائل ترد علينا من الآلهة، وأنها لا تكشف لنا شيئًا من المصادر الخارقة للطبيعة. ويقرّ أرسطو أن الأحلام هي لون من النشاط الإنساني النفسي يصدر عن النائم بحسب الظروف التي يكون عليها نومه. وقد لاقت نظرية أرسطو ترحيبًا من الفلاسفة في العصر الحديث، وأطلق الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون عليها اسم "الحافز الحسي" حين ألقى عام 1901م محاضرة في موضوع الأحلام، قال فيها: "إن الحواس لا تتعطل عن أداء وظيفتها أثناء النوم، وكل أثر يقع عليها يؤدي بالنائم إلى رؤية حلم مستمد منه، فإذا كانت قدماه مثلاً غير مستقرتين على نقطة ارتكاز، رأى كأنه طائر في الفضاء، وإذا أضيئت أمام عينيه شمعة تحول الضوء في حلمه إلى حريق، وإذا انطلقت حوله أصوات شجار، حلم كأنه يرى ثورة ومظاهرات وصدامًا مع الآخرين".

وبرغسون يقول إننا في الحقيقة لا ننام، وإنّ حواسنا أيضًا لا تنام وإنما هي تنعس فقط وتسترخي، بمعنى أننا نظل نحس ونظل نرى ونظل نسمع في أثناء النوم، ويذهب أكثر من هذا، حيث يؤكد أنه حتى في اليقظة تستطيع الذاكرة أن تشكل رؤية وهمية تشبه ما يحدث في الأحلام. ما الفرق إذن بين الحلم واليقظة؟ يجيبنا برغسون في كتابة (الطاقة الروحية) بالقول إن: "الفرق هو في درجة اليقين، ودرجة الدقة ودرجة الصدق ودرجة التطابق بين واقع الإحساس وواقع التذكر".

ويضرب لنا مثلاً بحلم من أحلامه، فيقول:

- كنت أحلم أني أخطب في جمهور، ثم بدأت أسمع همهمة في القاعة وبدأت الهمهمة ترتفع وترتفع، حتى أصبحت صخبًا مدويًا، ثم ضجيجًا مرعبًا، ثم بدأت أميز بينها صيحات واضحة تتردد بإيقاع منتظم: اخرج بره.. اخرج بره.

وتيقظت مرعوبًا لأجد أن الكلب يعوي في الحديقة، وعواؤه يتردد بإيقاع منتظم ينطبق على الفقرات التي كنت أسمعها "اخرج بره.. اخرج بره". لم يقل لنا ما السر في الضجة التي تتهافت عليه في الحلم، وهذا عيب أخبرنا فرويد بعد سنوات أنه حاول الإجابة عنه في كتاب (تفسير الأحلام).

***

ما هي إذن نظرية فرويد التي أراد أن يشرحها في كتاب تفسير الأحلام؟

إنها دراسة في الرغبات المدفونة في النفس منذ أيام الطفولة، ومحاولة لتلبية الرغبات التي حرمنا منها بحكم الأخلاق والدين وتقاليد المجتمع، وتحقيق لما لا يمكننا تحقيقه في الواقع وما لا يليق أن نفكر فيه في يقظتنا ونحن بكامل وعينا. بل أن الأحلام بمجموعها هي تحقيق لرغبات عليا، فبدلاً من أن نتيقظ لأننا نشعر بالعطش، نحلم بأننا نشرب ونشرب من الماء، الحلم إذن هو قضاء رغبة، وهي ليست أية رغبة، إنها رغبات الطفولة، وغالبًا ما تكون رغبات جنسية مخجلة.

ونظرية فرويد في الأحلام هي نفسها نظريته في الهيستريا والأمراض العصبية، فالأعراض العصبية التي تصيب الإنسان ما هي إلا محاولة للتنفيس عن رغبة مكبوتة، فالرجل الذي يكبت إحساسًا بالذنب قد يصاب بوسواس النظافة، وقد يعمد إلى غسل يديه مرة بعد أخرى، والعقل الباطن، كما يتصوره فرويد، لا ينتظر إلى منتصف الليل لكي ينشط في الأحلام، إنه

يعمل أيضًا في اليقظة، وكل زلة لسان تقع فيها إنما تكشف عن رغبة باطنة تحاول إخفاءها. هذا هو رأي فرويد.

وسواءً قبلنا نظريات فرويد هذه أو لم تقبلها، فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث، لقد صاغ فرويد أفكارًا ومصطلحات في محيط المناطق المجهولة من العقل، صارت جزءًا من حياتنا اليومية. واليوم نحس بآثار تعاليمه كل مجال من المعارف من الأدب والفن والدين وعلم الأجناس البشرية، إلى التعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الإجرام والتاريخ.

وبسبب فرويد، تختلف فكرة الناس اليوم عن أنفسهم، يعتقدون أن أفكار فرويد مثل تأثير والأساس الجنسي لاضطراب وظائف الأعصاب، ووجود الغريزة الجنسية لدى الأطفال وأهميتها، ووظيفة الأحلام، وعقدة أوديب، والكبت والمقاومة وقراءة الأفكار، يعتقدون أن هذه الأفكار أمور عادية، ثم أن عيوب الإنسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية، تتخذ أهمية جديدة عند النظر إليها من وجهة نظر فرويد. ومن الصعب الآن إدراك مقدار الرفض والاعتراض الذي كان على فرويد أن يواجهه عند نشر نظرياته.

يقرر فرويد في أعظم نظريات التحليل النفسي جدلاً، أنه تحت تأثير الشهوة الجنسية، تنمو في الطفل إحساسات جنسية نحو والديه مبتدئًا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدي أمه، فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه، وعندما تتقدم به السن تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه، بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له.

أما الطفلة الأنثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها، وتقع في حب أبيها وتصير الأم موضع كراهيتها، ومنافسة لها. وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذكر، يطلق عليها اسم "عقدة أوديب" التي أخذت اسمها من الشخصية

الأسطورية الإغريقية القديمة أوديب الذي قتل أباه وتزوج أمه، وقال فرويد إن عقدة أوديب موروثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم في ثورات الغيرة. وعندما يصل الشخص الطبيعي إلى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الأوديبية. أما الأفراد الضعاف فقد لا ينجحون إطلاقًا في قطع الصلة بالأبوين، وبذا ينقادون إلى سلسلة من الاضطرابات النفسية.

كان كتابه (تفسير الأحلام) أول محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة. وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر ذلك الكتاب بواحد وثلاثين عامًا "بأنه يتضمن، حتى بعد حكمي في هذا اليوم الحاضر، أعظم الاكتشافات التي ساعده الحظ في إيجادها، وأكثرها قيمة". وتبعًا لفرويد: "يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الإنجاز المستمر لرغبة مكتوبة". يمثل كل حلم دراما في العالم الداخلي، "فالأحلام دائمًا نتيجة صراع". وقال فرويد: "والحلم هو حارس النوم.. ووظيفته مساعدة النوم، لا إزعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها".

تغدو الطبيعة الثورية لأفكار فرويد من خلال دخوله مجالاً لم يرتده أحد قبله إطلاقًا، وهو منطقه اللاوعي في العقل البشري.

يكتب إريك فروم في كتابه (مهمة فرويد): "هناك سبب قوي إلى الاعتقاد بأنه بعد مئة عام منذ الآن، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن، كأحد الرجال الذين فتحوا أفقًا جديدًا من آفاق الفكر.. فمن المؤكد أنه في عصرنا هذا، لم يلق أحد ضوءًا على أعماق عقل الإنسان كما فعل فرويد".

قضى فرويد آخر أيام حياته في المنفى، فبعد الاحتلال النازي للنمسا، اضطر إلى مغادرة فيينا في عام 1938م، فمنحته إنكلترا حق اللجوء، ولكن سرطان الفم تسبب في موته في أيلول عام 1939م.

(22)

أبله العائلة الذي حل لغز الكون

ظلت الصورة التقليدية لأشهر علماء القرن العشرين، ألبرت آينشتاين، هي تلك التي يُخرج بها لسانه، وكأنه يسخر من كل ما قيل وكُتب قبله. عام 1905م يصدر كتابه (النسبية) لينتقل معه دفعة واحدة من عالم المجهول إلى عالم ضاجّ وصاخب. إلى أي مدى كان آينشتاين فقيرًا، نعرف جيدًا أنه كان معوزًا وأنه شقي كثيرًا، وأن بداياته كانت صعبة، مثل كتابه الذي لا يقربه إلا الراسخون في العلم، ويقال إن المترجم العراقي عبد المسيح وزير يُعدّ أول من بشّر بنظرية آينشتاين، عندما ترجمها ونشر فصولاً منها في جريدة العراق الممتاز سنة 1923م. وهو الأمر الذي جلب له عداوة الملّا عبود الكرخي الذي كتب مقالاً يسخر من عبد المسيح ونظرية صاحبه الذي أسماه الكرخي "الطرن"، وكان رد عبد المسيح وزير مقالاً مطوّلاً أكد فيه أن النظرية النسبية لا يفهمها في العالم سوى عشرة وهو واحد منهم!

لعلّ الكثيرين لا يعرفون بأن مطامح آينشتاين في بداية حياته كانت لاهوتية، حيث كتب وهو على مقاعد الدراسة الجامعية كراسًا عن التوراة، ثم شعر بالهزيمة في هذا المجال، ليفتّش عن آفاق أخرى، ليتعرّف فيما بعد على أفكار نيوتن، وليبدأ حكاية أخرى لم تنته.

أتذكر أنني كنتُ متلهفًا لقراءة كتاب النسبية، وحين حصلت على نسخة منه بترجمة اللبناني عبد الرحمن مرحبا، لم أستطع حل لغز الصفحات الأولى

منه وحاولت أن أجد ضالتي في كتاب ممتع وصغير كتبه الصحفي المصري مصطفى محمود فوجدته يقول: "لقد تعددت المحاولات من العلماء لتبسيط النظرية النسبية. وكان آينشتاين نفسه يحاول أن يبسّط مقولاته". ومن الطريف أن مصطفى محمود نفسه كان يهرب من قراءة كتاب أينشتاين، إلا أن بريد القراء الذي كان يحرره لمجلة صباح الخير حمل رسالة من قارئة تسأل عن النظرية النسبية، فقرر أن يقرأ كل ما يتعلق بالنسبية وصاحبها، ليخرج لنا بعد ذلك بكتاب ممتع نشرت حلقاته في مجلة روز اليوسف المصرية تحت عنوان (آينشتاين والنسبية).

***

العام 1879م، وفي قرية ألمانية صغيرة تدعى أولم، استقبل هيرمان آينشتاين وزوجته جوليت ديرزباخر مولودًا غريب الشكل أصاب والديه بالذعر، فرأسه غير مستوية، الأمر الذي أدّى بالأم أن تصلي من أجل ألا يكون لهذا الأمر تأثير على عقله في المستقبل. أما الجسم فكان أشبه بالبرميل الصغير، ما جعل جدته لأمه تولول صارخةً: "إنه بدين أكثر مما ينبغي". فقرر الوالد أن يعرض ابنه على الطبيب الذي طمأنه بقوله: "إن الزمن كفيل بإصلاح ما اعوجّ في جسده". وبالإضافة إلى كل هذه العيوب الجسدية، واجهت الأبوين مشكلة تأخر الصغير في النطق. يقول ألبرت آينشتاين إنه لم يحاول الكلام إلا بعد أن تجاوز الخامسة من عمره، لدرجة أن أمه ظنت أن ابنها مصاب بعاهة. ولم تكن له إلا شقيقة واحدة، كانت السبب وراء نطقه بأولى العبارات. فقد وعد الوالدان ابنهما ألبرت بلعبة جديدة، لكنه ما أن وقعت عيناه على المولودة الجديدة، حتى صاح بكلمات متقطعة: "وأين عجلاتها الأربع؟" غير أن كونها أختًا لألبرت لم يكن بالأمر الممتع، فقد كانت له عادة سيئة وهي إلقاء الأشياء على رأسها، وكما كتبت هي بعد ذلك في كتابها (أنا وآينشتاين): "لابد لأخت المفكر أن تكون لها جمجمة قوية".

وبسبب صعوبة الأوضاع المالية اضطرت عائلته أن تنتقل إلى مدينة ميونخ، هناك أصرت الأم على أن يتعلم ابنها الصغير العزف على آلة الكمان، لكنها واجهت مشكلة كبيرة، فالصغير لا يستوعب الدروس، وكان غير راغب في التعلم.

حين بلغ ألبرت السابعة من عمره التحق بالمدرسة الابتدائية، هناك ظنّ المعلمون أن هذا الطفل متخلف عقليًا، فهو بطيء الفهم، يفشل في حفظ أية معلومة، وزاد من مشكلته أنه كان يتأتئ قبل الإجابة عن أي سؤال. بعد سنتين يكتشف الأساتذة أن الطفل المعاق ذهنيًا يبدي براعة في درس الرياضيات ويهتم بتعلم اللغة اللاتينية، لكنه فشل في دراسة جميع أنواع الموضوعات الأخرى، ما جعل مدرسيه يشكون من سوء إدراكه، وعندما سأل والده مدير المدرسة عن المهنة التي تصلح في المستقبل لابنه ألبرت، أجابه المدير قائلاً: "لا تشغل بالك بهذا الأمر، فهو لن ينجح في أي شيء".

في سن التاسعة تعرّف لأول مرة على العلوم، وكان والده قد أهداه بوصله فتنته بشدة، وتصور أن هناك قوى خفية قادرة على تحريك الأجسام، فهي أول معجزة يشهدها: "تركت هذه التجربة أثرًا عميقًا في نفسي، وأدركت حينها أن هناك أمورًا خفية تتوارى خلف الظواهر". في الحادية عشرة من عمره أخذت حياته تنحو منحىً آخر، إذ تحول إلى التدين الشديد، فقد خصصت له المدرسة مدرسًا لدرس الدين، كونه الطالب اليهودي الوحيد، وبسبب إعجاب المدرس به تملكته نشوة الإيمان، فأخذ ينظم الابتهالات الدينية. لكن فترة الحماس الديني لم تدم طويلاً لأنه كلما تعمق في دروس اللاهوت، أدرك تعارضه مع العلم، وفي النهاية يتوصل إلى نتيجة يقولها لعمه جاكوب: "من خلال قراءتي وصلت سريعًا إلى قناعة بأن كثيرًا مما جاء في قصص التوراة لا يمكن أن يكون حقيقيًا".

حين بلغ الخامسة عشرة من عمره، اضطر إلى ترك الدراسة بسبب الأزمات المالية التي عانت منها أسرته. فالأب أعلن إفلاسه، فعرض عليه أحد الأصدقاء أن يجرّب حظه في إيطاليا، حيث يبدأ العمل من جديد على إنشاء مشروع تجاري جديد، وهكذا وجد ألبرت نفسه وحيدًا في ميونخ، يقضي أيامه في مدرسة داخلية، الجميع فيها يكرهون هذا الطالب الغريب الأطوار. فيقرر ذات مساء أن يرحل وحيدًا إلى إيطاليا، لينتهي بعد أيام واقفًا على باب بيت أسرته التي لم تكن تتوقع قدومه.

احتار الأم والأب ماذا يفعلان مع ابنهما الذي لم يكمل دراسته الثانوية، وليست لديه حرفة ولا مهارات تؤهله للعمل. وحين سأله والده عن الوجهة التي يريد أن يتوجه لها في المستقبل، أجاب ألبرت أنه يسعى لأن يصبح فيلسوفًا، الأمر الذي أثار سخرية العائلة التي قررت أن تلحقه بمعهد في زيورخ، لكنه لسوء حظه رسب في امتحان القبول وتحديدًا في الكيمياء والأحياء، إلا أنه أثار إعجاب الأساتذة بإجاباته على أسئلة الرياضيات والفيزياء، الأمر الذي دفع بمدير المعهد إلى إعفائه من امتحان القبول.

في المعهد، عاش آينشتاين أجمل سنيّ حياته، وأحب السويسريين الذين يقدسون معاني الحرية والتسامح، ولأن ذكريات الدراسة في ألمانيا وتعصب المدرسين ما تزال تؤثر في نفسيته، نراه يتخذ خطوة مفاجئة وغير متوقعة من مراهق، فقد قرر التخلي عن الجنسية الألمانية والسعي لأن يصبح مواطنًا سويسريًا. ليبدأ مرحلة مختلفة من حياته، فقد بدأ يتعرف للمرة الأولى على أحدث ما توصل إليه علم الفيزياء، وخلال دراسته اهتم بتعلم كل ما هو جديد في مجال علم الضوء، ويصف هذه السنوات بأنها كانت الأكثر روعة في حياته.

***

في العام 1900م، يدخل آينشتاين عامة الحادي والعشرين، يعاني من بطالة، إدارة المعهد الذي تخرج منه بتفوق رفضت تعيينه مدرسًا معيدًا، فقد اعتبره الأساتذة مغرورًا، وقال له أحدهم: "إنك شخص ذكي، لكن يشوبك عيب واحد وهو أنك لا تقبل توجيهًا من أحد". وأمام هذه الأزمة الجديدة لم يجد مخرجًا غير إعطاء دروس خصوصية. وفي عام 1902م، اضطره العوز لأن ينشر الإعلان التالي في إحدى الصحف المحلية الصادرة في برن: "مدرس بإمكانه تقديم دروس خصوصية في الرياضيات والفيزياء للطلبة، ميزته أنه يقدّم دروسه بكل أمانة وإخلاص، حاصل على دبلوم من معهد البوليتكنيك، وبإمكانه إعطاء دروس مجانية على سبيل التجربة". ويفشل في هذه التجربة، حيث لم يلتحق بدروسه الخصوصية سوى طفلين، كان كل منهما يدفع فرنكين مقابل كل درس.

في عام 1902، بدأ الفقر يطارده وساءت أحواله المالية لدرجة أنه كان ينام لأيام دون أن يتناول الطعام، الأمر الذي دفع أحد أصدقاء والده للتوسط بتعيينه في وظيفة بمكتب براءات الاختراع. كانت مهمته فحص هذه البراءة لتقديمها إلى المختصين، ووجد في هذا العمل متعة مكّنته من التعرف على أفكار المخترعين الصغار.

كان آينشتاين يجد في صديقه بيسو محاورًا ممتعًا، وذات يوم يسأله وهما يصيدان السمك في بحيرة قريبة: "لو تخيلنا أننا نستطيع أن نطير على شعاع من الضوء بسرعة 186 ألف ميل في الثانية، هل سيبدو هذا الشعاع في هذه الحالة ساكنًا؟" وحين استغرب الصديق من هذا السؤال العبثي، قال له آينشتاين: "إن الأطفال يطرحون أحيانًا أسئلة وقحة وساذجة فيتدخل الكبار لإسكاتهم بإجابات تقليدية قد تكون عارية عن الصحة". وفي بداية عام 1905م، أخبر آينشتاين صديقه بيسو بأنه على وشك حل لغز الكون، وبعدها بأشهر قدم بحثًا اعتبر النواة الأولى للنظرية النسبية، متحديًا أفكار

الإنسان السائدة عن الزمن وعن الفضاء وعن المادة والطاقة. وضمت أسس هذه النظرية موضعين أساسيين: الأول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية. وهناك مثل مألوف لهذه النظرية في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة. فالشخص الجالس في قطار ذي نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة، وبه قليل من الضوضاء، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة، ولا عن اتجاه سير القطار، وقد لا يشعر إطلاقًا بأن القطار يتحرك، والشخص الموجود في سفينة مقفلة النوافذ، يكون في نفس الموقف، لا نشعر بالحركة إلا بمصطلحات نسبية، أي بالنسبة لأجسام أخرى، وعلى نطاق أوسع، فإن الحركة الأمامية للأرض لا يمكن الإحساس بها إن لم تكن هناك أجرام سماوية لعمل مقارنة.

أما الفرض الثاني لآينشتاين فهو إن سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره، فسرعة الضوء البالغة 186000 ميلاً/ ثانية ثابتة دائمًا في أي مكان على سطح الأرض، ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه. فمثلاً، في قطار متحرك، يسير الضوء بالسرعة نفسها تمامًا التي يسير بها خارج القطار. وما من قوة تؤثر عليه فتجعله أسرع أو أبطأ، وزيادة على ذلك، ما من شيء يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء، برغم أن الإلكترونيات تقترب كثيرًا من هذه السرعة، والواقع أن الضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها.

وعلى عكس تعاليم نيوتن، أكّد آينشتاين أنه ليس هناك شيء يسمى "حركة مطلقة"، وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم في الفضاء عديمة المعنى. فالحركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء، لا يوجد في أي مكان على سطح الأرض أو في الكون شيء ما في حالة سكون تام أو سكون مطلق، فالحركة مستمرة في جميع أنحاء عالمنا غير الساكن. ورغم أن آينشتاين حاول أن يتجاوز نظريات نيوتن في الجاذبية إلا أنه، حين يسأله محرر مجلة لايف، عن

سر الصورة التي يضعها على المكتب وفي المعمل وفي غرفة أبحاثه، وقرب سرير النوم، يجيب إنها لوالدي نيوتن الذي نظّم العالم واستطاع أن يطرد الأرواح والشياطين التي سكنت عالم أرسطو.

كان آينشتاين قد أبلغ صديقه بيسو أن الأحداث الحاصلة في أماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لإنسان معين، ليست حادثة في اللحظة نفسها لإنسان آخر. فمثلاً إذا حكم بأن حادثين وقعا معًا في وقت واحد لإنسان على الأرض وآخر في قطار أو في طائرة، فالحقيقة أنهما لم يقعا في اللحظة نفسها.

وبتطبيق هذه النظرية على الكون، فإن حادثًا وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلاً، وشاهده أحد سكان الأرض، فإن ذلك الانفجار لم يحدث في الوقت نفسه الذي شوهد فيه على الأرض، بل على العكس برغم أن سرعة الضوء 186000 ميلاً/ ثانية فإن حدثًا وقع على نجم بعيد جدًا قد يكون حدث قبل وصول خبره إلى الأرض بسنوات. والنجم الذي يُرى اليوم هو بلا شك النجم نفسه الذي رؤى منذ زمن بعيد، مع أنه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد.

لما أخذ آينشتاين يطور نظرية النسبية هدم اعتقادًا راسخًا من قبل، حيث كان الطول والكتلة يتمتعان بميزة مطلقة وثابتة تحت كل الظروف. فجاء آينشتاين يقرر أن كتلة الجسم أو وزنه وطوله يتوقفان على سرعة تحرك الجسم.

انتظر آينشتاين دون جدوى أن يلتفت العلماء إلى أبحاثه، وخاصة بحثه عن النظرية النسبية، لكن العلماء قابلوا أبحاثه بالصمت والإهمال، ألا أن عام 1906م بدأت الأخبار السارة تصل إليه. فقد كتب إليه العالم المرموق ماكس بلانك يطلب المزيد من المعلومات عن نظرية آينشتاين، لتبدأ رحلة جديدة في تطور النظرية النسبية.

من بين جميع الاكتشافات العلمية العظيمة التي قام بها آينشتاين، كان لأفكاره عن النظرية الذرية أعظم أثر عميق مباشر على عالم اليوم. فبعد قليل من نشر مقاله الأول عن النسبية، كتب بعد عام مقالاً قصيرًا أكدّ فيه فكرته عن الذرة، قائلاً أن أية ذرة من المادة، حتى لو كانت ذرة غبار، تحمل في أحشائها مخزونًا هائلاً من الطاقة، وذهب أبعد من ذلك حين نشر مقالاً نشر فيه أشهر معادلة في التاريخ كله: والتي خلاصتها أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، فإذا أمكن استخدام الطاقة الموجودة في نصف رطل من أية مادة أطلقت، سينتج قوة تعادل قوة انفجار سبعة ملايين طن من المادة المتفجرة. وكما أشار الفيزيائي الأميركي الشهير روبرت أوبنهايمر: "لولا معادلة آينشتاين لتعثر العلماء في تجاربهم".

ظلت معادلة آينشتاين نظرية حتى عام 1936م، إذ غدا مؤلفها مواطنًا في الولايات الأميركية بعد أن طرده النازيون من أوروبا. وإذ يعلم آينشتاين أن الألمان يستوردون اليورانيوم ويقومون بأبحاث لصنع قنبلة ذرية، كتب خطابًا بالغ السرية للرئيس رزوفلت: "وصلتني نسخ خطية عن أبحاث حديثة يقوم بها كل من أ. فيرمى ول. سيزيلارد، تجعلني أتوقع أن عنصر اليورانيوم يمكن أن يتحول إلى مصدر جديد مهم للطاقة في المستقبل القريب العاجل. كما تؤدي هذه الظاهرة الجديدة إلى صنع القنابل، ومن المفهوم أن قنبلة واحدة من هذا النوع، إذا حملتها سفينة وفجرتها في ميناء أمكنها تدمير ذلك الميناء كله ومعه بعض الأراضي المحيطة به".

كانت النتيجة المباشرة لخطاب آينشتاين إلى روزفلت أن بدأ مشروع صنع قنبلة مانهاتن الذرية، وبعد ذلك بنحو خمس سنوات فجرت أول قنبلة ذرية بولاية نيومكسيكو، وبعدها بمدة وجيزة حدث التدمير الذريع الذي أحدثته قنبلة ذرية أسقطت فوق هيروشيما، وكانت السبب في سرعة إنهاء الحرب مع اليابان. برغم أن القنبلة الذرية كانت من أبرز التطبيقات العملية لنظريات

آينشتاين، فإن المدى الذي وطّد شهرته، هو إنجاز شهير آخر.

فمع نظريته الخاصة عن النسبية لعام 1905م، كان هناك قانونه الضوئي الكهربي الغامض الذي مهد الطريق لمجيء التلفزيون والسينما الناطقة والعين الكهربية، المعروفة بالعين السحرية التي لقيت استعمالات شتى في كثير من المجالات.

***

في يوم 17 نيسان عام 1955م، استيقظ آينشتاين وهو يشعر بالتعب والإرهاق، طلب من سكرتيرته أن تحضر له نظارته، وبدأ يكتب على عجل بعض الحسابات، ثم تحدث إلى ابنه على سبيل المزاح في نبرة تعبر عن الحسرة: "آه لو أعلم قدرًا أكبر من الرياضيات". استغرق في العمل وعندما اشتدّ عليه التعب خلد إلى النوم. وفي صباح الإثنين 18 نيسان عام 1955م، سمعته السكرتيرة يتمتم ببعض الكلمات بالألمانية، عندها أغمض عينيه، فقد مات العالم الذي حيّر البشرية عن عمر يناهز السادسة والسبعين، وبجانب فراش موته كانت هناك اثنتا عشرة صفحة من المعادلات الرياضية مكتوبة بخط أنيق، وإلى جانبها ورقة كتب عليها سطر واحد: "أتحدث إليكم ليس بصفتي مواطنًا أميركيًا، ولا يهوديًا، بل بصفتي إنسانًا".

(23)

يقتل زوجته من أجل فائض القيمة

الزمان: العام 1980

المكان: مستشفى سانت-آن النفسي في باريس

قبل أسابيع، جيء إلى المصحة برجل أثار الجدل كثيرًا في المحاكم، فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه يخنق زوجته حتى الموت، لم يكن هناك شهود على الواقعة، قال في مركز الشرطة إنه لا يعرف لماذا قام بهذا الفعل، لكنه اكتشف أن حياتهما لا يمكن أن تستمر فهي مثل "فائض القيمة" الذي تحدث عنه ماركس. ضابط الشرطة وهو يستمع إليه، أيقن أن الرجل مجنون حتمًا، فهو يهذي بمصطلحات غير مفهومة، ولهذا طالب بعرضه على لجنة طبية قررت أن تودعه مصحة نفسية، كان الأطباء ينظرون إليه باعتباره عبقريًا بعد أن تعرفوا على سيرته الذاتية، فيما المرضى يسخرون من ترديده لكلمات مثل البنيوية والماركسية والتحليل النفسي. كان هذا المريض هو لوي ألتوسير، صاحب أشهر قراءة حديثة لكتاب ماركس (رأس المال).

في العام 1950م، يسأل الطالب ميشيل فوكو أستاذه لوي ألتوسير عن كتاب (رأس المال)، وهل يرى أنه ما يزال يصلح لهذا العصر، بعد أن خرجت البشرية من حرب مدمرة؟ هذا السؤال ظل يدور بذهن الأستاذ لخمسة عشر عامًا كاملة، تفرغ خلالها لمراجعة كتاب (رأس المال) ودراسته دراسة دقيقة ليصدر عام 1965م مؤلفًا يحدث ضجة كبيرة (قراءة رأس المال)، اتُهم من

خلاله بأنه يريد تحريف أفكار ماركس. وتصدى له غارودي الذي قال إن ألتوسير يريد أن يحصل على الشهرة من خلال مشاكسة ماركس، فيما كتب سارتر في (الأزمنة الحديثة) أن صاحب هذه القراءة يريد أن يغازل البنيوية على حساب أفكار ماركس الأساسية. ويضيف سارتر أن ألتوسير يخلط بين التحليل النفسي والتحليل الثقافي للظواهر. لم يرُد ألتوسير على الحملة ولا على قرار طرده من الحزب الشيوعي، فهو كان مهتمًا بالدرجة الأولى بتخليص ماركس من الاشتراكيين الذين لا يرون فيه سوى وجه المنظّر السياسي، منبهًا إلى أن السير في هذا الطريق سيؤدي إلى ضياع ماركس الحقيقي. ولهذا يكتب في (قراءة رأس المال): "إن العودة إلى ماركس فيلسوف التقنية والاقتصاد والاجتماع أمر في غاية الإنصاف، لأنه يعيد الاعتبار الحقيقي لهذا المفكر الإنساني الكبير".

***

العام: 1867

في واحدة من ضواحي لندن، كان أنجلز ينتظر بفارغ الصبر أن يطلع على مسودات الجزء الأول من كتاب (رأس المال)، إلا أن صديقه كارل ماركس يناوله بدلاً من ذلك رواية بلزاك الشهيرة (التحفة المجهولة)، ويطلب منه أن يقرأها: "هذه القصة تحفة مفعمة بالسخرية المبهجة أشد البهجة". الدهشة تسيطر على أنجلز الذي اعتقد أن صديقه الحميم يسخر منه، فما علاقة بلزاك برأس المال؟ كانت الرواية تتحدث عن الرسام الشهير فرينهوفر الذي يمضي عشر سنوات وهو يعمل على لوحة أراد لها أن تحدث ثورة في الفن، وحين يسمح أخيرًا لأحد زملائه أن يرى اللوحة، يتعجب هذا الزميل الشاب على الوقت الذي ضيّعه فرينهوفر من أجل لوحة هي عبارة عن خليط من الأشكال والألوان العشوائية.

"لا شيء في لوحتي"، صرخ فرينهوفر وهو ينقل ناظريه بين اللوحة وزميله.

"ماذا فعلت؟" قال له الشاب.

قال بقوة وهو يصرخ: "ألا ترى شيئًا فيها، أيها المهرج أيها الوغد؟ من الذين جاءوا بك إلى هنا؟ هل تريد أن تهزأ بي؟ قل لي.. أجبني.. إنني صديقك. هل أفسدت لوحتي؟"

حدّق فرينهوفر في لوحته للحظة، ثم راح يترنح:

"لا شيء.. لا شيء، وقد عملت عشر سنوات". ووقع على الكرسي مجهشًا بالبكاء.

وبحسب ما يكتب أنجلز فيما بعد حول كتاب (رأس المال) فإن قصة بلزاك تركت أثرًا كبيرًا على صديقه ماركس، وكان يتذكرها كلما سأله أحد أن يطلعه على المسودات الأولى لكتابه (رأس المال) فيرد:

- لا، لا يزال عليّ أن أضع بعض اللمسات الأخيرة، البارحة خيِّل لي أنني انتهيت منها، لكن صباح هذا اليوم اكتشفت خطئي.

منذ عام 1846م كان الكتاب قد تأخر أصلاً، كتب ماركس إلى الناشر: "لن أدفعه إلى المطبعة قبل أن أضع اللمسات الأخيرة". وبعد اثنتي عشرة سنة لم يكن الكتاب قد قارب الاكتمال، وراح يفسِّر للمقرّبين منه سبب هذا التأخير قائلاً: "الأمر بسيط، لأن المرء ما أن يشرع في تنظيم الموضوعات التي كرّس لها سنوات من البحث والدراسة حتى تأخذه هذه الموضوعات بالكشف عن أوجه جديدة تقتضي مزيدًا من التأمل والبحث والدراسة".

كان كارل ماركس ينظر إلى نفسه على أنه شاعر وأديب قبل أن يكون فيلسوفًا، وقد كتب لأنجلز في عام 1856م: "والآن ففيما يتعلق بكتابي

الجديد - يقصد رأس المال - سوف أفضي إليك بالحقيقة الواضحة، مهما تكن العيوب القائمة في الكتاب، فإن ميزته ستكمن في أنه عمل فني بامتياز، لقد تطلعت إلى الشعراء والروائيين أكثر مما تطلعت إلى الفلاسفة والمحللين الاقتصاديين باحثًا لديهم عن تبصرات في دوافع البشر ومصالحهم المادية". وقد ظل ماركس على اعتقاده بأن لدى الأدباء الكبار تبصرات بالواقع الاجتماعي تتعالى على تحيزاتهم الشخصية، ويكتب أنجلز في رثاء ماركس: "لم يكن يطمح أن يكتب بحثًا فلسفيًا أو اقتصاديًا تقليديًا، كان طموحه أكثر جرأة، أن ينافس كبار الأدباء". ويصف ألتوسير كتاب (رأس المال) بأنه واحد من الأعمال الأدبية الفريدة، ويضع ماركس إلى جانب بتهوفن وتولستوي وديستويفسكي وغويا وأبسن ونيتشه، ممن صنعوا لهذا العالم قدرًا كبيرًا من الرأسمال الروحي الذي ما نزال نعتاش عليه".

***

العام: 1980

استيقظ فجأة من نومه، جلس على طرف السرير ينظر باتجاه زوجته هيلين التي كانت مستلقية إلى جواره، أخذ يحدق في رقبتها الرقيقة، لطالما طلبت منه أن يدلكها بهدوء، مد أصابعه المرتجفة، أخذ يدلك مقدمة العنق، تململت في نومها، لكنها لم تفتح عينيها، أخذ يحرك أصابعه ناحيتي اليمين واليسار، ثم بدأ يضغط بقوة، ارتعش جسدها دون أن يخرج منها صوت، فتحت عينيها مستغربة، لكنه ظل مستمرًا في التدليك والضغط بقوة على مقدمة الرقبة، حاولت أن تبعد يديه، لكنها عجزت عن الحركة، فقد كان يضع ركبتيه فوق جسدها ويضغط بقوة أكبر، لحظات وبدا له الوجه هادئًا وعديم الحركة، فيما العينان مفتوحتان تحدقان في السقف كمن يبحث عن شيء، ابتعد عنها قليلاً وأخرج علبة سكائره ليدخن، ثم نهض ليذهب باتجاه الباب وهو في حالة

خوف رهيب. هل حقًا ماتت هيلين؟ أخذ يسأل نفسه وهو يركض سريعًا باتجاه مدخل العمارة، استمر بالركض حتى وصل إلى البناية المقابلة حيث يسكن الطبيب إيتان، كان يستشيره كثيرًا عندما يصاب بعارض صحي، مما جعل العلاقة بينهما أشبه بعلاقة الأصدقاء، صعد الدرجات مسرعًا وهو يصرخ: "هيلين تموت".

طرقات شديدة على باب الطبيب الذي ينهض متعبًا، حاول ألا يوقظ زوجته، لكن أصوات الطرقات تزداد عنفًا. يذهب مسرعًا باتجاه الباب ظنًا منه أن أحدًا ما يعاني من حالة صحية حرجة، يفتح الباب، فإذا به يفاجأ بصديقه الفيلسوف الذي تتسابق الجامعات على استضافته يصرخ في وجهه: "لقد قتلت زوجتي!". ذهل الطبيب، وتصور أن الأمر مجرد خدعة فلسفية يريد جاره أن يمتحنه بها، لكن أمام صرخات ألتوسير بدأ سكان العمارة يتوافدون، وقد هالهم منظر الفيلسوف وهو يرتدي بيجامة النوم ويصرخ: "أخيرًا قتلتها". الكثير منهم اعتقدوا أن الرجل يعاني من اضطرابات نفسية، فهو دائم الصمت، لا يختلط كثيرًا مع الجيران، في أوقات كثيرة يلاحظونه يعبر الشارع وهو ساهم، فقد سبق له أن عانى من هول الأسر والسجن إبان الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازي لفرنسا. كانت ثلاث سنوات مريرة وقاسية على نفسيته وجسده وصحته أيضًا، أخذ يصرخ بشدة: "لقد خنقت هيلين"، لم يصدق الطبيب وأخذ يحاول تهدئته: "ما تقوله يا صديقي أمر مستحيل". وأمام إصراره وصراخه يذهبان معًا إلى الشقة، وحين وقفا عند السرير كانت هيلين ماتزال نائمة، عيناها تحدقان في السقف، أخذ إيتان يفحص نبضها ثم التفت إلى ألتوسير ليبلغه: "لقد تأخرنا".

"لكن يمكنك إنقاذها.. حاول أرجوك"، قال ألتوسير.

"لقد فات الأوان"، قال إيتان، ثم تناول سماعة الهاتف ليبلغ الشرطة

وإدارة الصحة بالأمر.

لم يعد يتذكر بعدها ماذا حصل، كل شيء يبدو في ذهنه مشوّشًا. يتذكر أن الطبيب إيتان قام بإعطائه حقنة، فيما دخل إلى الشقة عدد من الأشخاص. كان منظر الكتب التي توزعت على المكتب قرب صورة صغيرة الحجم لكارل ماركس هو آخر ما يتذكره قبل أن يغرق في الظلام، ليستيقظ في مستشفى للأمراض النفسية.

***

عام 1849م، يصل ماركس إلى لندن، كان يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا، متزوج من جيني فون، ابنة موظف، بقيت معه لنحو أربعين عامًا شريكته الوفيّة، تقاسمه فترات الفقر والحرمان وسوء الحظ. لم يعش من أولادهما الستة غير ثلاثة، ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان. ومما لا شك فيه أن ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لوّنت آراء ماركس، وتعد مسؤولة عن الحدّة والثورية في كتابته. ولم ينقذ أسرة ماركس من الموت الحقيقي جوعًا سوى المساعدات المالية، في كثير من المرات من صديقه فريدريك أنجلز. وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه جنيهًا واحدًا في الأسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك تريبيون، وبعض الأجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة.

وبرغم البؤس والدائنين الملحّين، والمرض والحاجة التي أحاطت به، لكنه كان كعادته يذهب إلى مكتبة المتحف البريطاني لفترات تصل إلى ست عشرة ساعة في اليوم، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفِهِ الذي سيكون عنوانه (رأس المال)، الذي استغرق إعداده أكثر من ثماني عشرة سنة. أما أنجلز الذي كان يعيل عائلة ماركس في تلك الأثناء، فقد يئس من إكمال الكتاب وقال: "اليوم الذي تذهب فيه النسخة الخطّية إلى المطبعة، سأسكر

حتى الصباح ". واعترف ماركس بأن ذلك الكتاب اللعين كان أشبه بـ "كابوس حقيقي".

في أواخر عام 1866م، أرسلت النسخة الخطية للجزء الأول إلى هامبورغ. وفي أوائل السنة التالية، خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الألمانية. ولم تكن هناك ترجمة إنكليزية له إلا بعد نحو عشرين عامًا. وأول ترجمة إلى لغة أخرى - على ضوء أحداث المستقبل - كانت باللغة الروسية في عام 1872م.

كان الكتاب يروي التاريخ الاقتصادي للعالم وتاريخ البشرية، وتبعًا لماركس، هو أولاً قصة استغلال طبقة لأخرى. ففي عصور ما قبل التاريخ، كان هناك مجتمع قبائلي أو مجتمع لا طبقي، أما في العصور التاريخية فيقول ماركس: " تكونت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية، أولاً عبيدًا ثم خدمًا للحالة الإقطاعية، ثم عبيدًا بالأجر لا يمتلكون شيئًا في العصر الرأسمالي".

اعتقد ماركس أن النتيجة النهائية لنضال الرأسمالي وشغبه هي زيادة الأرباح والاحتكار، لأن "أحد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائمًا. تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهمها كبار الرأسماليين ويُقتل الكثيرون دائمًا". تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم، وأخيرا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين، وعندما يأتي ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم، وتصف إحدى فقرات كتاب (رأس المال) الأكثر حيوية والجديرة بالتذكر الخطوات المؤدية إلى حل المشكلة التي تواجه العمال.. إنها الثورة البروليتارية.

لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الأول من (رأس المال)، فبعد موته في عام 1883م، أخذ أنجلز النسخ الخطية للجزئين الثاني والثالث.

فظهر الجزء الثاني في عام 1885م، والثالث في عام 1894م قبل موت أنجلز بعام واحد، ويضمان تنقيحات واستعمالات للنظريات الأساسية الخاصة "بتداول رأس المال" و"عملية الإنتاج الرأسمالي ككل".

***

ما أن ذاع خبر القتل، وطيلة سنوات، أصبح ألتوسير عنوان حملة صحافية مكثفة، تجمع بين اتهامات وتأويلات. وصف البعض ألتوسير بأنه مجرم ينتمي لأسوأ الأنواع، معبرين عن امتعاضهم من قتله زوجته اليهودية. ولدواعي ماركسيته، اعتُبر مسؤولاً عن جرائم الغولاغ وضحايا الثورة الثقافية الصينية. أما مناصرو الحركة النسائية، فقد استنكروا هذه اللامبالاة بالضحية. وجهت أيضًا إلى ألتوسير تهمة معاداة السامية، وأنه صاحب نزعة ستالينية.

أُودع ألتوسير مصحة سانت آن، مستفيدًا من القانون الفرنسي الذي ينص على أن لا جريمة ولا جنحة، إذا كان المتهم يعاني مرضًا نفسيًا وقت ارتكابه الفعل.

في المصح يبدأ بكتابة رسائل إلى هيلين، جُمعت بعد ذلك في كتاب. الرسائل تكشف العلاقة بين ألتوسير وزوجته والهواجس التي تلاحقه.

الثلاثاء، نيسان 1981 منتصف الليل:

عزيزتي هيلين

"سكّين يخترق فؤادي، مضطرب لأني أخبرتك بكل ذلك، أردت أن أخفي عنك تأثيرات الأمر، لكن بدا لي بأنه من الأفضل إحاطتك علمًا بما يسكنني كهاجسٍ: هكذا أنا خلال الفترة الحالية. لكن أحكيه إليك بكيفية، عوض أن تسمح بأخذ مسافة، فقد عبرت بالأحرى عن نفسها بقدر وقوعي

في شباك قوة أعتى مني. حقًا، خلف بعض التمظهرات التي أكشف عنها وأعرضها وأتماهى معها، تكمن حاليًا قوة تهزمني كثيرًا".

كان كتاب (قراءة رأس المال) في البداية قد بني على ندوة حول مخطوطات كارل ماركس أُقيمت في باريس أوائل عام 1965م -نشرت المخطوطات بالعربية 1977م - وشارك فيها، إلى جانب ألتوسير وفوكو، عدد من تلامذة ألتوسير. وهذه الندوة، كما الكتاب بعد شهور، أثارت صخبًا شديدًا في الأوساط الماركسية التقليدية، لأن ألتوسير، الساعي يومها إلى قراءة كتاب ماركس (رأس المال) على ضوء أبعاده الفلسفية والاقتصادية، وربما الاجتماعية أيضًا، كان مهتمًا بتخليص ماركس مما سماه بالتبسيط الذي مارسته الأنظمة الشيوعية على أفكار ماركس. وعلى ضوء هذا الاهتمام، لم يكن غريبًا أن يحاول ألتوسير أن يجمع بين رأسين في الحلال، كما كتب غارودي في نقده لكتاب (قراءة رأس المال)، ويقصد الجمع بين ماركس وفرويد، وهي المحاولة التي قال عنها ألتوسير في مقدمة كتابه إنها إعادة إحياء ماركس المفكر، وفرويد صاحب المنهج.

كان ألتوسير يسعى إلى تخليص فكر ماركس من كل نزعة مؤدلجة، وإعادته إلى مركزيته التاريخية. فكتاب (رأس المال) بالنسبة إليه، ليس كتابًا يبني فكرًا ونظامًا بديلين للرأسمالية، بل هو كتاب يدرس الرأسمالية نفسها، على ضوء معطيات تاريخها وارتباطها بالمجتمعات التي نمت داخلها.

عندما زاره ميشيل فوكو في مصحته العقلية بسانت آن في ضواحي باريس سأله: "هل ما زلت ماركسيًا؟"، أجابه ألتوسير: "ومن نكون نحن بغير صاحب اللحية الكثّة؟ لكن ماركس هو الذي ينبذنا دومًا".

(24)

هل حقًا قرأت مارلين مونرو لغز جيمس جويس الروائي؟

كان في الخامسة عشرة من عمره حين بعث بخطاب إلى الكاتب المسرحي الشهير هنريك أبسن يعلن فيه ولاءه المطلق له، قبلها بعام كان يحدث شقيقه الأكبر عن هوسه بملحمة هوميروس الشهيرة (الأوديسة)، وفي محاولة منه لتقليد الشاعر اليوناني الأعمى كتب قصيدة أسماها (محنة هوميروس). في الإنكليزية يبدأ محاولاته الأولى في كتابة الشعر، في تلك الفترة كان يقرأ لملتون وييتس الذي سيلتقي معه بعد سنوات، فيجد فيه عجوزًا ثرثارًا حين طلب منه الاشتراك في النضال في سبيل القضية الإيرلندية. فيما بعد سيكتشف شكسبير ودستويفيسكي، ويحدّث شقيقه عن حلمه في تجاوز هذين الكاتبين، إلا أن العائلة الكبيرة العدد، البائسة الحظ ماديًا، كانت تأمل في أن يساعدها الابن المصاب بقصور في البصر، بعد أن يحصل على شهادة الطب، فقد كان هو أكبر عشرة أطفال لموظف الضرائب جون ستانيسلاوس جويس. بعد سنوات يجرب حظه في النقد، فيصدر وهو في الثامنة عشرة دراسة عن أبسن نال عليها أول مكافأة مالية في حياته مكنته من أن يقوم بسفرة إلى لندن، للعمل في أحد المصارف الصغيرة. وبعد سنتين، حين أنهكه العمل الوظيفي، يرسل إلى شقيقه رسالة يخبره فيها أنه بصدد تحقيق حلمه الأدبي حيث انتهى من كتابة قصة قصيرة بعنوان (يوليسيس) سيضمها إلى مجموعته القصصية (أهل دبلن). ويمر عام، والمجموعة القصصية تنتظر الطبع، سأله شقيقه عن مصير قصة يوليسيس، فأخبره بأنها لم تتعد مرحلة العنوان بعد، وأنه سيكتبها

في حال تحسن ظروفه المعيشية، وأيضًا ظروفه الصحية.

كان قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، ينهض باكرًا كل صباح ليذهب إلى العمل، ويعود منهكًا فيستريح لساعة أو ساعتين ثم يبدأ الكتابة. مرت السنوات ثقيلة ورتيبة في لندن، فقرر أن يعود إلى دبلن بعد أن علم بمرض أمه الخطير. في هذه الأثناء يقع في حب نورا باناكل، فتاة فقيرة تعمل في أحد الفنادق، فيتزوجها ويقرر أن يأخذها ويسافرا إلى روما حيث عمل هناك مدرسًا، ليعيش أتعس خمس سنوات في حياته من الناحية المادية، لكنها كانت غزيرة من ناحية الإنتاج الأدبي، أصدر خلالها مجموعته القصصية (أهل دبلن)، وأعاد كتابة (ستيفن بطلاً) لتصدر تحت عنوان آخر (صورة الفنان في شبابه).

في العام 1914م، يبدأ التأليف الفعلي لروايته الأضخم (يوليسيس)، ويخبر شقيقه أنه قرر التوسع بالقصة القصيرة ليجعل منها رواية تحكي جزءًا من سيرته الذاتية، وأن يجعل من تجوال بطله في أنحاء دبلن أشبه برحلة يوليسيس الأصلي عبر البحر الأبيض المتوسط، ولكن من دون أن تتسم بالتقليد والمحاكاة: "إنها رواية وليست ملحمة. أريد أن أناطح بها دستويفيسكي"، هكذا قال لزوجته وهو ينهي الفصل الأول من الرواية.

***

تبدأ أحداث (يوليسيس)، في الساعة الثامنة من صباح السادس عشر من حزيران عام 1904م، صعد بَك مليكن السُلّم العتيق حاملاً دورقًا مملوءًا برغوة الصابون وعلبة مرآة وسكين حلاقة، وبعد لحظات انضم إليه ستيفن ديدالوس - الذي هو جيميس جويس نفسه ويتكرر في معظم أعماله - وصعد قمة السُلّم وتأمل خليج دبلن. وعندما أخذ مليكن يتحدث عن جمال البحر وانعكاس شُعاع الشمس، لاحت لستيفن ذكرى والدته فجأة،

فقد دُعي للعودة من باريس قبل وفاتها بعام. واسترجع ذكراها حينما كانت تتوسّل إليه للدعاء لها، لكنه قابل إلحاحها بالرفض.

كان ستيفن معلمًا، ولأنه كان يوما حارًا، فقد كان الصِبية ضجرين، إلا أن أحد طلبته الصغار كان عاجزًا عن حل المسائل الحسابية البسيطة. وللحظات، رأى ستيفن صورة طفولته الحرجة في ذاك الصبي. وتنفس الصعداء عندما أنهى الدرس وأذن بالانصراف.

يذهب ستيفن ليتجول على الشاطئ وحيدًا، ويفكر بماضيه وأمسه، بهوايته للأدب وبأيام دراسته، وتعاسته في دبلن، وعوزه المادي، وغرق أسرته في الفقر الشديد، وإصرار والده على ارتياد حانات دبلن بشكل يومي.

وفي تلك الأثناء، ينهض ليبولد بلوم من فراشه متثاقلًا ليُعدّ إفطار زوجته. بلوم الذي يعمل مسوّقًا للإعلانات، يتسم بصبره على زوجته، حيث كان يعلم بعلاقتها الغرامية بمنسق حفلاتها - هذه الأحداث مطابقة لحياة جيميس جويس الذي يتشاجر مع أحد أصدقائه حين يخبره أنه كان على علاقة قديمة مع زوجته نورا - يتناول بلوم إفطاره ويقرأ برقية من ابنته، التي تعمل في متجر للتصوير. استرجع على إثرها ذكرى ابنه رودي، الذي وافته المنية وهو وليد يبلغ من العمر أحد عشر يومًا. وأعاد بلوم قراءة البرقية مُتسائلًا عن طالب شاب ذكرته ليلي، وللحظة، جزع خوفًا من أن تسير ابنته على خطى والدتها.

خرج بلوم للتنزه كعادته الصباحيّة، وتوقف عند مكتب البريد لاستلام برقية مُرسلة من سيّدة يُظهر توقيعها بأن اسمها مارثا. عاد بلوم إلى منزله واستهل قراءة البرقية. ذهب بعد ذلك وهو ضجر إلى الكنيسة ليستمع إلى جزء من القداس، ثم ينضم إلى جماعة تشيّع صديقًا قديمًا، يُدعى بادي ديغنام، توفّي متأثرًا بسكتة. وأثناء المأتم، تأمّل بلوم الأب كوفي، الذي بدوره

أعاد إليه ذكرى نجله الصغير رودي ثانيةً، ووالده الذي كان ضحية انتحار.

أمّا بالنسبة ليومه العملي، فقد كان يجري مكالمة في المكتب الصحافي ليُنسق لطباعة إعلانٍ ما، وبينما كان يمضي وقته هناك رأى ستيفن وتبادلا النظرات، إلا أنهما لم يحاولا التحدث معًا. غادر بلوم مبنى الصحافة متجهًا إلى النهر، وصادف السيدة برين في طريقه ووصف لها باقتضاب ما جرى في المأتم، وحدثته هي عن السيدة بورفوي التي قضت الليل معها في مستشفى للولادة. واصل بلوم مسيره، متأملًا دبلن في يوم صيفي، فدخل إحدى الحانات وطلب إفطارًا. وذهب لاحقًا إلى المكتبة الوطنية للاطلاع على ملفات بعض الصحف. هناك يلتقي بمليكن وبعض الأصدقاء الأدباء فيحدثهم عن نظريته حول مسرحيات شكسبير، بعدها يذهب بلوم إلى فندق أرموند ليتناول الغداء، ويرى ستيفن ديدالوس يخرج مسرعًا، لكنه لم يتحدث إليه. وفي ظهيرة ذلك اليوم، اشتبك بلوم في نزاع في إحدى الحانات، حول المال الوفير الذي ربحه بليز بويلان نتيجة فوزه في مباراة ملاكمة. هرب بلوم من ضجيج الزحام وذهب يتمشى على الشاطئ، مع حلول العصر شاهد بلوم الفتاة غيرتاي ماكدويل، ثم قرر الرحيل بطلوع القمر، وارتأى له أن يقف لحظات عند المستشفى ليسأل عن السيدة بورفوي. وأثناء مشيه بتباطؤ على امتداد الساحل، يتذكر بأن زوجته تخونه كل يوم بينما هو سارح في أحلام يقظته، يتأمل دبلن وشاطئها. وصل بلوم إلى المستشفى وعلم بأن السيدة بورفوي لم تلد بعد. ومرة أخرى رأى ستيفن هناك، يشرب برفقة بَك مليكن وبعض طلبة الطب. ينضم بلوم لهم ليذهبوا معًا إلى حانة قريبة، هناك يحصل شجار بين ستيفن ومليكن وهما في حالة سكر شديد حول أحقية امتلاك مفتاح البرج القديم، يتركهم ستيفن ليذهب مع أحد طلبته إلى بيت دعارة في أحد الأحياء الفقيرة في دبلن، يتبعهما بلوم، ليفاجأ بلوم بزوجته في وضعية مُخلة، ومقرفة. وفجأة في الناحية الأخرى، توهجت لدى ستيفن ذكرى

والدته وهي على فراش الموت، تتوسل إليه بأن يدعو لها، ليخرج وهو يركض لاهثًا بين الشوارع، ويصادف جُنديين بريطانيين فيشتبك معهما في عراك، حتى يخلّصه بلوم ويصطحبه معه إلى المنزل.

مُتأثرًا ومُنهكًا بليلته الكالحة، راح ستيفن ديدالوس يتحدث عن العلم والفن، وتوّسل بلوم إلى ستيفن بأن يبيت تلك الليلة معه في المنزل، وأن يتخلى عن بَك مليكن ورفاقه المنحرفين ويأتي للعيش معه، إلا أن ستيفن يرفض، ويخرج في عتمة الليل وسكونه الذي لا يقطعه سوى صوت أجراس كنيسة سانت جورج.

أما بلوم فقد ذهب إلى فراشه متثاقلًا، وعندما أخذه النعاس قال لزوجته بلهجة حادّة بأن عليها أن تستيقظ باكرًا لتُعدّ إفطاره. بينما بقيت الزوجة مستيقظة طوال الليل تسرح بأفكارها عن عشيقها، وتفكر بغموض الجسد البشري وتعقيداته، وبالناس الذين عرفتهم مدى حياتها. وبينما هي غارقة بأفكارها سمعت صوت صفارة القطار، وارتسم لها ماضيها وعُشاقها القدماء، وعلاقتها الغرامية ببلوم قبل الزواج. تدفقت تلك الذكريات المؤلمة، بينما في الجانب الآخر يغرق بلوم، الذي يرمز ليوليسيس، في النوم يملأ شخيره الغرفة المظلمة.

***

في نهاية عام 1917م، أنهى جويس الفصول الأولى من (يوليسيس) واستعد لطبعها على الآلة الكاتبة. وكان قد عرض ذلك على ناشرة مجلة (الفيردي)، وهي مطبوع صغير كان له تأثير في الحياة الأدبية، أن تحاول إصدار الرواية على شكل حلقات بنفس الطريقة التي نشرت بها عام 1915م روايته (صورة الفنان في شبابه). وبما أن الآنسة ويفر صاحبة المجلة كانت تؤمن إيمانًا راسخًا بعبقرية جويس، وافقت فورًا على نشر الفصول

الأولى، لكن الصعوبة كانت في إيجاد من يقوم بطبع هذه الرواية التي اتخذ مؤلفها منهجًا جديدًا في اللغة. وبعد مفاوضات دامت أكثر من عام، وافق صاحب مطبعة على طبع الفصول الأول والثاني والثالث، ولكن بعد حذف عبارات رأى فيها استهزاءً بالدين، الأمر الذي جعل جويس يرفض فكرة صاحب المطبعة، ويأخذ المسودات إلى أحد أصدقائه الذي يتوسط عند صاحب مطبعة تجارية كبيرة ليسلمها بعد ذلك إلى الآنسة ويفر التي قامت بنشرها متسلسلة، إلا أن الرواية لم تلاقِ النجاح المطلوب بسبب غرابة أحداثها، والتعقيد الذي تعمده جويس في لغتها. كما أن الحكاية تروى بطريقة معقدة جدًا، لأنها تصوير لنشاط الإنسان في هذا العالم وليس مجرد وصف لجماعة من الأفراد في مدينة دبلن. وقد كان جويس يرى في أوديسة هوميروس كمال الأدب كله من خلال شخصية يوليسيس، فإنه أراد أن يعيد بعث هذه الشخصية في القرن العشرين، ليعرض من خلالها الإنسان بكل جوانبه، فهو جبان وبطل معًا، حذر ومتهور في آن واحد، ضعيف وقوي في الوقت نفسه، زوج وعاشق أيضًا، كريم وبخيل معًا، طالب ثأر ومتسامح وسخيف. ولهذا فقد حاول جويس أن يجعل مغامرات بطله ليبولد بلوم تسير على غرار ذلك النموذج في ملحمة هوميروس، لذلك يمكن للقارئ أن يجد في كل الأحداث التي يمر بها بلوم خلال يومه الطويل في دبلن، ما يقابلها في مغامرات يوليسيس في الأوديسة، فبلوم هو كل إنسان عاش في هذا العصر، ودبلن هي العالم مصغرًا. ولهذا نرى جويس يصر على أن يعبّر عن كل شيء واصفًا مغامرات مجموعة صغيرة من الناس في يوم واحد ليرمز من خلالها لمجموع النشاط الإنساني، وهو لا يقدّم لنا وجهة نظر معينة، كما أنه في الرواية لا ينحاز لفكر معين، ولا يحاول أن يطبق أي ميزان من موازين القيم الأخلاقية والاجتماعية، ذلك لأن الفنان من وجهة نظر جويس يجب أن يكون منعزلاً ومخلصًا لفنه أولاً، وينبغي أن لا يرتبط بوجهة نظر معينة

يحاول أن يفرضها على القارئ.

بعد أن شعر جويس بأن الرواية لم تنل حظها في لندن، طلب من صديقه عزرا باوند، الذي كان يساعده ماديًا بين الحين والآخر، أن يساعده هذه المرة في نشر الرواية في الولايات المتحدة الأميركية. في ذلك الوقت، كان باوند يعمل مستشارًا لمجلة تدعى (المجلة الصغيرة) تديرها سيدة من شيكاغو اسمها مارغريت أندرسون، وعندما عرض باوند الفصول الثلاثة الأولى على أندرسون، صرخت بفرح: "سوف أطبع هذه الرواية ولو كان هذا آخر عمل أقوم به في حياتي". وكما حدث مع الآنسة ويفر، وجدت أندرسون صعوبة في إقناع صاحب مطبعة يتمكن من طبع المقاطع المفردة، والتي كانت في ذلك الحين تعتبر عصيّة على الطباعة، تمكنت أندرسون من التغلب على هذه المشكلة بمساعدة طباع صربي، لتظهر الحلقة الأولى من الرواية في نيويورك في العاشر من آذار عام 1918م. وقد لقيت الفصول الأولى نجاحًا كبيرًا، لكن هذا النجاح لم يبدد قلق باوند على الرواية حيث كان متيقنًا أن بعض أقسام (يوليسيس) سوف تمنع من النشر. وكي يستبق الأحداث، قام ومن دون استشارة جويس بحذف عشرين سطرًا من الفصل الرابع، وعلم جويس بهذا الحذف بعد نشر الفصل، فأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى باوند يطالبه فيها بالحفاظ على محتوى الرواية كاملة، الأمر الذي اضطر عزرا باوند أن ينصحه بوقف نشر الرواية متسلسلة، والعمل على طبعها في كتاب واحد. لم يقتنع جويس بهذه الفكرة وواصل إرسال باقي الفصول إلى المجلة، وكما توقع باوند قامت دائرة البريد الأميركية بمصادرة وحرق الجزء المتعلق بلقاء بلوم وستيفن في المكتبة العامة، حيث وجد فيه الرقيب ألفاظًا بذيئة تسيء للمجتمع. بعد أسابيع تم منع الفصل الخاص بالقديس لويجي كونزافا. عام 1920م، قررت هيئة البريد إرسال خطاب للمجلة تطلب فيه بحذف فصل السكلوب، ولم تنفع احتجاجات هيئة تحرير المجلة، الأمر الذي دفع جويس

لأن يكتب رسالة إلى عزرا باوند يقول فيها: "هذه هي المرة الثانية التي أحرق فيها وأنا ما أزال على قيد الحياة، وهذا ما يجعلني آمل أنني سأمر بين نيران المطهر بسرعة". ثم أخذت الأمور اتجاهًا خطيرًا آخر، فقد قام سكرتير جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة برفع شكوى رسمية ضد الرواية، وقد اعتبر عزرا باوند وجيمس جويس أنه مهما كانت نتائج هذه الدعوى القضائية، فإنها لابد أن تحتل مكانًا بين محاكمات القرن الماضي، كما حدث مع (أزهار الشر) لبودلير و (مدام بوفاري) لفلوبير. تم سماع القضية في نهاية شباط من عام 1921م، ليصدر قرار المحكمة باعتبار الكتاب مثيرًا للقرف أكثر منه داعيًا للانحراف، ويقزز النفس أكثر مما هو ملوث، وتم تغريم صاحبة المجلة 50 دولارًا مع أخذ تعهد منها بعدم طباعة الفصول المتبقية من الرواية. وقد أوقع قرار المحكمة جويس في نوبة من الكآبة، فيما امتنعت دور النشر في أميركا عن طبع الرواية، ما دفعه للاتصال بالآنسة ويفر أن تتمكن من طباعتها في لندن، فعرضت الرواية على فرجينيا وولف التي وجدت فيها قبحًا كثيرًا، وكتبت للناشرة: "وكأنها انتشار للدمامل على جسد ماسح الأحذية في فندق كلاريدج "، وحين عرضت على د. ه. لورنس اعتبرها رواية بذيئة جدًا. وبعد أن أيقن جويس أنه لا يوجد أي ناشر في نيويورك أو في لندن مستعد لنشر (يوليسيس) كتب إلى شقيقه: "يبدو أن يوليسيس لن تظهر أبدًا". لكن الفرج جاء هذه المرة من باريس، فقد قررت دار نشر شكسبير إصدار ترجمة فرنسية من الرواية، وافق جويس حالاً، وفي نيسان عام 1922م صدرت الطبعة الفرنسية، التي تلقف نسختها الأولى إرنست همنغواي ليكتب عرضًا نقديًا لها معتبرًا يوليسيس: "كتابًا رائعًا بحق الجحيم"، وحدق إليه وليم فوكنر وهو جالس في أحد المقاهي ولم يجرؤ على مخاطبته تبجيلاً واحترامًا. وعرض سكوت فيتزجرالد على جويس أن يسمح له بالقفز. ونفدت نسخ الطبعة الأولى وكانت 2000 نسخة، وفي عام واحد تمت طباعة الرواية سبع

طبعات أخرى، ما دفع دور النشر الأمريكية إلى محاولة إصدار نسخة من الرواية، لكن قرار المحكمة لا يزال ساريًا. فقام عدد من الأدباء، ومنهم عزرا باوند وفيتزجرالد بإقامة دعوى قضائية لإزالة المنع، حيث سمح عام 1932م بنشر الرواية. فقامت دار نشر راندوم هاوس بإرسال الرواية إلى المطبعة لتصدر في نهاية العام النسخة الإنكليزية الأولى، وعلى مدى عشرة أيام بيع منها 33.000 نسخة، وقد تعهد إليوت بنشر الرواية في إنكلترا فدفعها إلى المطبعة عام 1934م بعد أن كتب لها إليوت مقدمة بعنوان (النظام والأسطورة في يوليسيس)، اختتمها بالعبارة المؤثرة التالية: "إنني أعتبر هذا الكتاب أهم تعبير عن عصرنا الحالي، وإنه لكتاب نحن جميعًا مدينون له، وليس من أحد يمتلك القدرة على الهرب منه".

***

نورما چين، الشهيرة بمارلين مونرو، تجلسُ متمددةً بغنجٍ تقرأ، وعلى وجهها تعابير الدهشة الطفولية، من يدقق النَّظرَ إلى الكتاب الذي بين يديها يجد أنه كُتِبَ عليه (Ulysses). ترى هل كان يدور في ذهن جيمس جويس وهو ينشر روايته المثيرة للجدل، أن هذه الرواية ستقع في يوم من الأيام في يد واحدة من أجمل نساء الكرة الأرضية وأكثرهن شهرة؟ وأن هذه الجميلة ستخصص جزءًا من وقتها المزحوم بالسهرات والمقابلات والأفلام لتقرأ يوليسيس؟ ولعل البعض منا يسأل هل استطاعت أن تحل ألغاز هذه الرواية التي قال عنها مؤلفها بعد أن دفعها للنشر: "يا لها من رواية متعبة؟" ويبدو أن التعب من يوليسيس لم يكن مصير جويس وحده، بل قدر الذين يقررون قراءة الرواية.

سألت الكثير من الأصدقاء هل قرأتم رواية (يوليسيس)؟ يضحك البعض منهم، وآخرون يقولون لم يقرأها سوى القليل، كما كانت مفاجأة

بالنسبة لي أن كثيرًا من الروائيين لم يستطيعوا قراءتها بالكامل، لكنهم بالمقابل شغوفون بقراءة كل ما يتعلق بجيمس جويس من كتب ومقالات.

ترجمت (يوليسيس) إلى العربية ثلاث مرات؛ الأولى كانت عام 1948م من قبل أديب مصري اسمه لطفي جمعة كان مولعًا بجيمس جويس، لكنه لم يكمل الترجمة بسبب عارض صحي. فنشر جزءها الأول. والترجمة الثانية التي قدمت للقارئ العربي كانت ترجمة الدكتور طه محمود طه التي نشرت عام 1982م بجزئين، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا يقدم الشاعر والمترجم العراقي صلاح نيازي ترجمة جديدة صدرت عن دار المدى بأربعة أجزاء.

(25)

الفيلسوف الذي رفضته امرأة فقرر الانتقام من البشرية

كانت في الحادية والعشرين من عمرها حين أربكت أستاذ الفلسفة البالغ من العمر الثامنة والثلاثين، عندما التقاها في روما، استهل حواره معها بعبارة: "من أي نجم سقط كل منا على الآخر؟" كان قد ترك التدريس لأسباب تتعلق بصحته المتعبة، راح يتنقل في فنادق متواضعة بين نيس وروما، باحثًا عن الإنسان الكامل. كان يكتب في الصفحات الأخيرة من كتابه (العلم المرح)، يكتب إلى صديقه بول ري: "حيّوا تلك الروسية باسمي فأنا متعطش لهذا النوع من البشر، وسأضع نفسي قريبًا فريسة لهذا النوع من الشرك، فأنا بحاجه إليه في السنوات القادمة". ورغم أن نيتشه كان يعتقد أنه غير مؤهل للاتحاد مع امرأة ترغب في منح الراحة إلى زوجها والبيت الدافئ المريح، لكنها تسلب وبإرادة كاملة زخم الاندفاع الداخلي للروح البطولية عند الرجل. ويكتب في مقال طريف عن الزواج أن سقراط وجد في نهاية الأمر المرأة المناسبة، (أنخا كسانتيب) القبيحة التي شجعته باضطراد مستمر على أداء مهمته العقلية حيث جعلت المنزل منفرًا، وحين كانت تطرده خارج المنزل كانت بهذه الطريقة تسهم في جعله أكبر مجادل في أثينا، وهو يصف نفسه في ختام المقال مثل الطير الحر الذي يفضل الطيران وحيدًا.

ونراه يتساءل في (زرادشت) عن معنى الزواج فتكون الإجابة أنه: "فقر الروح الذي يتشارك فيه اثنان.. آه! قذارة النفس التي يتشارك فيها اثنان، هذا الهناء الشقي الذي يتشارك فيه اثنان". ويضيف: "إن ما تسمونه حبًا هو

عبارة عن الكثير من لحظات الجنون القصيرة، ويضع زواجكم نهاية للحظات الجنون القصيرة تلك ويستبدلها بغباء طويل الأمد". عندما التقى فريدريك نيتشه بـ "لو أندرياس سالومي"، فكر أكثر من مرة أن يجرب هذه الكذبة الصغيرة المهندمة، إنه الأمل في التخفيف من وحدة الفيلسوف، وربما الرغبة في طمأنة شقيقته التي تراه غارقًا في أفكاره السوداوية، والتي كانت تقول له دومًا: "لابد أن تتزوج"، وكانت هذه الشقيقة تتقمص في مناسبات عديدة دور الخاطبة وتبحث له عن زوجة مناسبة، وتضع أمامه كل أسبوع الكثير من المرشحات، إلا أن هواجس الفيلسوف النزقة كانت شديدة الغرابة. ورغم أن الحلم بالعيش داخل منزل زوجي ظل يداعب خياله، لكنه في عام 1877م سيكتب لشقيقته الكبرى: "أرجوك لا تشغلي نفسك بالبحث كثيرًا، فإن المرأة الكاملة التي تناسبني أصبحت سلعة شحيحة". وفي رسالة أخرى يكتب لها: "إن الزواج يخلو من المعنى، نحن نعيش لليوم، نعيش سريعًا جدًا، ونعيش بطريقة غير مسؤولة، وهذا ما نسميه تحديدًا حرية ثم تتوالى الأزمات، ويتوالد الكره ويصاب الأطفال بالخسارة"، ويختتم رسالته بقوله: "ينبغي أن يمنع على الإنسان حين يكون عاشقًا أن يتخذ قرارًا يكون ملزمًا له طوال حياته".

***

في الرابعة من عمره توفي والده الذي كان يعمل كاهنًا للقرية، فاهتمت به أمه وشقيقاته، وكان لذلك الجو النسائي أثره البعيد في تكوين شخصيته، إذ نشأ رقيق الطباع، ناعم الشخصية، ذا طباع نسائية. وهو ما حاول تغطيته فيما بعد بأفكار فلسفية تنزع إلى الشراسة والقوة. لم يمض طفولته في اللعب والمرح مثل أقرانه، لأن أمه التي كانت أيضًا ابنة لكاهن أرادت أن تجعل من ابنها خادمًا للكنيسة، فأخذت تحفِّظه الإنجيل وهو في سن الخامسة، وكانت تأخذه إلى الكنيسة ليستمع إلى الخطب الدينية ويحفظها. حتى أن زملاءه في

المدرسة أطلقوا عليه لقب القسيس الصغير، وتشاء ظروف هذا الصبي الذي بلغ مرحلة الشباب وهو يستمع إلى وصايا أمه وشقيقاته أن يعثر عام 1865م، وبالصدفة، في مكتبة للكتب المستعملة على نسخة من كتاب شوبنهور (العالم إرادة وفكرة). كان فيلسوف التشاؤم قد مات قبل خمس سنوات. ويسحره الكتاب فيقرر أن يكرّس وقته كله لدراسته، ونراه يصف شعوره وهو يقرأ شوبنهور بقوله: "وضعت كتاب شوبنهور في يدي وكان مجهولاً تمامًا بالنسبة لي، وبدأت بتقليب الصفحات. لا أعلم أية روح حارسة كانت تهمس لي "خذ هذا الكتاب إلى المنزل". في جميع الأحوال هذا ما حدث، مع أنه كان مناقضًا لعادتي بعدم التعجل بشراء كتاب أبدًا. في المنزل رميت بجسدي على السرير، وبدأت بالسماح لتلك العبقرية الكئيبة بالتأثير على حياتي. كان كل سطر يصدح بالإنكار والنفي والتسليم".

عندما أرسل رسالة إلى أمه وشقيقته، استبدل نيتشه الحديث المعتاد عن وضعه الصحي، وراح يقدم لهما أفكارًا ملخصة عن فلسفته الجديدة المتعلقة بالإنكار والتشاؤم من العالم: "نعلم أن الحياة تتكون من المعاناة، وأننا كلما جهدنا أكثر في محاولة الاستمتاع بها، ستزداد عبوديتنا لها، ولذا ينبغي علينا نبذ متع الحياة والركون إلى التقشف". بدت هذه الرسالة غريبة بالنسبة لأمه التي ردت برسالة تشرح فيها عدم استساغتها لذلك النوع من الآراء، ونصحت ابنها بأن يأكل جيدًا. لكن تأثير هذا الفيلسوف لم يخمد، وبدأ نيتشه يعيش حياته تحت ظلال شوبنهور، ونراه خلال خدمته العسكرية يضع صورة لفيلسوف التشاؤم على مكتبه وكان يصيح في اللحظات العصيبة: "شوبنهور.. النجدة". في عام 1869م، يحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وتستدعيه جامعة بازل السويسرية لإشغال كرسي الأستاذية للغة الألمانية وآدابها، غير أن التدريس لم يمنعه من التفكير في المساهمة الألمانية في الأحداث الدامية التي كان يخوضها بسمارك في سبيل الأمة الألمانية. وفي

تلك السنوات بدأ ينجذب إلى الموسيقى، وما هي سوى أيام حتى نراه من أكبر المتحمسين لموسيقار عصره فاغنر، كما راح يعزف في أوقات فراغه على آلة البيانو بشغف، ويجرب تأليف نوتات موسيقية عرضها فيما بعد على فاغنر الذي رماها جانبًا. كان الموسيقار الألماني قد تأثر في بداياته بفلسفة فيورباخ، لكنه تحول عنها بعد أن سحرته أفكار شوبنهور، وها هو يرى في أستاذ الفلسفة الشاب نبوغًا من نوع خاص، فقرر أن يرعاه، فدعاه لأن يقضي عطلة عيد الميلاد في منزله. وهناك استمع نيتشه إلى موسيقى المستقبل التي كان يعزفها له فاغنر بنفسه، وهناك أيضًا كان يستمع إلى الموسيقار العظيم وهو يحدثه عن آرائه في العنصر الجرمني وعن الطبقية والمسيحية. ومن هناك، وقد سيطرت عليه موسيقى فاغنر وآراؤه في الفن والسياسة، يقرر ذات يوم أن يتسلق جبال الألب ليجد له مكانًا هادئًا فيكتب إلى شقيقته: "لدي الآن أفضل وأروع هواء في أوروبا لأتنفسه، طبيعة تشبه طبيعتي". في هذه الأجواء يضع مؤلفه الأول (مولد المأساة)، وفيه يقدم تصوره الفلسفي للآداب والفنون الإغريقية، حيث يؤكد أن أعظم الفنون اليونانية إنما كانت مزيجًا لاختلاط إيحاءات إلهين من الآلهة اليونانية هما دينيسوس وأبولو. وقد أهدى نيتشه أول نسخة من الكتاب إلى ملهمِه فاغنر وكتب في الإهداء: "إلى المعلم فاغنر: سترى أنني قد حاولت في كل صفحة أن أعبر لك عن شكري على ما أفدتني إياه، وإني لأشعر والفخر يملأني بأن لي شأنًا وأن اسمي سيقترن دائمًا باسمك". وما أن انتهى من (مولد المأساة) حتى وصلته أخبار الحرب بين ألمانيا وفرنسا، فطرب لذلك كل الطرب وسارع إلى ترك سويسرا ليستقل القطار المنحدر إلى فرانكفورت وفي نيته الالتحاق بالقطعات الحربية الألمانية ليسجل بنفسه أساطير التفوق الجرماني، لكن الفحص الطبي العسكري حال بينه وبين تحقيق رغبته، إذ وجد أن بصره ضعيف للغاية وأنه لا يصلح للقطعات الأمامية ويمكنه الخدمة في المواقع الإدارية للجيش. وفي الجيش

بدأت الخيوط العريضة لفلسفته تتضح، إذ يكتب لأمه بعد أن شاهد مسيرة لإحدى الكتائب العسكرية الذاهبة إلى القتال: "لقد شعرت لأول مرة في حياتي بأن إرادة الحياة في أقوى وأسمى مظاهرها، لا يمكن أن تعرب عن ذاتها في الكفاح العادي التافه، إنما في إرادة الحرب وفي إرادة القوة، بل وفي إرادة ما فوق القوة".

***

لم يكن البحث عن زوجة لنيتشه بالأمر السهل، وإذ كانت المشكلة عائدة في بعض الأحيان إلى مظهره الفظ، فإنها أيضًا كانت مرتبطة بخجله الشديد وطريقته الخرقاء في التعامل مع النساء. لكننا نراه في ربيع عام 1876م يقع في غرام ماتيلدا ترامبيداخ، فتاة شقراء في الثالثة والثلاثين من العمر، أثناء محادثة عن شعر هنري لونغفيلو. وبعد أيام فوجئت الفتاة بجملة طويلة يلقيها أستاذ الفلسفة أمامها وعلى عجالة، كأنه يريد أن يتخلص من أمر صعب. كانت الجملة عبارة عن عرض للزواج: "ألا تعتقدين أن كلاً منا سيكون أفضل وأكثر تحررًا لو كنا معًا مما لو كان كل منا سيفعله منفردًا؟ فهل تجرؤين على القدوم معي في جميع دروب الحياة والتفكير؟" سألها وهو يتلعثم، لكنها نظرت إلى شاربه الغليظ ثم اختفت، بعدها تتابعت سلسلة من حالات الرفض المشابهة. وفي ضوء اكتئابه وضعف صحته قرر ريتشارد فاغنر أن ثمة علاج واحد ممكن: "عليك أن تتزوج من امرأة ثرية". ولم يخطر على بال الموسيقار الشهير أن المرأة الثرية الوحيدة التي كان يحلم بها تلميذه هي زوجته كوزيما. فلسنوات ظل نيتشه يخفي مشاعره نحو زوجة فاغنر بحرص تحت غطاء الصداقة، ولم تكشف الحقيقة إلا بعد أن فقد عقله حيث كتب لها: "أنا أحبك يا معبودتي" في بطاقة معايدة أرسلها لها من المصحة.

عام 1888م اعتقد أنه وجد المرأة المناسبة "لو أندرياس سالومي"، وهي

حبه الأكبر والأشد إيلامًا، فتاة جميلة وذكية، مسحورة بفلسفته. قال لها بعد أسبوعين من تعارفهما: "لم أعد أرغب بالبقاء وحيدًا أبدًا". كان في ذلك الوقت يعاني من مصاعب مالية، لم يبع أيًا من كتبه سوى نسخ قليلة، وبعض المبالغ التي كان يحصل عليها من عائلته لا تكاد تكفي لحجز أرخص الغرف في فنادق بائسة، وغالبًا ما يتأخر في دفع الإيجار، ولم يعد قادرًا على دفع تكلفة طبق العشاء. وقد منحته سالومي في بداية علاقتهما الأمل الزائف، رحلة إلى مونت ساكرو. هناك اكتشفت رجلاً أشعث الشعر، مثقل القلب دومًا، شكاكًا، وتدل هيئته على الجنون، كتب إلى شقيقته: "يبدو أني لم أعنِ شيئًا بالنسبة لها أبدًا". وفي الخطاب الأخير الذي أرسله إلى سالومي لم يطلب منها أكثر من شيء واحد: "أن نشعر أننا متحدان في كل ما لم تبلغه الأرواح". ولكن حتى هذا رفضت أن تعده به، ونراها تقرر في النهاية الارتباط بالشاعر رينيه ريلكه، الذي أراد أن يتحرش به ويدفعه إلى مبارزة من أجل تلك الخائنة الروسية.

بعد هذه الخيبات التي تركت في أعماقه جروحًا عميقة، صب غضبه على النساء في كثير من مؤلفاته. قال: "النساء يتآمرن دائمًا على نفوس أزواجهن الأكثر رفعة، يردن سلب مستقبلهم منهم لحاضر مريح بعيد عن الألم". في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) يكتب: "يجب أن يهيأ الرجال للحرب، وأن تهيأ النساء للترفيه عن المحارب".

وقد دفعه رفض سالومي لأن يعيش في أقصى درجات اليأس. ونراه يكتب وهو يعيش أقصى حالات اليأس: "هذه اللقمة الأخيرة من الحياة كانت أصعب ما اضطررت إلى مضغه حتى الآن، ومازال من المحتمل أن أختنق بها، إنني أعيش الآن في عزلة تامة ومحطمًا على نحو لا يطيقه إنسان، ولو لم اكتشف الخدعة الكيميائية لتحويل هذا السماد إلى ذهب لضعت، إنني هنا أمام أفضل فرصة لإثبات أنها ليست لي، فإن جميع التجارب مفيدة وجميع

الأيام مقدسة". وبناءً على هذا بدأ بكتابة (هكذا تكلم زرادشت) الذي وصفه بأنه أهم كتاب على الإطلاق قُدم إلى البشرية، فقد كان يريد أن يعبر عن كل ما بداخله دفعة واحدة، هكذا أخبر شقيقته: "أحب الذين لا يعرفون للحياة معنى بغير الإبادة والتدمير، لأن هؤلاء وحدهم هم الذين يمضون إلى ما وراء القوة".

كتاب (هكذا تكلم زرادشت) يعد من أكبر الكتب إثارةً للجدل، حاول نيتشه أن يقدمه إلى المطبعة بجزئين، وقد تأخر صدور الجزء الأول بسبب انشغال المطبعة بطبع نسخ من التراتيل الدينية. وعندما أرسل الجزء الثاني إلى الطبع رفض صاحب المطبعة طباعته بدعوى أنه كتاب فاشل، وكان كلام الناشر صحيحًا، فلم يبع من الجزء الأول سوى أربعين نسخة. حيث استقبل الكتاب ببرود قاتل من قبل المهتمين بالفلسفة، فلم يرحب به أحد، بل حتى زملائه السابقين في الجامعة اعتبروا الكتاب فاشلاً لأنه يريد أن يقتل جميع الأديان والآلهة: "لأنني عشت جميع الأخطار، فسأدفنكم بيدي أنا، لقد ماتت الآلهة القديمة منذ زمن بعيد، ولقد كانت نهايتها حسنة وفرحة". ويذهب نيتشه أبعد من ذلك حين يعلن "إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية"، تلك هي القيم التي بشر بها زرادشت نيتشه فليس الوجود إلا "الحياة"، وليست الحياة إلا "الإرادة"، وليست هذه الإرادة إلا "إرادة القوة". بعد ذلك نسمع زرادشت وهو يقول واعظًا: "عيشوا حياة الأخطار وأقيموا مدنكم إلى جانب الأقوياء، وابعثوا بسفنكم إلى البحار المجهولة، ثم عيشوا حالة حرب".

بعد (زرادشت) عاش نيتشه مريضًا، فقيرًا، شاردًا، ومتشردًا على الطرقات والدروب. لا منزل ثابتًا له، ولا بيت دافئًا، ولا زوجة، ولا صديقًا ولا أنيسًا، لا شيء أبدًا.. لا أحد.. وحدة مقفرة، شاسعة مترامية الأطراف. وحدة يكاد يسمع فيها أزيز الصمت يلفّه من كل الجهات. والأكثر من

ذلك، هو أنه لم يكن يرى أمامه إلى أبعد من ثلاث خطوات، وها هو يصور حالته: "إن وجودي عبء ساحق لا يُحتمل، لا أستطيع أن أقرأ! ونادرًا ما أستطيع أن أكتب! ولا أستطيع أن أتواصل مع أي شخص على وجه الأرض! ولا أستطيع أن أسمع أي موسيقى! أن تكون وحيدًا، وتمشي". ورغم هذه الظروف نراه يكتب لأحد أصدقائه: "من بين مؤلفاتي كلها، يحتلّ هذا الكتاب مكانة خاصة. عندما قدمته للبشرية أعطيتها أكبر هدية يمكن أن تتلقاها. إن هذا الكتاب الذي يخترق صوته أعماق القرون المقبلة ليس فقط أعلى كتاب وجد حتى الآن، الكتاب الحقيقي الذي يليق بهواء القمم والأعالي. وإنما هو أعمق كتاب انبثق من كنوز الحقيقة الدفينة الأكثر سرية. كل الظواهر البشرية تنحطّ عن علوّه الشامخ أو تقع على مسافات لا نهائية تحته.. إنها بئر عميقة لا تُستنفد، وكل سطل ينزل إليها لا يمكن أن يخرج إلا وهو مليء بالذهب المصفّى والطيبة الإنسانية".

في عام 1889م، تحققت نبوءة نيتشه إذ أصيب بهزة عصبية أفقدته صوابه، فقد انهار في ميدان في تورينو، وحمل إلى مقر إقامته حيث فكر بإطلاق الرصاص على القيصر وخطط لشن حرب على الضعفاء، قبل أن ينقل في قطار إلى مصح في ألمانيا لتعتني به أمه العجوز وشقيقته حتى وفاته بعد أحد عشر عامًا حيث بلغ الخامسة والخمسين.

***

في العام 1925م، نشر الزعيم النازي أدولف هتلر القسم الأول من كتابه الشهير (كفاحي) الذي قدم له بكلمة قصيرة أكّد فيها أن عمله هذا جاء استكمالاً لأعمال فلاسفة آخرين كافحوا ضد الضعف والغباء والجبن.

في موسوعته الكبيرة (قيام وسقوط الرايخ الثالث)، يخبرنا المؤرخ الألماني وليم شايرر من أن خطب هتلر كانت تعجُّ بأفكار مسروقة من نيتشه، مثل

محاكاة حبه للشعوب القديمة لا سيما توقيره للإغريق، وقد وصل هتلر في تبجيله لمُثُل نيتشه العليا لمنتهاه، حتى إنه زعم بأن النازيين هم الصحوة العصرية للحضارة القديمة.

ويضيف شايرر أن هتلر كان كثيرًا ما يزور متحف نيتشه في مدينة فايمر، معلنًا عن تبجيله لهذا الفيلسوف عبر التقاط صور له وهو يحدق مسرورًا في التمثال النصفي لهذا الرجل العظيم. وفي عام 1934م، زار هتلر البيت الذي تعيش فيه شقيقة نيتشه الأرملة التي تبلغ من العمر 86 عامًا. التي قال عنها: "يا لها من عجوز رائعة! ما هذا الذكاء والحيوية؟! إنها حقًّا لشخصية مميزة. لقد أعطتني العصا التي كان يستخدمها أخوها في آخر أيامه كتذكارٍ".

(26)

جاء ليكتب أعظم رسالة في التربية

عندما وصل إلى باريس عام 1741م، وهو يحمل مخطوطة مسرحية موسيقية، وخمسة عشر فرنكًا، كان في الثلاثين من عمره. ترك خلفه امرأة تكبره بعشرين عامًا، حاولت أن تعوّضه عن حرمان الأمومة، كانت تلك السيدة تدعى مدام دوفارين، وقد خلّدها فيما بعد في كتابه الشهير (الاعترافات). فيصف لنا كيف كانت تناديه "يا صغيري"، حيث حلّت محل أمه التي توفيت بعد ولادته مباشرة. ويخبرنا أنه: "ولدت سقيمًا عليلاً، وقد كلفت أمي حياتها، فكانت ولادتي فاتحة مصائبي وشقائي". فشل مشروعه المسرحي بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون، فيكتب إلى اللجنة خطابًا غاضبًا: "ستعرفون فيما بعد قوة عظمتي". وبدلاً من أن يدخل مجتمع المشاهير، كما كان يحلم، دخل عالم البؤساء حيث تعرف على خادمة تغسل الثياب في أحد الفنادق الصغيرة فارتبط بها، وكانت فتاة بسيطة، أمية، لا تعرف القراءة والكتابة. في تلك الأيام تشاء الظروف أن يتعرف على شاب مشاغب مثله اسمه "دنيس ديدرو" في السابعة والعشرين من عمره، سيصبح فيما بعد واحدًا من أكبر فلاسفة العصر، شاب حالم، متقد العواطف، يصفه جان جاك روسو في اعترافاته وصفًا دقيقًا: "كانت له جبهة عريضة، وعينان في غاية التيقّظ، وملامح بارزة، ورأس له هيئة رأس خطيب من العصور القديمة، وطيبة قلب تلامس عن قرب السّذاجة والبساطة التي تَسمُ الأزمنة الماضية". فيما ديدرو يضع وصفًا لصديقه الشاب روسو

في موسوعته الشهيرة عن الفنون والعلوم: "لقّبوه بالفيلسوف لأنّه ولد من غير طموح، ولأن له روحًا نزيهة، ولأنّ الرّغبة لم تفسد أبدًا اللّطافة والسّلام فيه. بالإضافة إلى ذلك، رصين ووقور في هيئته، صارم في طبائعه وأخلاقه، متقشّف وبسيط في خطابه، كان معطف الفيلسوف القديم الشيء الوحيد تقريبًا الذي يُعْوزه، ذلك أنه كان فقيرًا وسعيدًا بفقره". ولأن طريق المسرح أغلق بوجهه، فقد قرر أن يتخذ من الموسيقى مهنة له، عازفًا على الكمان في إحدى الفرق الجوالة. وبسبب عشقه للموسيقى كتب بحثًا بعنوان (مقال في الموسيقى) قدّمه لأكاديمية الفنون فرفض أيضًا، مع توصية بأن يهتم بأمر آخر غير الموسيقى، حاول أن يجرّب حظه بتأليف الأوبرا، فوجد نفسه عرضة للسخرية.

في باريس يتذكر حياته التي عاشها يتيمًا، كان في الثامنة من عمره عندما تخلى أبوه عنه وتركه في بيت خاله الذي حاول أن يدخله ديرًا ليصبح كاهنًا، ويكتب فيما بعد أن أصعب شيء واجهه في حياته هو رؤية القس وشقيقته كل صباح، ولم تمضِ أيامه في الدير هادئة، فقد اتهم بسرقة مشط إحدى السيدات، ليطرد من الدير، ويعود إلى خاله الذي سيرسله، هذه المرة، للعمل عند أحد الكتَبة العموميين، فيطرده بعد يومين. فيذهب به خاله إلى صاحب ورشة شديد القسوة غليظ القلب، ما دفع روسو إلى تعلم الغش والكذب والسرقة، إلى درجة أنه بدأ يتمرد، ويخرج مع أصدقائه إلى خارج المدينة للبحث عن الحرية، ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل، فيشبعه صاحب الورشة ضربًا.

كان التشرد والحرمان واليتم طابع حياة روسو، ما عمق أحاسيسه، وجعله يشعر بالظلم: "لقد علمتني ذكرى التبدل الذي أصابني في حياتي الفرق بين تبعية الابن للأسرة وبين الخضوع الذليل للآخرين".

عندما قرر دينيس ديدرو وضع أول موسوعة في العالم عن العلوم والفنون، طلب من صديقه الشاب روسو أن يكتب مقالات في الموسيقى والاقتصاد السياسي، مقابل فرنكات تعينه على دفع أجرة الفندق البائس، إلا أن الحال لم يستمر طويلاً حيث سجن ديدرو بتهمة الإلحاد بعد نشر كتابه الشهير (رسالة إلى العميان)، الذي دافع فيه عن فلسفته الماديّة، مجاهرًا بإلحاده، حيث أراد أن يثبت من خلاله أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله، بل من خبرتنا الحسية، بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضًا مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة، وأن وجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيرًا من قوته.

وقد أثار الكتاب ضجة دفعت فولتير إلى أن يرسل له رسالة حماسية يقول فيها: "قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحي بشيء أكثر. وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير، بقدر ما أحتقر أولئك الأغبياء الذين ينقصون من قدر ما لا يفهمون، ولكني أعترف لك أني لست من رأي صاحبك الأعمى الذي ينكر وجود إله، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئًا، ولكن لو أني في مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبني إضافات كثيرة تكمل البصر. أود من كل قلبي أن أتحدث إليك، وليس يهمني أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية. وقبل مغادرتي لونفيل أرجو أن تشرفني بتناول عشاء فلسفي معي، في داري بصحبة بعض الحكماء".

ويرد عليه ديدرو قائلاً: "سيدي الأستاذ العزيز: إن اللحظة التي تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة، ليس يهمني مطلقًا أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به، لقد قال مونتاني إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها". وبسبب هذا الكتاب قامت الشّرطة باقتياد ديدرو إلى السّجن. فقرر روسو أن يزوره، ولأنه لم يكن يملك أجرة الباص،

قرر أن يذهب مشيًا، وفي الطريق يقف عند أحد بائعي الصحف فتقع عيناه على إعلان عن مسابقة طرحتها أكاديمية الفنون، وكان الموضوع عبارة عن جواب للسؤال التالي: "هل أسهم تقدم العلوم والفنون في إفساد الأخلاق أم في تهذيبها؟" يخبرنا روسو في اعترافاته: "في لحظة قراءة هذا السؤال، رأيت عالمًا آخر، وغدوت إنسانًا آخر"، وبدلاً من أن يواصل السير باتجاه السجن، غير اتجاهه ليعود إلى غرفته في الفندق يغلق عليه باب غرفته، ليبدأ كتابه بحثه الشهير (رسالة في العلوم والفنون) والذي أنجزه في ساعات، ثم يحمله ويذهب به إلى صديقه السجين يطلعه على مسودة الكتاب، فيجلسان ساعات في باحة السجن يقوم فيها ديدرو بتصحيح بعض النقاط التي اختلفوا حولها، ليرسله إلى الأكاديمية فتكون المفاجأة، حيث يفوز بالمركز الأول، فيظهر الكتاب بعد عام ليحصل من خلاله على الشهرة والمال ويودع عالم الفقر والعوز. وإذا به بعد سنوات من البحث عن وظيفة موسيقي في إحدى الصالات الرخيصة، يصبح محط أنظار جميع نوادي باريس الشهيرة، وليصل بعد ذلك بخمس سنوات ذروة الشهرة حين أصدر كتابه (خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر)، وفي هذين الكتابين لخّص فلسفته في المساواة والتي قال عنها: "ولد الإنسان طيبًا خيرًا، لكن المجتمع ومؤسساته هما اللذان أفسداه، لقد ولد للسعادة والفضيلة، ولكنه ترك نفسه تتغير، بسبب تطور المعارف وإغراءات الترف والقوة". إن كتابَي روسو يصفان التطور الذي دخل الشر فيه إلى العالم والصورة التي أفسدت فيها الطبيعة الإنسانية، ونراه يحاول في كتابه الثالث (مقال حول الاقتصاد) أن يوفق بين واجبات الإنسان وواجبات المواطن، ويعرض ربما للمرة الأولى نظرية عن الإدارة العامة، والقوانين الوضعية، وأصل الحكومة وقاعدة الصواب والخطأ في انبثاق الهيئات السياسية وسبل تماسكها وقوتها .

***

لعلَّ الكتاب الأكثر إثارة الذي نشره عام 1762م، هو كتابه الضخم والمعنون (إميل أو التربية)، الذي ترجمه إلى العربية عادل زعيتر، وقد صاغ روسو كتابه هذا على شكل رواية بطلها الطفل "إميل"، ومن خلال أحداث الرواية، يدير روسو رؤيته التربوية القائمة على فكرة صلاح الفرد وفساد المجتمع. فالفرد يولد بفطرة طيبة نقية وطاهرة، لكن بيد المجتمع إفسادها أو حمايتها، فالشر الذي يحدثه الإنسان ليس أصيلاً فيه. وقد قال في عبارة مشهورة استهلَّ بها كتابه: "كل شيء يخرج من يـد الخالق صالحًا، وما أن تلمسه يـد الإنسان، يصيبه الاضمحلال". والكتاب ينتمي إلى مرحلة أصبح فيها روسو مفكرًا يُبشر بفلسفة خلاصتها أن الإنسان يولد طيبًا في طبيعته، لكن ظروف المجتمع هي التي تمارس أثرها السيء عليه، ما يفقده بالتدريج طيبته. وبرغم أن كتّاب سيرة روسو يأخذون عليه في هذه المرحلة التناقض في السلوك الذي كان يعيش فيه، فنجده، مثلاً، يترك خادمة الفندق التي تزوجها بعد أن أنجبت له خمسة أولاد، يسلمهم إلى ملجأ اللقطاء غير عابئ بالمسؤولية، ثم يفاجئ الناس بكتاب مهم عن التربية، وكأنه يريد أن يكفّر عن ذنوبه وخطاياه، ويصرّ على أن يترك وصيته في الحكم والعلاقة بين الحاكم والشعب في كتابه الشهير (في العقد الاجتماعي) الذي اعتبره المؤرخون المحرك الأساسي للثورة الفرنسية سنة 1789م. ويقال إن الثوار حملوا كتابه هذا بعد أحد عشر عامًا من وفاته، وكانوا يلوحون به وهم يحاصرون قصر فرساي، قبل أن يقتحموه. ومن الطريف أن ماري أنطوانيت قبل أن تُعدم، طلبت من خادمتها أن تأتيها بصورة لهذا الأفاق لتبصق عليها.

***

يكتب مؤرخو حياة روسو أنه تخلى عن أبنائه لأنه أراد أن ينهج منهج أفلاطون الذي أكد في كتابه الجمهورية من أن الطفل مُلكٌ للدولة. إلا أن ستيفان تسفايج في كتابه الشهير عن روسو ينفي هذه التهمة عنه مؤكدًا أنه

لم يكن له أطفال على الإطلاق لعجزه عن الأبوة، وتسفايج يعتقد أن روسو لفّق على نفسه هذه التهمة، لأنه كان يعاني من مرض جنسي أثّر على رجولته، فمنعه من الإنجاب، وأنه كان يريد بهذه القصة أن يثبت للعالم أن باستطاعته أن ينجب أبناء بهذه الوفرة، ثم يلتمس للتصرف فيهم هذا التصرف عذرًا من أعذار الفلاسفة والحكماء.

يبدو روسو ثوريًا في كتابه (إميل)، فالإنسان الذي لا يكون شيئًا عند ولادته سيصبح ذات يوم كل شيء. إن هذا التكوين للعقل هو الذي يدرسه روسو، وهو يريد أن يؤكد أن لا معنى لتاريخ فساد الإنسانية إذا لم يكن تاريخ الإنسان نفسه، أن تطور الفرد يعكس إذًا تاريخ نسله، ومع هذا الفرق نجد أمام كل طفل إمكانية مستقلة، فليس الطفل بالنسبة لروسو أولاً إلا أحاسيس، ثم عقلاً حسيًا، ومن ثم يغدو "عقلاً عقلانيًا" وأخيرا ضميرًا أخلاقيًا. فكيف نساعد الطفل لئلا يبعثر حظه في تطوير ملكاته العقلية؟ ولهذا فهو يوصي بالقيام: "بدراسة صارمة ودقيقة لطبيعة الطفل قبل الإقدام على تربيته". وتقوم المسألة بعد ذلك على: "جعل الطفل يسلك درب الحقيقة ما أن يبدو قادرًا على التعرف عليها، ومن ثم يسلك درب الخير ما أن يصبح قادرًا على ذلك مدركًا المعنى الحقيقي للخير". ولهذا فالتربية فرحة، وطريق الطبيعة البكر الذي يجب أن يقود إلى ثقافة متناغمة مع جوهر الطفل الذي يريد أن يكون سعيدًا.

كان روسو يعلق أهمية كبيرة على كتابه (إميل)، لأنه يتضمن حجر الزاوية في نظريته. فبعد أن كشف في مقالاته ورسائله عن رذائل المجتمع الحديث، كان يتعين عليه أن يُحدد في مؤلفاته القادمة نواحي الإصلاح التي يجب إدخالها على المجتمع، وقد كان يعرف جيدًا أن أحدًا لا يستطيع أن يشرع في إصلاح الدنيا من دون أن يسعى إلى إصلاح التربية. وقد حرص روسو أن يوضح لقرائه كيف أن الأفكار الواردة في (إميل) مكملة لمبادئه ومتماشية مع

فلسفته.

لم يلقَ الكتاب عند صدوره الاهتمام الذي لاقته كتب روسو الأخرى، لكن أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي تقدّم بشكوى يتهم المؤلف فيها بالإلحاد وإفساد عقول الشباب، فأصدر المجلس عام 1762م قرارًا بحرق الكتاب والقبض على مؤلفه الذي كان في ضيافة إحدى الأميرات، التي سارعت إلى إيقاظ ضيفها في منتصف الليل، تتوسل إليه أن يرحل قبل أن تُدهم الشرطة القصر، فخرج متخفيًا منتصف الليل، ليبدأ رحلة المنفى إلى سويسرا التي دخلها بعد غيبة عشرين عامًا، خرج منها شريدًا مطاردًا وعاد إليها مشهورًا وغنيًا لكنه مطارد أيضًا. ومن هناك بدأ يرد على متهميه من أساقفة باريس وليبدأ بنشر كتابه الشهير (في العقد الاجتماعي) الذي أظهر فيه أن مصير الإنسانية يرتبط بطبيعة المؤسسات السياسية، وأن بضعة شعوب فقط استطاعت أن تعيش في سلام وتنجو من التدهور والتدمير، بسبب تمتعها بمؤسسات تُقيم الحرية وتقود إلى الفضيلة وتنشر الخير، ويعرج على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية، ويناصب الكنيسة العداء قائلاً: "إن الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الأديان، وأما الديانة الحقة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الأخير الأخلاق ويخدم الوطن".

***

لم تطل إقامته في جنيف، فقد ثار رجال الدين ضده وحرضوا الفلاحين ضده، فهجموا على بيته ليرموه بالحجارة، فهرب متخفيًا إلى جزيرة سان بيير، ولم يسمح له بالإقامة سوى شهرين بالجزيرة ليغادرها حيث صدر مرسوم بطرده، توجه بعدها إلى ستراسبورغ، ليمكث أيامًا ضاق فيها من فضول المتطفلين الذين كانوا يشيرون إلى هذا المشرد المشهور، ليغادر عام 1766م إلى إنكلترا ضيفًا على الفيلسوف دافيد هيوم، حيث أعجبه المقام

هناك، فبدأ بكتابة اعترافاته الشهيرة (اعترافات جان جاك روسو)، صوّر فيها مآسي حياته الكثيرة وأفراحها القليلة، ويكشف بجرأة عن نفسه دون أن يخفي عيبًا، أو ضعفًا، إلا أن الحنين إلى باريس يجعله يعود إليها متخفيًا باسم مستعار، ليعيش منعزلاً، يقرأ اعترافاته على مجموعة صغيرة من الأصدقاء ويهتم بدراسة النباتات، ثم بدأ يكتب مقالاً وزعه فيما بعد على من كان يصادفهم في طريقه بعنوان (إلى كل فرنسي لا يزال يحب الحق والعدالة)، وفي لحظة يأس كتب مؤلفه الأخير (أحلام يقظة جوال منفرد)، وفيه يجتر ذكريات أحلامه التي لم تتحقق ليترك بعدها مسكنه ويذهب ليعيش في الأرياف بعد أن نصحه الأطباء بأن صحته تتدهور، لكنه لم يعش طويلاً.

ففي الثاني من تموز عام 1778م، خرج صباحًا كعادته لجمع النباتات، لكنه شعر بضيق في صدره فسقط على الأرض، فأصيب بجرح في رأسه وليموت بعدها بساعات. وكما كانت ولادته مثيرة وحياته غريبة كانت وفاته أيضًا، حيث انتشرت شائعة تقول إنه مات منتحرًا، وعند سماع صديقه ديدرو بخبر وفاته ذهب إلى المقبرة التي دفن فيها ووضع شفاه على القبر، وكان ديدرو قد خاض معركة مع روسو من خلال كتابه الأخير (تعال في حكم كلود ونيرون)، فجاء بصفحات الكتاب ومزقها أمام القبر ونثرها وهو يصرخ: "إلى روح معلمي جان جاك روسو الخالد، فليسدل النسيان ستائره".

دفن في جزيرة بارمنفيل في مقبرة للغرباء، لكن بعد مرور خمس سنوات على الثورة الفرنسية التي بشر بها ووضع مبادئها، قررت الجمعية التشريعية الفرنسية نقل رفاته إلى مقبرة العظماء في احتفال كبير، ليدفن فيها إلى جانب عدوه اللدود فولتير.

(27)

البحث عن الرواية في أرض الله الواسعة

كان في الخامسة عشرة من عمره حين قرر أن يكسب بعض النقود، وقد اكتشف في المدرسة أن عددًا من الفتيان الأكبر عمرًا منه يعملون مساءً في معصرة لزيت بذور القطن. يبدأ العمل في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وينتهي في الساعة السابعة والنصف صباحًا، أما الأجرة، فكانت دولارًا واحدًا في كل ليلة، مبلغ مغرٍ بالنسبة لصبي يعاني الفقر. لأسابيع، ظل والداه يعتقدان أن ابنهما يغط في نومه، لكنه في كل ليلة وقبيل الحادية عشرة، يرتدي ملابسه مسرعًا، ليسير مسافة كيلومتر إلى المعصرة، يبدأ بجرف بذور القطن إلى الجهاز الناقل الميكانيكي حتى الصباح. بعد ذلك يحمل البذور إلى بناء آخر حيث تعصر بواسطة مكبس قوي حتى يستخلص منها الزيت. في الصباح الباكر، يفضح ضوء الفجر وجوه العمال المتعبة، ولكي يصل بيته دون أن يشعر والداه، فقد سمح له رئيس العمال بأن يغادر المعصرة قبل نصف ساعة من انتهاء عمله، بحيث يتمكن من تناول طعام الفطور مع والديه في الوقت المحدد. وفي الساعة الثامنة وعشرين دقيقة يغادر البيت إلى المدرسة. استطاع تحمل هذا الوضع شهرين كاملين، لكنه ذات صباح يشعر بالتعب الشديد وهو يجلس على مائدة الإفطار، فيقع أرضًا، ليكتشف أمره. كان والده سعيدًا أن ابنه أخذ يعتمد على نفسه، إلا أن والدته التي كانت تطمح أن يصبح ابنها قاضيًا مشهورًا، طلبت منه أن يتوقف فورًا عن هذا العمل، فاستجاب لها بعد أن استطاع ادخار مبلغ تجاوز الثلاثين دولارًا.

وُلد أرسكين كالدويل عام 1903م، لقسٍّ يتنقل من كنيسة لأخرى، ولأُم تعشق الأدب، فكانت تقضي وقتها بقراءة الروايات الفرنسية والإنكليزية، وابتلي بالربو طفلاً. لم يحب الأدب في صباه، ورأى في الأعمال الحرة مهربًا من حياته الاجتماعية الحافلة بالفقر. جذبته المهن البسيطة والتجوال في أنحاء أميركا، وقال في مذكراته الساحرة (اسمها تجربة): "ما زلت حتى الآن أستغرب ما الذي حدث قبل ثلاثين عامًا وقادني بشكل حاسم، ودفعني إلى طريق الكتابة، الذي لم أستطع أداءها بخفة ودونما جهد، فقد كانت أمي تجادلني لكي أعد نفسي لدراسة القانون، وكنت آنذاك لا أمتلك الحافز ولا الرغبة في أن أكون كاتبًا".

رفضت الصحف قصصه القصيرة الأولى، وسأله رئيس تحرير إحدى الصحف الشعبية: لماذا تصر على وصف البؤس؟ بعد نشره روايته الأولى (طريق التبغ)، قال وليم فوكنر وهو يقرأها: "إنها عمل أدبي لامع إلى درجة لا يمكن معها مقارنته بغيرها"، والتهمها إرنست همنغواي بشغف فضولي حتى أنه قال لكاتب سيرته هوتشنر: "حفزني كالدويل لأن أصبح كاتبًا، عشقت حياته الجوّالة وحاولت أن أسير على خطاه".

كان فيتزجيرالد صاحب (غاتسبي العظيم) قد رفض مخطوطة (طريق التبغ)، لكنه قال لشيروود أندرسون بعد نجاح الكتاب إنه لم يقرأ المخطوطة، فقد كان يعتقد أنها مثل كثير من المخطوطات التي تعرض عليه والتي تصيب الإنسان بالملل. أحب القراء روايته الثانية (أرض الله الصغيرة)، ووضعه شتاينبك بين أفضل خمسة كتّاب في العالم، وحاول أن يقلده في (شارع السردين المعلب)، ظل مرشحًا دائمًا لجائزة نوبل حتى وفاته عام1987م، باع كتبًا أكثر من.أي كاتب أميركي آخر على الإطلاق في تاريخ أمريكا.

***

قبل بضعة أيام من انتهاء دراسته الثانوية، حصل على عمل في صحيفة أسبوعية، أما العمل فهو إدارة يد آلة الطباعة. بعدها كُلف بمهمة إضافية تتمثل في تنضيد الأحرف باليد، وبعد أسبوع قيل له إن بإمكانه أيضًا جمع المقالات والملاحظات والتعليقات الاجتماعية لصفحة المجتمع، وكتابة الأخبار القصيرة حول الأحداث المثيرة للاهتمام. استخدم النقود التي كسبها من معصرة الزيت لشراء آلة كاتبة مستعملة، وبدأ يعمل محررًا رياضيًا يقوم بتسجيل مباريات "البيسبول"، كما عمل بائعًا لصحيفة (التلغراف)، قال له مدير التحرير ذات يوم: "أنت لا تريد أن تعيش باقي أيام حياتك بائعًا للصحف، أليس كذلك يا أرسكين؟"

فأجاب فورًا: "أُفضل أن أكتب في الصحف".

نظر إليه مدير التحرير ثم قال له بكل جدّية: "اكتب عما تراه أمامك. لا تصدق ما يقوله الناس. انظر بعينيك ولا تصدق ما تسمع بأذنيك. هنالك دومًا شيء يمكن أن تكتب عنه، وإذا استطعت أن تحوّل مشاهداتك إلى كلمات مثيرة، عندها سأنشرها فورًا."

بدأ التجوال بالسيارة طيلة النهار إلى المناطق الريفية، كان مهتمًا فقط برؤية كيف يعيش الناس، أصبحت الكتابة شاغلاً أساسيًا لديه، جرب في البداية الكتابة الساخرة، وكان أجره دولارًا واحدًا عن كل موضوع ينشر له، حاول أن يزيد من دخله فعمل موزعًا لزجاجات الحليب، وقضى عدة أشهر يعمل موظفًا في كشك لبيع العصائر، إضافة إلى عمله كحارس في مخزن للأواني الخزفية والزجاجية. وفي عام 1925م، شعر أنه لم يعد بإمكانه الانتظار مدة أطول قبل البدء جديًا بما سيفعله. لم يكن يطمح بأن تكون الصحافة مهنته الدائمة، لكن الصحافة تعني الكتابة، وهذا ما حاول أن يتعلمه. وبعد محاولات في نشر القصص الساخرة، تم تعيينه مراسلاً تحت التمرين وبراتب

ثابت بلغ عشرين دولارًا في الأسبوع، لكنه لم يكتف بوظيفة المراسل، حيث كتب إلى عدد من الصحف حول رغبته في كتابة مراجعات نقدية لبعض الكتب، عام 1926م يتلقى رسالة من صحيفة (هدسون بوست)، تخبره فيها أنها سترسل إليه العديد من الكتب ليكتب مراجعات عنها.

***

الزمان: 1929

المكان: ولاية فرجينيا

نزل من الباص وقد لمح لافتة مثيرة: "فندق مارك توين"، أحسّ بالسعادة فهذه هي المرة الأولى التي سيسكن في مكان مع واحد من أشهر كتّاب أميركا، الذي كانت أمه وما تزال تعشق كتاباته، كان الفندق صغيرًا، قال مع نفسه وهو ينظر إلى الواجهة: "بالتأكيد أن أجرته ستكون مناسبة"، كان يحمل حقيبة وآلة كاتبة قديمة اشتراها من سوق المواد المستعملة، دخل إلى الفندق وما أن لمحه موظف الاستقبال حتى سأله: "هل أنت كاتب؟" فأومأ برأسه بنعم، فاعتذر الموظف قائلاً: "لا يوجد سرير فارغ".

ولأن الجو في الخارج كان قد اقترب من العشرين تحت الصفر، فقد ترجّاه أن يستأجر غرفة ولو لهذه الليلة فقط.

"لم نكسب من وراء الكتّاب غير المتاعب، يقيمون ثم يتسللون ودائمًا ما يجدون وسيلة لعدم الدفع"، قالها موظف الاستقبال وهو يدير ظهره.

خرج كالدويل ليبحث عن مكان آخر، وعلى كثرة ما كتب من عروض للكتب وتقارير ساخرة لم يكن قد نشر غير قصة قصيرة واحدة لم تلاق الاستحسان، لكن كانت لديه رغبة شديدة لأن ينضم إلى صف الكبار: "رغبة طاغية تماثل، بالنسبة لبعض الناس، الحاجة إلى الطعام والشراب. أما

حدة وشدة وكثافة هذه الحالة الذهنية فهي التي تجبر المرء على المضي قدمًا إلى أقصى مدى يتهيأ لبلوغه في سبيل تحقيق الهدف الواعي، أو غير الواعي، من حياته. إن من يملك الإرادة العنيدة للكتابة سوف يجد فرصته على الدوام؛ وأولئك الذين يميلون إلى عدم البحث عن الفرصة المناسبة لديهم في العادة اهتمامات أخرى، بغض النظر عما إذا عرفوا هذه الحقيقة أم لا، أقرب إليهم وأحب إلى نفوسهم".

أخذ آلته الكاتبة، وفي زاوية لأحد الشوارع الرئيسية عثر على فندق آخر، استقبلته امرأة في الخامسة والثلاثين، أخبرها بأنه يبحث عن غرفة رخيصة الأجر، وأنه يستطيع أن يدفع أجرة أسبوع مقدمًا، جلس ليكتب، لم يخرج من الغرفة إلا لشراء وجبة طعام واحدة بشرط ألا يتجاوز ثمنها العشرين سنتًا، وبحماسة مضاعفة بعث بعشرات من قصصه إلى معظم صحف المقاطعة.

وخلال شهور نُشرت له ست قصص فقط لم يتسلم عليها أجرًا، فقرر أن يحمل حقيبته ويسافر إلى نيويورك، وهناك عثر على مجلة تهتم بنشر النتاجات الأدبية، فأرسل لها العديد من القصص التي كانت تعود إليه مع عبارة "مرفوضة"، لم يشعر باليأس فأرسل لهم قصصًا أخرى. وذات يوم استدعاه أحد عمال الفندق، فهناك مكالمة هاتفيه له، كان على الجانب الآخر مدير تحرير المجلة الأدبية ليبلغه:

- لقد قررنا أن ننشر قصتين من نتاجك.

لم يصدق ما سمعه فانتابته حالة من الصمت والشرود.

كان المتحدث على الخط قد قرر أن يواصل الحديث:

-ما رأيك في اثنين وخمسين أجرًا للقصتين؟

تمالك نفسه ليجيب: لكنني تلقيت أجرًا أكثر قليلاً من هذا.

"لتكن ثلاثة وخمسين"، قال مدير التحرير.

-حسنًا. ولو أنني كنت أظن أنني سأتلقى أكثر قليلاً من ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا.

"ماذا تقول؟ إنني أقصد ثلاثمئة وخمسين دولارًا"، قالها مدير التحرير.

***

كان هدفه الجديد أن يجمع قصصه القصيرة في كتاب، عمل في حقل للبطاطس في النهار وتفرغ في الليل لكتابة القصص، قصة كل أسبوع، يبعث بها إلى المجلات، وكان العديد منها ينشر، واكتشف قانونًا لتطوير عمله: كل قصة ترفضها ست مطبوعات يسقطها من حسابه. وذات يوم جمع كل ما كتبه من قصص لم تنشر وأحرقها دفعة واحدة، ليقرر أن يرحل من جديد، هذه المرة إلى كارولينا، وكانت عدته للسفر آلة كاتبة، وماكنة للف السجائر وحقيبة ملابس صغيرة. وبعد ثلاثة أيام قضاها يتنقل بالباصات، كان يلتقي بأبطال قصته الجديدة التي قرر أن يجعل منها رواية، حيث رأى بطون الأطفال المنفوخة من الجوع، والناس الذين أقعدهم المرض، والقحط الذي كان يهيمن على مدن الجنوب الفقيرة. هكذا قرر أن تكون روايته الأولى عن فقراء الفلاحين الذي عاش وسطهم: "لقد مشيت في ذلك الدرب في صميم فصل الشتاء، ورأيت الناس الجائعين الملتفّين بالأسمال البالية يذهبون إلى لا مكان ويأتون من لا مكان، ملتمسين الطعام والدفء، راغبين في أن يعرفوا ما إذا كانت أشياء مثل الطعام والدفء، لا تزال موجودة في بقعة ما من بقاع العالم. إنهم لم يلتمسوا شيئًا أكثر من الغذاء الكافي لأن يمسك عليهم الحياة حتى مطلع الربيع بحيث يكون في مقدورهم أن يزرعوا القطن للموسم الجديد. كان لهم من الإيمان بالطبيعة، بالأرض، وبالنبات الذي في الأرض، ما جعلهم لا يفهمون كيف يمكن للأرض أن تخونهم أو تخيّب رجاءهم،

ولكنها خانتهم وخيبت رجاءهم".

فالناس في (طريق التبغ) فقراء وبائسون، وخطاة ولصوص، ولا يأبه واحدهم بمصائب الآخر، لكن السؤال الذي يحاول أن يطرحه كالدويل: يا ترى هؤلاء الناس ولدوا هكذا؟ أم هل اختاروا بإرادتهم أن يكونوا أشرارًا؟ أبدًا، يجيب كالدويل في مقدمة طريق التبغ: "إن مجتمع البؤس الخارج عن إرادتهم هو الذي صنعهم". وبالتالي فإن الكاتب يقدم لنا ذلك العالم الغريب في الرواية المتحلق من حول أسرة "جيتّر ليستر"، المزارع البائس الممتلئة حياته بالمصائب وبالأطفال الذين أنجبت له زوجته؛ سبعة عشر ولدًا في بيتهم الضيق الفقير الواقع. لقد مات باكرًا خمسة من أولئك الأولاد، وهرب معظم الباقين إلى المدينة، وهناك في الحلقة المحيطة بأسرة ليستر صهر العائلة "لوف بنزي" الذي لا يتوقف عن محاولة سرقته، وهناك المرأة المتدينة التي تقترب من الأربعين، وترملت غير مرة بعدما كانت مومسًا، وها هي الآن تغري ابن الأسرة "ديود" (16 سنة) بالزواج منها مقابل أن تشتري له سيارة يقودها فيتجولان معًا للدعوة إلى الدين. إذًا، من حول هذا العالم بما فيه من احتيال وبؤس وأكاذيب وقبح؟ هذا ما يحاول أن يجد له إجابات من خلال الرواية.

تنشر الرواية عام 1932م، وينتظر شهورًا قبل أن يبلغه الناشر أن الخمسة آلاف الأولى من الرواية قد نفدت وأنه ينوي إصدار طبعة جديدة، ويتلقى أول أجر ضخم، سبعمئة دولار دفعة واحدة، ولم يمض عام حتى قرر أحد مسارح برودواي أن يحول (طريق التبغ) إلى مسرحية استمر عرضها لسبع سنوات بدون انقطاع، وها هو الحظ يحالفه، فتمنح الرواية جائزة أدبية قدرها ألف دولار يحقق من خلالها أحد أبرز أحلامه بالحصول على بيت للسكن.

لقد تخلص أخيرًا من عبء السعي وراء النشر وأصبح له وكيل أعمال

يقوم بمهمة البحث عن ناشر، واخترقت قصصه القصيرة أسوار الصحف الواسعة الانتشار، واشترى آلة كتابة جديدة، وبدأ بالتخطيط لكتابة رواية جديدة، ولكي يكتب يجب أن يتجول في أنحاء البلاد، فيذهب في رحلة إلى الجنوب، هناك يستأجر غرفة صغيرة ليخطط لروايته الشهيرة (أرض الله الصغيرة). وكان في ذهنه أن يعقبها بكتاب انطباعات عن رحلاته، كان يقطع ثلاثين ميلاً في اليوم، كانت قصصه القصيرة تشق طريقها إلى الصحف الكبرى، وهو الآن في الرابعة والثلاثين، أصبح مشهورًا، له سكرتيرة تعنى ببريده، وأعماله تترجم وتطبع بالملايين، وتتحول إلى أفلام سينمائية تحصد له الشهرة والمال.

كيف أصبحتَ روائيًا؟

كثيرًا ما يُواجه الروائيون بهذا السؤال، وقد حاولوا الإجابة عنه في كتاباتهم ولكن الإجابة تكاد تكون هي نفسها عند معظم الروائيين، إلا أن كالدويل يقول في (اسمها تجربة): "لعل اليأس وحده هو الذي دفعني إلى الكتابة مثلما يتشبث شخص بزواج فاشل خوفًا من الوحدة".

في الصفحات الأخيرة من مذكراته يخبرنا كالدويل أن كل كاتب يتلقى خطابات وديّة وعدائية بنسب وكميات متفاوتة، ثمّ يذكر لنا بعض الأسئلة وإجاباته عنها ومنها:

- هل ذهبت إلى المدرسة لتتعلم ما تعلمته عن كتابة القصص والكتب؟

● لا. تعلمت بالخبرة. بالتجربة والخطأ، وبالعمل بالكتابة حتى اقتنعت بالنتيجة.

- ما هدفك من كتابة روايات مثل: طريق التبغ، وأرض الله الصغيرة

وبيت في المرتفعات؟ ما الفائدة التي تقدمها هذه الكتب؟

● الهدف من كل هذه الكتب هو أن أقدم مرآة يستطيع الناس أن ينظروا إليها. ومهما كان الخير أو الشر في كتبي فإن ذلك يعتمد على ردود فعل القارئ تجاه الصور التي يراها في المرآة.

- كتبت كثيرًا عن الفقراء، لماذا لا تكتب عن الأشياء السعيدة في الحياة؟

● أولئك الذين يستمتعون بمباهج الحياة أقل بكثير من أولئك الذي يُقاسون مآسيها. حين يتغيّر الوضع الاجتماعي سأشعر آنذاك أنه لم يعد هناك أي هدف للكتابة عن آثار الفقر على الروح الإنسانية.

(28)

كاتب.. لا يعدك بقراءة مريحة قبل النوم

في السادس من حزيران عام 1924م، نشرت جريدة محدودة الانتشار اسمها (نارودني ليستي) إعلانًا مدفوع الثمن في صفحة الوفيات جاء فيه: "توفي أمس في مشفى كيرلينغ، فرانز كافكا، كاتب ألماني عاش في براغ". قلة هم من يعرفونه هنا، لأنه كان منعزلاً، رجلاً حكيمًا يهاب الحياة، عانى لسنوات من مرض رئوي، ومع أنه كان يتلقى العلاج، غير أنه كان يغذي مرضه متعمدًا، ويشجعه نفسيًا. كتب ذات مرة في إحدى رسائله: "عندما يعجز كل من القلب والروح عن تحمل العبء، تأخذ الرئتان النصف، وهكذا يصبح الحمل موزعًا بالتساوي تقريبًا". كانت لديه حساسية تقارب الإعجاز ونقاء أخلاقي صارم إلى أبعد حد، إلا أنه جعل مرضه يتحمل عبءَ خوفه من الحياة، كان يرى عالمًا مملوءًا بشياطين لامرئية تحارب الأشخاص الضعفاء وتدمرهم. كان صافي الذهن، أحكم من أن يعيش وأضعف من أن يقاوم، ألّف أهم كتب الأدب الألماني المعاصر، وهي كتب تجسد من دون تحيز كفاح أجيال عصرنا، لقد كتب السيد كافكا (الوقاد) الذي يمثل الفصل الأول من رواية لم تنشر بعد والحِكم التي تعالج صراع الأجيال، و (المسخ) الذي هو أقوى كتاب في الأدب الألماني المعاصر. أما روايته الأخيرة (المحاكمة) فهي مكتملة منذ سنوات في مخطوطة وجاهزة للنشر، إنها أحد تلك الكتب التي تملك دفعًا ساحقًا على القارئ لدرجة أن أي تعليق عليها يظل سطحيًا. تتمحور كتبه كلها حول إحساس غير مبرر، وحول الخوف

الغامض من سوء الفهم. كان متوجسًا إلى حد كبير إنسانا وفنانًا يظل متيقظًا حذرًا في الوقت الذي يحُس فيه الآخرون الصُم بالاطمئنان.

كان صاحب النعي اسمه ماكس برود، وقد أوصاه صديقه فرانز كافكا وهو على فراش الموت أن يحرق أعماله منعًا من وصولها إلى القراء في حال وفاته! إلا أن ماكس برود لم يفعل ذلك وقال لزوجته: "إن تحت يدي كنز ثمين لا يمكن أن أجعله طعامًا للنار". بعد ثمانية عشر عامًا يكتب ألبير كامو: "إن اللحظة التي قرر فيها ماكس برود عدم إتلاف أعمال كافكا، ساعدتنا في تقديم الدليل الأدبي على فظائع القرن العشرين".

فيما يكتب أندريه جيد فيما بعد عن الأثر الذي تركته أعمال كافكا التي كانت لديه مبجّلة. عندما أعطى توماس مان لألبرت آينشتاين رواية (المحاكمة) ليقرأها، أعادها آينشتاين إليه بعد أيام معترفًا بفشله في إتمامها: "العقل البشري عاجز عن حل لغز هذه الرواية".

ورغم أن صاحب (المحاكمة) و (القصر) و (المسخ) عاش حياته في تعاسة بالغة، على حد تعبير سارتر، نجده يكتب في رسالة إلى صديقته ميلينا أن والده الذي كان يعمل بتجارة الخردوات، كان جزءًا من هذه التعاسات، وهو سبب كل معضلة تصيبه، ويخبرها أنه عندما كان يعجز عن مواجهته، فإنه يلجأ إلى الكتابة، وفي رسالته الشهيرة (إلى أبي) يكتب: "أنت خلف كل كتاباتي، لقد قلت فيها ما لا أستطيع أن أقوله وأنا على صدرك".

كان أكبر أطفال العائلة وقد مات أَخَواه وهما طفلان، فعاش طفولة مليئة بالوحدة، تولت عدد من النساء تربيته، لأن أمه كانت تعاني من مرض السل، كانت علاقته مع أبيه معقدة، وفي مقاطع من رسالة (إلى أبي) يكتب: "كنت طفلاً عصبيًا، غير أنني كنت - بالمؤكد - متجهمًا، كل ما هنالك أنك عاملت طفلاً بالشكل الذي خلقت أنت به، بالعنف والضجيج والطبع الحاد".

كانت هواية هذا الطفل هي القراءة، وكان يحفظ الحكايات الخرافية وقصص شارلوك هولمز. وفي وقت لاحق أغرم بهرمان هيسه وديكنز ودستويفسكي وكيركغارد، وفي غرفته الصغيرة كان يعكف بصورة سرية غالبًا على قراءة بعض الكتب باحثًا دومًا عن معانٍ جديدة. ومع مرور الزمن أنشأ لنفسه مكتبة صغيرة، وفي أحد الأيام عندما كان يتمشى في أحد شوارع براغ بصحبة أحد التلاميذ، توقف فجأة أمام إحدى المكتبات، وأخذ يقرأ العناوين بصوت عال، فضحك زميله وهو يقول له: "أنت من محبي الكتب التي تحرك القراءة رؤوسهم"، فقطب كافكا حاجبيه وقال: "هذا خطأ، إن الكتاب لا يستطيع أن يعوض العالم، هذا غير ممكن، لكل شيء في الحياة معناه ووظيفته التي لا يمكن أن تشغل بالكامل من قبل شيء آخر". ويذكر رونالد جراي في السيرة التي كتبها عن كافكا أنه: "كان يضع على طاولة مكتبه صورة لدستويفسكي"، ونراه يكتب إلى صديقه أوسكار بولاك: "على المرء ألا يقرأ إلا الكتب التي تعِظه وتوخزه، إذا كان الكتاب الذي نقرأه لا يوقظنا بضربة على الرأس، فلماذا نقرأه إذًا؟ والكتب التي تجعلنا سعداء هي نوع من الخديعة، إننا نحتاج إلى الكتب التي تنزل علينا كالبليّة التي تؤلمنا، كموت من نحبه أكثر مما نحب، نحتاج إلى الكتب التي تجعلنا نشعر وكأننا طردنا إلى الغابات بعيدًا عن الناس، على الكتاب أن يكون مثل الفأس التي تهشم البحر المتجمد في داخلنا".

في سن الثامنة عشرة دخل الجامعة ليدرس الكيمياء، بعدها وجه اهتمامه لدراسة الأدب الألماني، لكن أباه أصر على أن يدرس القانون، فنراه يستسلم ويعلن أن هذه أولى هزائمه في الحياة: "كنت أعرف أنه لا توجد حرية حقيقية في اختيار المهنة، إن المحاولات الاعتراضية الواهنة إلى جانب غروري، وزهوي والتفاؤل الذي لا معنى له مثل الأربعة عشر يومًا التي درست فيها الكيمياء ونصف العام الذي درست خلاله الألمانية، كل هذه المسائل لم تفد

إلا في تدعيم قناعاتي الرئيسية".

في الجامعة يلتقي بشاب سيصبح أقرب الناس إليه والوريث الشرعي له، ماكس برود. كان يصغره بعام، وقد شرعا سوية بقراءة فلوبير ودراسة أعمال غوته، وهما الكاتبان اللذان ظل كافكا يفضلهما طوال حياته.

في السنة الثانية من الجامعة قال لبرود إنه كتب قصة قصيرة، وشجعه برود أن يشارك بها في مسابقة الجامعة، لكنها لم تحظَ بالاهتمام، لكنه بعد عامين قرأ على برود الفصل الأول من روايته (استعداد لحفلة عرس ريفية) والتي نشرها فيما بعد ضمن مجموعة قصصية عام 1919م.

في العام 1906م، يحصل على الدكتوراه في التشريع من الجامعة الألمانية، ويبدأ العمل بوظيفة محامٍ تحت التمرين، إلا أنه لم يكن ينوي أن يتخذ من المحاماة مهنة، بل كان يحاول من خلالها التعرف على عالم المحاكم الغريب، لذا لم يستمر طويلاً بوظيفته هذه، فيقرر أن يعمل مع والده في تجارة الخزف: "أي كربٍ يكلفني هذا العمل، لماذا لم أحتج عندما جعلوني أعدهم بأن أعمل بعد الظهر؟ بالطبع ما من أحد أرغمني على هذا بالقوة، لكن أبي فعل هذا بالتقريع وفعله " ك " بالصمت". وقد أثر هذا العمل على نفسيته ما جعله يفكر بالانتحار، فنراه يكتب لوالدته رسالة يخبرها بالأمر، فتسارع إلى الطلب من أبيه بأن يتركه وشأنه.

***

قال لماكس برود إنه كتب بالأمس رواية صغيرة الحجم، ظل يكتب فيها من دون انقطاع في ليلة واحدة، كان فيها مستسلمًا لخيال غير واقعي: "كتبت (المسخ) من دون توقف منذ العاشرة ليلاً حتى السادسة صباحًا، ولم أكن قادرًا على سحب ساقيَّ المتصلبتين من تحت الطاولة، كان الإرهاق الفظيع والبهجة اللذان تابعت من خلالهما تطور القصة يشبهان التقدم على

الماء، كنت أحمل في أثناء تلك الليلة ثقلي الذاتي فوق ظهري مرات عديدة".
- كافكا اليوميات -

أرسل نسخة من (المسخ) إلى مجلة أدبية، وكان الجواب أنهم على استعداد لنشرها بشرط أن يختصرها. حين كتب كافكا هذه الرواية القصيرة، كان في السادسة والعشرين من العمر، وكان يحس أن نهايته تقترب، بسبب إصابته المبكرة بالداء الذي قضى عليه شابًا. كان رد فعله على طلب المجلة حاسمًا، يمكنه تحمل فكرة أن لا تنشر الرواية، لكن فكرة أن تنشر وتبتر كانت فكرة لا تحتمل، فيكتب رسالة إلى روبرت موزيل المسؤول عن التحرير: "لئن راودتك هذه الفكرة الغريبة في أن تطلب مني القيام فيها بتقطيعات للنص، فلأن تعاقب الصفحات التي تؤلف (المسخ) يبدو لي الأمر مملاً، لا أستطيع حقًا عمل أي شيء لكن ما يدهشني بوجه خاص هو أنك تجهد في إقناعي، متوهمًا أني أقل ذكاءً منك". ويضيف كافكا في رسالته الطويلة: "الرواية بالنسبة لي ليست نوعًا أدبيًا محددًا، ولا فرعًا من فروع شجرة الأدب، لن نفهم في الرواية إذا أنكرنا ملهمنا الخاص وهو الإنسان الذي يبدو اليوم بلا ملامح".

بعد خمس سنوات يتذكر موزيل رسالة كافكا وحديثه عن الإنسان بلا ملامح، وذات مساء يجلس موزيل إلى مكتبه ليكتب رساله إلى كافكا خاطبه فيها بالأب العزيز رغم أنه يكبره بثلاثة أعوام، وفي لفتة غير مسبوقة يقوم موزيل بإعادة نشر (المسخ) مع الرسالة التي يقول فيها: "لقد سألتني قبل سنوات أنك لم ترد مني أن أبتر عملك الروائي، وكالعادة لم أستطع الرد عليك، من ناحية بسبب الاحترام الذي أكنّه لك، ومن ناحية أخرى، لأنني لكي أجد تعليلاً لهذا الجواب بدأت أبحث عن ملامح بطل قصتك، فأكتشف، ويا للرعب، أننا جميعًا تحولنا إلى مسوخ بلا ملامح إنسانية". وبعد عام يبدأ موزيل بنشر الفصول الأولى من روايته المثيرة (إنسان بلا ملامح)

ساعيًا لتحقيق هدف كافكا؛ إيجاد نوع من المصالحة مع الإنسان الذي لم تحدده سمات، لأنه الإنسان نفسه، لأنه الحياة نفسها، والإنسان والحياة لا ضفاف لهما.

تكتب سيمون دي بوفوار في مفكرتها أنها قرأت (المسخ) عندما كانت في سن الثالثة عشرة، فوجدت فيها حكايا دينية وأخلاقية، ورأى بريشت فيها "عمل الكاتب البلشفي الحقيقي"، وسمّاها جورج لوكاش بـ "الإنتاج النموذجي للبرجوازي المنحط"، وبدت لفلاديمير نابوكوف كمجاز للخوف أثناء المراهقة.

في (المسخ) يحاول كافكا أن يقدّم صورة الإنسان في العصر الحديث، وقال لماكس برود إن بطل روايته القصيرة هذه يمكن أن يمثل حقيقة عامة للأفراد. كان في ذلك الوقت قد انتهى من قراءة دستويفسكي وسحرته روايته (في القبو)، وأكمل مراجعة مؤلفات كيركغارد: " تلقيت قبل مدة كتاب (خوف وشك) لكيركغارد، وكما شعرت من قبل فإن حالته رغم وجود بعض الفروق الجوهرية تشبه حالتي كثيرًا، فهو على الأقل موجود في نفس هذا الجانب من العالم، وهو يقرني كصديق". فيما يصف لماكس برود شعوره وهو ينتهي من (في القبو): "يجد بطل دستويفسكي نفسه لا يستطيع التمييز بين الوقائع وبين الخيال، فالوقائع تصبح أخيلة، فإن أكثر ما يشغله هو التخيل، فهو يهرب في الخيال من سردابه إلى العالم الواقعي، وكان في حالات الخيال هذه لا ينفك يذكر لنفسه دائمًا أن هذا الذي يجربه إنما هو الواقع الفعلي".

في يومياته يكتب: "اعتراضات ماكس برود على دستويفسكي بأنه يسمح للكثيرين من المصابين بالأمراض العقلية بالدخول إلى أعماله، زعم خاطئ تمامًا، فهذه الشخصيات ليست مريضة، وإصابتها بالمرض ليست إلا وسيلة

لتميزها على مستوى الشخصيات".

توضح رسالة (إلى أبي)، والتي لم يرسلها إلى والده، أن كافكا قد استخلص من علاقته بعائلته معرفة دقيقة بتقنية الشعور بالذنب التي صارت إحدى أكبر الثيمات في رواياته، يكتب كونديرا: "إن الكائن المقتلع من جذوره الذي يمثل أبطال روايات كافكا، الذين لا هدف لهم إلا التغلب على لعنة عزلتهم".

***

يستيقظ "ك" صباحًا ويرنّ جرس الهاتف وهو ما يزال في سريره ليحمل له طعام الفطور، وبدلاً من الخادمة يصل مجهولون، يرتدون ثيابًا عادية، لكنهم يتصرفون بسيادة تبلغ حدًا أن "ك" لا يستطيع ألا يشعر بقوتهم وسلطتهم، لكنه ما يزال مستغربًا وجائعًا في الوقت نفسه، ويبحث عن الخادمة فلا يجد أمامه سوى رجلاً نحيلاً يرتدي رداء أسود اللون لم يكن قد رآه قط من قبل، ويقول "ك" بتهذيب: "من أنت؟"، لكن الرجل تجاهل السؤال واكتفى بالقول: "لقد قرعت الجرس".

"كنت أريد من آنّا أن تحضر لي الطعام"، قال "ك".

منذ البداية نرى أن "ك" يعيش في حيرة مطلقة بين ضعفه المستعد للانحناء أمام الإهانة التي لا تصدق، وخوفه من الظهور مضحكًا، لكنه في النهاية يقرر أن يكون حاسمًا: "لا أريد البقاء هنا، ولا أن توجهوا إلي الكلام دون أن تقدموا أنفسكم".

إنه أول مشهد للتمرد مثلما حاول أرسون ويلز أن يصوّره عندما حوّل هذه الرواية إلى فيلم سينمائي، إنسان يتمرد ضد العنف الذي تعرض له لكنه يستمر في طاعة المتطفلين الذين لا يتنازلون إلى تقديم أنفسهم فحسب، بل يتناولون طعام فطوره ويجعلونه يبقى واقفًا في لباس النوم خلال هذا الوقت

كله.

هذه الرواية التي ترجمت مرة باسم (القضية) وأخرى باسم (المحاكمة) ،وأعدّها أندريه جيد للمسرح وأرسون ويلز للسينما، في رأيي هي أعظم الروايات التي تناقش أزمة الإنسان في كل العصور، تعرفت عليها للمرة الأولى في مقال نشر في مجلة الكاتب المصري التي عثرت على بعض أعدادها بالصدفة، المقال كان بقلم عميد الأدب العربي طه حسين الذي يقدم كافكا وكأنه أحد شعراء الجاهلية الذين تبحر في قصائدهم: "مر بهذا العالم سريعًا، فلم يعش إلا أربعين عامًا، أنفق جزءًا غير قليل منها في الطفولة والصبا متأثرًا بما حوله غير مؤثر فيه، فحياته العامة الظاهرة قصيرة جدًا، بسيطة جدًا". ويمضي طه حسين في تقديم كافكا إلى القراء العرب في أول مقال ينشر عنه في اللغة العربية - تاريخ المقال 1945م - حيث يحاول تحليل الفكر الكافكوي فلسفيًا وأدبيًا معتمدًا في تحليله على المنهج المباشر والواضح، انطلاقًا من أن الكاتب هو خلية من خلايا المجتمع الذي يعيش فيه ووجد لديه: "براعة خارقة للعادة في أن يجعل من نفسه موضوعًا للدرس والبحث والتحليل، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل".

ظهر الاسم المختزل "يوزف ك" الذي سنجده بطلاً في معظم روايات كافكا الكبيرة (القصر، المحاكمة، أميركا) لأول مرة في تموز عام 1914م، وذلك بعد يوم واحد من قرار كافكا أن "ينقذ" نفسه بأن يصبح كاتبًا، وكان بطل المحاكمة يدعى "هانس غورة" غير أنه خطر لكافكا أن يضع مكان الاسم "رمزًا"، واختار حرف "ك" وحين سأله ماكس برود عن المعنى قال إنه يعرف ماذا يعني "ك" ويريد من القارئ أن يتصور هذه الشخصية.

في عام 1921م، نشر برود مقالاً بعنوان (الشاعر فرانز كافكا) تحدث فيه عن أعظم عمل فني روائي (المحاكمة) التي هي موجودة وقد اكتملت

فصولها حسب رأي برود، أما حسب رأي كافكا فإنها غير مكتملة وغير قابلة للاكتمال وغير قابلة للنشر أيضًا. في عام 1925م، صدرت الطبعة الأولى من الرواية وقد طبعت منها ثلاثة آلاف نسخة احتاجت عشرة أعوام حتى تنفد من المكتبات، ليعيد برود طباعتها عام 1935م. وظلت الرواية دون صدى وقد ضمت سلطات هتلر الرواية ضمن قائمة الكتب الضارة وغير المرغوب فيها. في عام 1936م، صدرت النسخة الفرنسية من الرواية، وبعدها بعام صدرت في نيويورك، وفي عام 1951م، أصدرت دار بنغوين (المحاكمة) في كتاب جيب طبعت منه سبعين ألف نسخة ثم توالت الإصدارات لتصل مبيعات النسخة الإنكليزية إلى أكثر من مليون.

ظل "يوزيف ك" يحاول أن يندمج في المجتمع، ونراه في (أميركا) يحاول أن يفعل هذا عن طريق أن يكون ناجحًا، وفكر في (المحاكمة) أن يفعل هذا عن طريق البرهنة على براءته، وفكر "ك" في (القصر) أن يبحث عن ذاته عن طريق اليأس والاستقرار البائس.

يكتب ماكس برود أن كافكا كان يعبّر عن عجزه في وضع خاتمة لأعماله: "إن كافكا لم يكتب الفصل الختامي لمعظم أعماله، لكنه أخبرني ذات يوم أن "ك" عليه أن يموت وقد مزقه الصراع".

***

بدأ مرض السل الرئوي يزحف من رئتي كافكا إلى حنجرته، وفي الشهور الأخيرة لم يستطع أن يتواصل مع الآخرين إلا من خلال الكتابة، ولم يستطع الأكل إلا فيما ندر.

وفي أبريل 1924م، تم نقله إلى مصحة استشفاء قرب فيينا، لكن حالته استمرت في التدهور ونراه يقول للطبيب: "اقتلني، وإلا فأنت قاتل". كانت هذه الكلمة الأخيرة التي نطقها في السادس من حزيران عام 1924م حيث

توفى تاركًا وراءه إرثًا أدبيًا سيكون مادة غنية للدراسة والتحليل. كتب الناقد الإنكليزي إدموند ويلسن: "لقد واجهت صعوبة بالغة في قراءة كافكا وأنا أتمدد على الفراش. قصص مليئة بالعذاب، بوصف الجروح، بالارتباك، بالسادية والمازوخية، والقسوة، وتظهر في مشاهده القوارض والخنافس، وكائنات بشعة أخرى. وتقف وراء كل هذا خلفية من اليأس المطلق. كافكا لا يعدك بقراءة مريحة قبل النوم".

(29)

والآن يا عزيزي كل ما نحتاج إليه هو أن يفشل الكتاب

بدأ اهتمامه بالرواية في الليلة التي قرأ فيها رواية (المسخ) لكافكا. يتذكر كيف عاد إلى غرفته البائسة وبيده نسخة من تلك الرواية أعارها له صديق. كانت النسخة بترجمة أديب أرجنتيني لم يكن معروفًا آنذاك اسمه خورخه لويس بورخس، خلع قميصه وحذاءه، واستلقى على السرير، فتح الكتاب وبدأ بقراءة السطر الأول: "حين استيقظ غريغور سامبا في صباح يوم من الأيام إثر أحلام مضطربة، وجد نفسه وقد تحول في سريره إلى حشرة هائلة". رمى الكتاب جانبًا وهو يقول لنفسه: "اللعنة، إنها تشبه الأسلوب الذي كانت تتحدث به جدتي".

بعد يوم قال لأحد أصدقائه: "لقد وجدت مهنة تناسبني.. إنها الكتابة".

جلس ليكتب قصته الأولى، اختار لها اسم (الاستسلام الثالث)، تدور فكرتها الرئيسية عن شخص غير متأكد إن كان حياً أو ميتاً. وبالرغم من أن والده أخبره أن قصته مرتبكة ولا معنى لها، لكنه جازف وأرسلها إلى إحدى الصحف المحلية، وبعد أسبوعين كان يجلس في المقهى، ولدهشته شاهد عنوان قصته يغطي صفحة كاملة من الصحيفة. نادى على بائع الصحف ليشتري نسخة لكنه تحسس جيوبه، ليكتشف أنه لا يملك الخمسة سينتافو ثمن الصحيفة، عاد إلى البيت وحاول أن يقنع شقيقته فسخرت منه، ليستنجد بأحد أصدقائه حيث خرجا معًا لشراء صحيفة (الإسسبكتادور)

ليوم الثالث عشر من أيلول عام 1947م، ليجدا على الصفحة الثالثة قصة (الاستسلام الثالث) لغابرييل غارسيا ماركيز.

***

بعد مضي سنوات، يقول غارسيا ماركيز إنه عاد إلى البيت وجلس إلى آلته الكاتبة، وتذكّر كاتبه المفضل كافكا، تمامًا مثلما قرأه للمرة الأولى قبل عشرين عامًا: "إنني هذه المرة لم أنهض لأمضي ثمانية عشر شهرًا أواصل الكتابة كل يوم"، وقد أخبر صديقه فيدل كاسترو أن المشكلة الكبرى التي واجهته هذه المرة تمثلت في البدء بالكتابة، فهو يتذكر اليوم الذي أكمل فيه الجملة الأولى بصعوبة بالغة: "بعد سنوات طويلة، وأمام فصيل الإعدام تذكر الكولونيل أورلياندو بوينديا، عصر ذلك اليوم البعيد الذي اصطحبه فيه أبوه كي يتعرف إلى الجليد"، بعدها يسأل نفسه وهو في حالة من الهلع عن الجملة التالية، ولم يكن يتوقع أن الكتابة هذه المرة ستصل إلى نهاية معينة، فقد أدرك أن عالم كافكا الغرائبي والساحر يتملكه. بعد عشر صفحات، وعند جملة "مات ملكيادس"، قال لنفسه إنه يستطيع الآن أن يسترخي ويذهب باتجاه المطبخ، كانت مرثيدس تعد الغداء، اقترب منها وهو يقول: "هذه المرة لن يكون الأمر سيئًا. لقد اكتشفت طريقي". يكتب ثمانمائة صفحة بطريقة متواصلة، لكنه يقرر في النهاية أن يختصرها إلى 400 صفحة، وفيها سيروي لنا قصة أربعة أجيال من أسرة بوينديا، التي تعيش في بلدة أركاتاكا، لكنه يستعمل اسما آخر لها هو ماكوندو، هو الآن في الأربعين من عمره، يدرك أن العمر يمضي سريعًا وعليه أن يؤلف كتابًا حول ذكريات طفولته وليس كتابًا عن قصة عائلته، وبدلاً من أن يكتب رواية واقعية، عليه أن يكتب شيئًا آخر يجعله قريبًا جدًا من كافكا، وبعد أن كان يتململ من الكتابة ويكتب في اليوم صفحة واحدة، الآن هو يكتب عدة صفحات منقحة في اليوم الواحد. والكاتب الذي كان يعاني من تسلسل الأحداث الواقعية فيما يكتبه، بات الآن

يتلاعب بالأحداث فيدمج حياة جده مع حياة أبيه، ويدمج جدته مع زوجته مرثيدس، دامجًا تاريخ أسرته بتاريخ أميركا اللاتينية. ومثل سيرفانتس وهو يكتب (دون كيخوته)، حاول في (مئة عام من العزلة) أن يضع قواعد جديدة للرواية الحديثة، موحدًا المكونات الأدبية: بورخس، ستورياس، ورابليه، بهمنغواي وفوكنر وديفو، بمدونات الفتوحات الإسبانية. بانتهاء الأسبوع الأول من الكتابة، كان ماركيز قد قطع شوطًا كبيرًا، وسرعان ما اكتشف أنه بحاجة إلى أن يعلق كل نشاطاته. يكتب رسالة إلى صديقه كاسترو يطالبه بتأجيل لقائهما، ثم يكتب رسالة أخرى إلى وكالة الأنباء التي يعمل فيها يخبرهم فيها بعدم تمكنه من الاستمرار في العمل، وتخبره مرثيدس أنه يقوم بمقامرة غريبة لرب أسرة يفترض فيه أنه يفضل عائلته على الرواية، بعد ذلك يخبر كاتب سيرته جيرلد مارتن: "لم أكن واعيًا بأي أمر، كنت أعتقد أنني مجرد رجل عليه أن يروي القصص والحكايات".

في أيلول من عام 1965م، كان ماركيز يذهب بولديه كل يوم إلى المدرسة، وبعد أن يعود يجلس إلى مكتبه من الساعة الثامنة صباحًا وحتى منتصف الغروب، حابسًا نفسه في غرفة صغيرة، وغارقًا وسط الدخان، ولا يظهر إلا عند أوقات وجبات الطعام. لكن الغريب أن الجميع كان ينتظر هذا الكتاب، ويتذكر ماركيز فيما بعد فيقول لبلينيو ميندوثا في (رائحة الجوافة): "مارس الكتاب منذ اللحظة الأولى، وقبل نشره بزمن طويل، تأثير السحر على جميع الذين أصبحت لهم صلة بالكتاب، أصدقاء كانوا أو أفراد عائلة، وحتى الآخرين كالجزّار وصاحب البيت الذي نسكن فيه، وغيرهم من الذين كانوا ينتظرونني كي أفرغ من كتابته كي أسدد ديوني". كانوا مدينين لصاحب البيت بأجر ثمانية أشهر، لما كان صاحب البيت يكثر في طلب نقوده، قالت له زوجة ماركيز: "انظر، ما إن ينتهي من هذا الكتاب حتى تجد نقودك بين يديك". وكانت قد سألت ماركيز متى ينتهي من الرواية فأخبرها أن أمامه

خمسة أشهر، عندئذ قالت للدائنين: "عليكم الانتظار حتى أيلول المقبل". ومن بين الذين كانوا ينتظرون ماركيز أن ينتهي من الرواية، الفتاة المريضة التي تشتغل على الآلة الكاتبة. كان ماركيز يأخذ لها كل بضعة أيام ملزمة سبق أن نضدها وصححها بيده، لتقوم بتنضيد نسخة خالية من الأخطاء، كانت الفتاة تشكو من أخطائه الإملائية الفظيعة، وذات يوم كادت الرواية أن تضيع حين تعرضت الفتاة إلى حادث دهس وتطايرت الأوراق في جميع أرجاء الشارع، بعد ذلك قالت إرياثا إنها كانت تدعو صديقاتها كل نهاية أسبوع لتقرأ لهن ما يقدمه إليها غارسيا ماركيز من فصول الرواية.

***

في مطلع عام 1966م، كانت النقود قد تبخرت من البيت، في الوقت الذي أخذت فيه الرواية تكبر وتكبر، لكن الدائنين يزدادون ويزدادون، ولم يجد من حل سوى أن يقود سيارته من طراز أوبل إلى موقع بيع السيارات ليرجع بمبلغ من المال. وعندما بدأت النقود التي حصل عليها من ثمن السيارة تنفد، بدأت مرثيدس تبيع كل شيء: التلفزيون والثلاجة والمذياع، وما تبقى من حلي رخيصة، وكان آخر شيء عندها مفرمة اللحم الكهربائية، وأقنعت مالك البيت أن ينتظر شهرًا آخر، أما صاحب محل الخضار والجزار فإقناعهم كان أمرًا صعبًا للغاية.

وبعد شهر، وفي تمام الساعة الثامنة من صباح الثامن عشر من تشرين الأول عام 1966م، صعد ماركيز إلى غرفة النوم حيث مرثيدس غارقة في النوم. استلقى على الفراش وأخذ في البكاء، لقد مات العقيد أوريلياندو، وشعر حينها أن كل شيء انتهى. لقد أجهز على بطله وعلى الرواية في آن واحد، لقد انتهت الآن مرحلة مهمة من حياته وانتهت معها علاقة خاصة ربطته بأهم إنسان في حياته، وهو جده الذي فقده نهائيًا وكان يتمنى أن

الأدب يستطيع بعثه من جديد. لقد تمكن من إنهاء الرواية، وأخبر صديقه الروائي فونتيس: "وصلت الرواية إلى نهايتها الطبيعية. أتمنى أن يلقى الكتاب رواجًا". كان أول عمل قام به أن أرسل نسخة منها لبلينيو مينوثا قبل إرسال نسخة إلى دار النشر، وتلقى كاسترو نسخة، فألغى أعماله لذلك اليوم وقرأها من البداية حتى النهاية، وأخبر شقيقه راؤول: "لقد فعلها صديقنا، وحقق الضربة القاضية التي كان يتمناها"، ثم سحب السيجار من بين شفتيه وطلب أن يتم الاتصال بماركيز، يريد أن يقول له: "لقد أنجزت عملاً مدهشًا".

***

الآن شعر أن باستطاعته أن يأخذ إجازة طويلة، فهو استطاع أخيرًا أن يرحل من عالم ماكدونو السحري ليبدأ بالبحث عن عمل يوفر له بعض المال، ويتذكر أنه كتب مئات الصفحات، ودخن ثلاثين ألف سيجارة، وأنه كان مدينًا بمئة وعشرين ألف بيزوس، وأنه يشعر بعدم الأمان. بعد أسبوعين من الانتهاء من الرواية، يرافق زوجته إلى دائرة البريد لإرسال المخطوطة النهائية إلى الناشر في بوينس آيرس، كان الاثنان أشبه بشحاذين يحملان رزمة تحتوي على أربعمئة وتسعين صفحة. وعندما قال لهما موظف البريد إن ثمن الطرد اثنان وثمانون بيزوس، نظر ماركيز إلى زوجته وهي تفتش في حافظة نقودها، لم يكن لديها سوى خمسين بيزوس، فأخبرهما الموظف أن بإمكانهما إرسال نصف الطرد، وطلب ماركيز من موظف البريد أن يقتطع النصف ويرسله. وما أن وصلا إلى البيت حتى اكتشفا أن موظف البريد أرسل النصف الثاني من الرواية، فلم يكن أمامهما إلا الذهاب إلى أقرب الأصدقاء لاستدانة باقي المبلغ ليرسل النصف الأول، وما أن خرجا من مبنى البريد حتى توقفت زوجته وهي تنظر إليه بأسى لتقول: "والآن يا عزيزي، كل ما نحتاج إليه هو أن يفشل الكتاب".

***

في الثلاثين من أيار عام 1967م، صدرت (مئة عام من العزلة) بسعر دولارين، كانت الفكرة المبدئية تتمثل بإصدار ثلاثة آلاف نسخة، غير أن حماسة فونتيس ويوسا للرواية جعل الناشر يقرر أن يجازف ويطبع خمسة آلاف نسخة، وتوقعوا أن تباع الرواية في غصون عام واحد. وبعد أسبوع بيعت الخمسة آلاف الأولى، ويجد ماركيز نفسه على قائمة الكتاب الأكثر مبيعًا في أميركا اللاتينية. لم يكتفِ الناشر بالطبعة الأولى فأصدر الثانية والثالثة والرابعة بعد شهر واحد، ثم قرر أن يصدر طبعة شعبية، وهذه المرة ستكون المجازفة بمليون نسخة ستطرح مرة واحدة. وتصدر الرواية في إسبانيا والأرجنتين وكوبا في وقت واحد، وتتاح الفرصة للعجوز بورخيس أن يقرأها فيكتب رسالة حماسية إلى ماركيز يخبره أنه أحب الكتاب حبًا جنونيًا حاله حال حبه لبروست، وأنه من الآن فصاعدا سيؤمن أن تثربانتس جديد يعيش بيننا.

العام 1982م، كان مليار إنسان في معظم أرجاء العالم قد قرأ (مائة عام من العزلة)، وفي الوقت الذي كان موسم جائزة نوبل، كان ماركيز قد أصدر روايتين بعد ذلك هما (خريف البطريك) و (ساعة نحس)، وكما حدث في السنوات السابقة فإن اسم ماركيز طرح من جديد، ولكن هذه المرة هناك إصرار على منحه نوبل. في يوم السابع عشر من تشرين الأول عام 1982م، كانت الصحف الكولومبية تتحدث عن رواية ماركيز الجديدة التي ستكون عن الحب، وفيما كان ماركيز ومرثيدس جالسين إلى مائدة الغداء اتصل بهما فونتيس ليقول إن كل الدلائل تشير إلى أن الجائزة في حكم المنتهية لماركيز. لم ينبسا بكلمة واحدة، نظر كل منهما إلى الآخر، وقررا أن يقضيا السهرة خارج البيت، وبعد أن عادا فجرًا لم يستطيعا النوم، وعند السادسة صباحًا اتصل نائب وزير خارجية السويد بمنزل ماركيز يخبره بحصوله على نوبل،

وعندما وضع ماركيز سماعة الهاتف التفت إلى مرثيدس وقال: "لقد أضحينا في ورطة". ولم تمر دقائق حتى كان كاسترو على الهاتف، وقال إنه سمع الخبر للتو من فرانسوا ميتران الذي سمعه بدوره من رئيس وزراء السويد، دقائق ويتصل الرئيس الكولومبي، ثم يعاود كاسترو الاتصال قائلاً: "أخيرًا تحقق العدل، يؤسفني أنني لا أستطيع الحضور لتهنئتك بنفسي، إن الاحتفالات تعم كوبا منذ إذاعة الخبر". ثم كان ميتران على الهاتف، بعده المعلم بورخيس والرئيس المكسيكي. وعلى مدى أسبوع ادعت كولومبيا وكوبا والمكسيك أن ماركيز هو مواطنها وأديبها.

الجميع يحبه ما عدا صديق واحد كان من أقرب المقربين إليه، هو ماريو بارغاس يوسا. كانا أكثر من صديقين لعدة سنوات، فالاثنان من كبار كتاب أميركا اللاتينية وكلاهما ساهما في نهضة أدب أمريكا اللاتينية، وكلاهما يرتبطان بصداقات عائلية، إلا أن الخلاف وقع فجأة. ففي سنة 1976م، حضر ماركيز في مكسيكو سيتي عرضًا لفيلم (أوديسة الأنديز) الذي كتب نصه يوسا، وعندما رأى صديقه ذهب ماركيز ليعانقه قائلاً: "أهلا يا أخي". فما كان من يوسا إلا أن لكمه في وجهه ملقيًا به أرضًا وتاركًا كدمةً على وجهه.

فقال ماركيز: "بما أنك الآن لكمتني وطرحتني أرضًا، فلماذا لا تطلعني على السبب؟" هكذا قصّت زوجة يوسا الحادثة. ومنذ ذلك الحين تساءل أهل الأدب في أمريكا اللاتينية عن السبب. إلا أن يوسا يقول دائمًا عندما يطلب منه إجابة إن الحادثة نجمت عن مشكلة شخصية.

ولأربعة عقود رفض يوسا أن يناقش الحادثة، وقال إنه توصل إلى اتفاق مع ماركيز يقتضي أن يأخذا هذه القصة معهما إلى القبر. ولكن في حوار أُجري معه، تحدّث يوسا الحائز على نوبل للآداب عن صديقه وغريمه ماركيز، وشرح بتأثر واستفاضة عما كان يعنيه له، منذ أول مرة قرأ فيها أدب ماركيز

حتى لقائهما الأول في مطار كاراكاس سنة 1967م، وإلى سنوات رفقتهما في برشلونة، وإلى خطتهما لكتابة رواية معًا عن حرب سنة 1982م بين البيرو وكولومبيا.

وتحدّث عن (مئة عام من العزلة) التي قرأها وكتب عنها عندما وصلته وهو يقيم في لندن، بعد نشرها ببضعة أسابيع. "هذا الكتاب وسّع الجمهور القارئ للأدب الناطق بالإسبانية، ليشمل المثقفين وكذلك القراء العاديين بسبب أسلوبه الواضح الشفاف. في نفس الوقت عكس الكتاب أمريكا اللاتينية جيدًا: الحروب الأهلية في أمريكا اللاتينية، وخيالها ولامساواتها، وحبّها للموسيقى والألوان. كل هذا كان في روايةٍ اختلطت فيها الواقعية والخيال بطريقةٍ مُحكمة".

بعد سنوات يكتب كارلوس فوينتيس: "لدي شعور أن الكتّاب في أمريكا اللاتينية لا يمكنهم استخدام كلمة "عزلة" مرة أخرى؛ لأنهم يشعرون بالقلق من أن الناس سوف يعتقدون أنها إشارة إلى الساحر ماركيز".

(30)

شكسبير من زنزانة دوبريه إلى مدفعية تولستوي

منتصف العام 1967م، كمنت كتيبة صغيرة من الجيش البوليفي لمجموعة من ثوار العصابات، ممن جاءوا لمناصرة جيفارا في حربه ضد الإمبريالية، كان الشاب دوبريه قد رمى متع باريس ولياليها الساحرة وراء ظهره، متجهاً صوب كوبا حيث يبدأ أولى رحلاته في عالم الثورة الضاجّ بالمواقف والحروب والسجالات. ابن العائلة الثرية لم يحمل معه سوى حقيبة ملابس ونسخة فرنسية من (الملك لير) لشكسبير. هناك تبدأ رحلته الأولى في الجبال والأدغال، بعدها نجده في زنزانة صغيرة يقف قبالته الكولونيل أندريه سيليش الذي حضر مسرعًا لأن مساعديه أخبروه أنهم ألقوا القبض على قائد المجموعة. في الزنزانة الصغيرة يدور حوار مدته أكثر من ساعة بين الأسير والضابط الأميركي الذي أثار استغرابه أن ينضم شاب ينتمي إلى الوسط البرجوازي إلى مجموعة من العصابات. وفي مذكراته التي نشرها بعد سنوات نقرأ ملخصًا لما دار:

"هل تشعر بالندم؟" قال الضابط.

"ما الذي بوسعنا أن نورث الأرض سوى أجسامنا المخلوعة.. هكذا يقول شكسبير"، يجيب دوبريه.

وفي الزنزانة التي دخل إليها سجيناً يجلس دوبريه ليعيد قراءة شكسبير من جديد. كان أول ما طلبه أن يحصل على نسخة من مؤلفات كاتبه المفضل.

هذه المرحلة العصيبة من حياته في المعتقل يدوّنها دوبريه في كتاب صغير أطلق عليه اسم (مذكّرات برجوازي صغير). يبدأ الكتاب بعبارة مقتبسة من شكسبير:

أعطني المرآة وفيها سأقرأ

ألم تعمق الغصون بعد، هل أنزل الحزن

هذه الضربات كلها على وجهي هذا

ولم يترك جروحًا أعمق

يكتب دوبريه فيما بعد: "إنني ممتن لرفقة شكسبير خلال سنيّ السجن الأربعة، لقد تعلمت منه أننا جميعًا بشر ننام ولا نستطيع النوم، نحيك المؤامرات ثم نذهب إلى العشاء مطمئنين".

في عام 1982م، كتب دوبريه مقالاً كان قد أعده أثناء فترة السجن كما يخبرنا في مذكراته ووضع له عنوان (كيف تقرأ شكسبير)، يقول فيه: "هناك كتّاب متميزون بأن لديهم قدرة على أن يسحروك ويجعلوك تهيم بهم أمثال دانتي وبلزاك وسيرفانتس، أما شكسبير فلديه اهتمام آخر أكثر من أن يجعلك تهيم به، هو أولاً وقبل كل شيء الإنسان. ورغم أن شكسبير ما كان ينبغي أن يكون كاتبًا دنيويًا فإنه يبدو لي المنافس الأكبر لكل حكماء البشرية، ليس هناك أشد غرابة أو أشد روعة من أنك حين تنحني بعيدًا عنه، تجد أن هذا الكاتب الذي هو أبرع من يقدم المتاهة والتسلية، يزودنا برؤية بديلة ومتعمدة لما هو موجود من الكتب المقدسة عن الطبيعة البشرية ومصير الإنسان، هكذا نرى هاملت ولير وريتشارد وعطيل يتحدثون بحكمة، إن قدرة شكسبير على الإقناع قدرة هائلة لأنه الأغنى على مر العصور".

***

لا أذكر عدد الكتب التي قرأتها أو تصفحتها عن شكسبير (أو الشيخ زبير مثلما كان يصر الراحل صفاء خلوصي على أن يسميه). ولكنني أتذكر أنني منذ سنوات لم يمر أسبوع دون أن تطالع عيناي كتابًا جديدًا عن هذا الشيخ الذي تنكّر لعروبته، كما أراد أن يقنعنا العقاد. وجميع هذه الكتب تتحدث عن سر هذا الرجل وكيف أنتجت "قريحته" كل هذه السطور والعبر والمشاهد والمواقف التي لم تستطع أربعة قرون أن تطويها في جب النسيان. ويحدثنا لويس عوض في كتابة الممتع (رحلة إلى شكسبير) أنه استطلع آراء عشرات البريطانيين كان معظمهم يعتقد أن شكسبير قناع لأكثر من مؤلف، إذ لا يمكن لرجل واحد أن يمتلك كل هذه القدرة على تصوير الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد، فهو مثل كلكامش رأى كل شيء وكتب عن الضعف الإنساني والحب والجريمة. والغريب أن دراسات كثيرة ظهرت تشكك في الصورة الشهيرة المنشورة لوليم شكسبير، من أنها قد تكون لشخص آخر، ومنذ أكثر من مئتي عام والباحثون يدرسون كل ورقة يعثرون عليها في بلدته ستراتفورد، عن حياته، والملابس التي كان يرتديها، بل إن هناك كتابًا خُصص لنوع الطعام الذي كان يتناوله صاحب هاملت، والبعض الآخر راح يحصي الكلمات التي أدخلها شكسبير إلى اللغة الإنكليزية، وذهب البولوني يان كوت ليحصي عدد الدراسات التي كتبت عن مسرحية هاملت لوحدها، فوجدها تعادل ضعف دليل التلفون لمدينة مثل لندن. ليس هناك إنكليزي من لحم ودم كُتب عنه بقدر ما كُتب عن شكسبير، تفاسير وشروحات وتعليقات لا تعد ولا تحصى، واسمه يعني شيئًا ما حتى لأولئك الذين لم يقرأوا كتبه ولا شاهدوا يومًا مسرحياته، أجيال عديدة رأت صورها وأحلامها وطموحاتها في مسرحياته، ودائمًا يطرح السؤال: كم من شكسبير فينا، وكم منا نحنُ فيه؟

يطرح شكسبير مواضيع كثيرة، فيها سياسة، المقارنة بين القوة والأخلاق،

وفيها بحث عن العدالة الاجتماعية وغاية الحياة، فيها مأساة الحب والدراما العائلية، وفيها نظر في المشكلات الفلسفية والميتافيزيقية، وفيها كل ما نشاء، بما في ذلك التحليل النفسي، والكوميديا، والطب والهندسة والرياضيات والتاريخ. وللقارئ أن يختار وفق إرادته، ولكن عليه أن يعرف كيف يختار.

كتب برتولت برشت في (الأرغانون الصغير للمسرح) والذي ترجمه إلى العربية الراحل الكبير والمنسي يوسف عبد المسيح ثروت: "كان شكسبير يعي حاجات عصره ويدرك أن الحروب تجلب المآسي، وجيوشًا تجتاح البلدان وحروبًا عدوانية وعجز العقل".

حين وصل شكسبير إلى لندن أول مرة، لم يجد المال الكافي الذي يؤمن له سكنًا مستقلاً فأقام مع أحد أقاربه. كان عمله الأول في المسرح ملقناً، ويقول كاتب أقدم سيره له أنه: "عُرف أول ما عرف باعتباره ملقّنًا وأحيانًا مناديًا على الممثلين، أو منقحًا لمسرحيات أشخاص آخرين، هذا ما تنقله سجلات مدينة ستراتفورد". ويخبرنا أحد كتّاب سيرته أن شكسبير الشاب كسب عيشه من حراسة جياد المسرح، وهناك أمر كان يعاني منه شكسبير أنه لم يدخل الجامعة، وكان البعض ينتقد افتقاره إلى التعلم، أراد أن يجرب حظه في الشعر فعرض أبياتًا على صديقه الكاتب المسرحي توماس كيد الذي نصحه أن يهتم بتلقين الممثلين أفضل. حتى عام 1859م، لم يظهر اسم شكسبير على أي من أعماله التي قدمها للمسرح، وحين نشرت مسرحيته (كوميديا الأخطاء) في أول طبعة لها كتب على الغلاف الداخلي: "صححها حديثًا وأضاف إليها: و. شكسبير". في ذلك الوقت كان قد مضى على وجوده في لندن أكثر من عشر سنوات، وكانت شهرته ككاتب مسرحي تزداد يومًا بعد آخر، حتى حل عام 1592م ليظهر اسم شكسبير لأول مرة على مسرحيته (هنري السادس) والتي كتب عنها الناقد الفني آنذاك روبرت جرين أول مقال عن مسرح شكسبير، أكد فيه أن بريطانيا استطاعت أخيرًا أن تنجب

كاتبًا بحجم الروماني سنيكا.

***

جرت محاولات كثيرة للتشكيك في وجود شخص اسمه شكسبير، فقد قال البعض إنه اسم مستعار، وقد اختلفوا في أسماء الأشخاص الذين انتحلوا هذا الاسم، فالبعض قال إن الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون هو من كتب هذه المسرحيات، ووضع عليها اسم شكسبير، ومنهم من حاول أن يثبت أن هذه المسرحيات من تأليف الكاتب الإنكليزي كريستوفر مارلو، والطريف أن هناك من أكد أن المسرحيات من تأليف الملكة إليزابيث الأولى. والجميع يتحجج بقلة المعلومات عن شكسبير، ولعل أول من كتب سيرة مختصرة لشكسبير هو المؤرخ الانكليزي "هو روو" وذلك سنة 1709م، حيث نشر مجموعة مسرحيات شكسبير مع نبذة مختصرة عن مؤلفها، وفيها نعرف أن شكسبير ولد في 23 نيسان عام 1564م، ويذكر روو أن شكسبير كان الثالث في تسلسل العائلة التي ضمت ثمانية أطفال، كان والده مزارعًا، أما أمه فاسمها ماري آردن ابنة أحد ملاك الأراضي، في سن الثامنة عشر يتزوج امرأة أكبر منه بثماني سنوات، يعمل ممثلاً في مسارح ستراتفورد، وتشير الوثائق إلى أنه طرد من عمله بسبب خروجه على النصوص التي كان يمثلها، حيث كان يستبدل الحوارات بأخرى يكتبها بنفسه، فاضطر في هذه المرحلة أن يكتب الشعر وينشره، وكان يبيع القصيدة بخمس سنتات، ويبدو أن قصائده كانت تعجب القراء، فكانت الصحف تشتري منه معظم كتاباته، عام 1594م يقرر تشكيل فرقة مسرحية خاصة به، ويبدأ اسم شكسبير يتداول ككاتب وممثل حيث قدم عددًا من الأعمال المسرحية منها (حلم ليلة صيف)، (دقة بدقة)، والمسرحيات التاريخية. عام 1603م يكتب مآسيه الكبرى هاملت، عطيل، ماكبث، الملك لير، وكانت مسرحية (العاصفة) خاتمة أعماله حيث قرر بعدها أن يعود لمسقط رأسه ستراتفورد، حيث أمضى

سنواته الأربعة الأخيرة من عمره مرفّهًا، اشترى أكثر من دار، وقرر أن يبني مسرحًا كبيرًا. عام 1616م مرض شكسبير وأرسل إلى محاميه بوصيته الأخيرة، وفيها يترك كل ما يملك إلى ابنته سوزان على أن ترثه من بعدها ابنته جولييت، ولم يترك في وصيته لزوجته سوى الدار التي يسكنون فيها. وظل شكسبير مريضًا ما يقارب الشهر، ليموت في 23 نيسان عام 1616م حيث كانت عائلته وأصدقائه يحتفلون بعيد ميلاده الثاني والخمسين، ودفن داخل الكنيسة في مدينته ستراتفورد، ولا يزال قبره موجودًا وقد نقشت عليه هذه الأبيات التي كتبها شكسبير:

يا أصدقائي الطيبون، بحق المسيح

لا تنبشوا التراب المدفون هنا

بارك الله من يترك هذه الصخرات في مكانها

واللعنة على تلك اليد التي تنقل عظامي

وبعد وفاته بسبع أعوام قام صديقاه همينيك وكونديل بجمع مسرحياته التي بلغت 37 مسرحية ونشروها بمجلد كبير، ويحتوي المجلد على صورة لشكسبير رسمها الفنان دروشوت، وقد كتب مقدمة المسرحيات الكاتب المسرحي بن جونسون، وكان أحد معاصري شكسبير وجاء فيها:

افخري يا إنكلترا به

فله تدين كل مسارح أوروبا

ولم يكتب لعصر معين، وإنما لكل العصور

***

يكتب تولستوي في مقال شهير عن شكسبير منتقدًا الهوس الذي أصاب

الروس بمسرحيات هذا الإنكليزي: "مهما قال الناس عن شكسبير، ومهما كانوا معجبين بأعماله، ومهما كانت الميزات التي يمكن أن ينسبوها إلى هذه الأعمال فمن المؤكد أن شكسبير هذا ليس فنانًا وأن أعماله ليست أعمالاً فنية".

ويذهب تولستوي بعيدًا في نقده فيقول: "وقد يقول المعجبون بشكسبير يجب ألا ننسى العصر الذي كتب فيه هذا الفنان أعماله الفنية، فقد كان هذا العصر من عصور القسوة والأخلاق الخشنة، كان عصرًا من عصور البلاغة والزخرفة اللفظية، وبعبارة أخرى، كان عصرًا من عصور التصنع خاصة في الحديث، وهي الصفة التي لازمت معظم أعمال شكسبير".

هذا هو رأي تولستوي في شكسبير، وهو رأي فنان عبقري في فنان عبقري آخر، وهو رأي يلقي ضوءاً على مزاج تولستوي وذوقه أكثر مما يلقي الضوء على أدب شكسبير. ومزاج تولستوي وخاصة في السنوات الأخيرة من حياته هو مزاج فنان باحث عن فلسفة أو عقيدة شاملة تملأ حياته، بحيث أصبح يرى أن الفن كله ليس وسيلة للتعبير عن هذه الفلسفة أو العقيدة الشاملة، وربما من هذه الناحية لا يقدم شكسبير شيئًا له أهمية بالنسبة لرجل مثل تولستوي تخلى عن أملاكه وقرر أن يترك الكتابة، ليهتم بأوضاع الضعفاء والمساكين.

كان تولستوي قد انتهى من رائعته (الحرب والسلم)، وكان يعتقد أن الإنسان لا إرادة له، ينفذ من دون تفكير، يسير ويقوم وينام من دون نقاش، لا نهاره له ولا غده ملكه. فيما كان شكسبير فنانًا يعرف أن الإنسان مصدر الخير والشر في آن واحد، كان تولستوي يريد أن يغير العالم، وكان شكسبير يريد أن يفهم العالم بكل تناقضاته. ظل تولستوي طوال حياته مقاتلاً شرسًا من أجل إرادة الحياة، وعاش شكسبير حياته متأملاً يراقب ويلاحظ ويسجل ما يراه دون أن تراوده لحظة واحدة رغبة في تكسير قواعد هذه الحياة.

***

عرف شكسبير في العراق من خلال ترجمات قدمها المصري حلمي مراد في سلسلته الشهيرة (كتابي)، وقد قدمها للقارئ باعتبارها قصصًا درامية أكثر من كونها مسرحيات، لكن المحاولة الأولى لتعريب شكسبير في العراق قام بها سليمان صايغ حيث قدم فصلاً من مسرحية (تاجر البندقية) ونشرها في مجلته النجم عام 1918م، وكانت الترجمة أشبه بمحاولة نقل أبيات الشعر الإنكليزي إلى العربية بقافية موزونة، وهو الأمر الذي وقع فيه المصري محمد فريد أبو حديد حين ترجم ماكبث إلى العربية. إلا أن المحاولة الأولى والجادة لنقل شكسبير للعربية كانت من قبل الشاعر اللبناني خليل مطران، والذي يعد رائد الترجمة الجادة لأعمال شكسبير، وهي الترجمة التي استهوت الراحل حقي الشبلي ليقدم أول عرض لشكسبير في العراق وكانت مسرحية (يوليوس قيصر)، ليصبح شكسبير فيما بعد الضيف الدائم على خشبة المسرح في العراق، ولتقدم أعمال من خلال جعفر السعدي وإبراهيم جلال وبدري حسون فريد وسامي عبد الحميد ومرسل الزيدي وحميد محمد جواد وصلاح القصب وشفيق المهدي وباسم عبد القهار ومناضل داود وناجي عبد الأمير. وليظل شكسبير على قائمة الكتاب الأكثر مبيعًا، فهو الاستثناء الوحيد الذي حقق مبيعات تجاوزت الأربعة مليار نسخة.

قائمة المحتويات

أنا قارئ أنتمي إلى تلك الفئة من الناس الذين يقرأون في أي مكان وزمان، أحمل الكتاب معي أينما أذهب ويعرف أصدقائي أنني شخص موثوق عندما يحتاجون إلي ترشيح لكتـاب يقرأونه، أو عندما لايمكنهم تذكّر مِن هو مؤلف الكتاب الفلاني وكم طبعة صـدرت له، إن حياتي العملية شديدة التداخل مع محبتي للقراءة لدرجة أنني لا أستطيع الفصـل بين الاثنتين، وشخصـيتي هي نتـاج الجمع بين كل شخصيات الكتب التي أحببتها وأصبحـت جزءًا من ذاكرتي، فأنا لم أذهب إلي بطرسبورغ، لكنني أحفظ أبرز معالمها التي أخذني فيها دستويفسكي وتولستوي ذات يوم، ولم أشاهد ماذا حدث لباريس أثنـاء الحرب العالمية الثانية، فتطوع همنغواي ليخـبرني بكل التفـاصيل، ولم أزر براغ، إلا أن مـيلان كونديرا قـدم لي وصفًا ممتـعًا لما يدور في شوارعها، وأصبحت أعرف من خلال خبرتي في الكتب، إن القراء يعيشون أكثر من حياة .

ISBN 978-2-84409-937-2